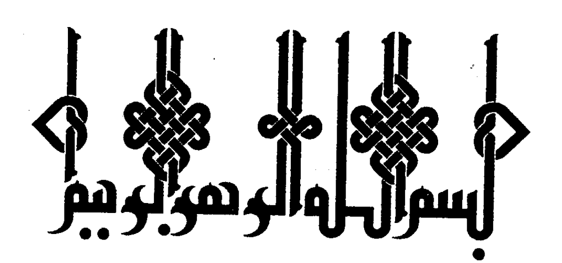
الإعلام الإسلامى
فى
مواجهة الإعلام المادى

أستـــاذ دكتـور
محمـود محمـد محمـد عمـارة
الأستـــاذ بجامعة الأزهـر



رقم الإيداع : ٩٨/٥٠٨٥

الترقيم الدولى 6 - 75 - 5826 - 977

مطبعة التوحيد الحديثة
بشبين الكوم ت: ٣١٥٤٢٠ / ٠٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قصتى .. مع الإعلام

تمهيد :

فى الأربعينات .. وبعد أن أتممت القرآن الكريم حفظاً .. كانت هناك لحظات ممتعة فى حياتى الباكرة :

أولاهـا : عندما أعود إلى « كتاب سيدنا » لأقرأ حصتى اليومية من كتاب الله تعالى.. استعداد للألتحاق بالمعهد الدينى فى شبين الكوم ..

وكان يسعدنى فى ذهابى وإيابى أن يشير الصبية فى الكتاب إلىّ قائلين : وصل « الشيخ » محمود ..

لقد كانت «المشيخة» لواء النصر المعقود على من حفظ القرآن الكريم .. وإن لم يكن قد بلغ سن الرشد !

واذا كان فى القرية عندئذ من ينادى «بالدكتور» لانه رشح لكلية الطب .. فقد كان لقب الشيخ أندى .. وكان أجمل فى حسن الناس جميعا .. جمالاً .. وندواة مشتقين من القرآن الكريم الذى صار الصبى وعاء له.. شاهدين بعظمة هذا القرآن الكريم .. الذى قد يخطىء واحد فى تلاوته .. فلا نحتاج إلى عالِم .. لنصحح به الخطأ .. ولكن .. يتكفل بالرد .. آلاف الصبيان .. فى آلاف « الكتاتيب » !!

أما المتعة الثانية .. فهى :

عندما كنت أعود من الكتاب إلى «الدار» ..لأكون فى أنتظار والدى يرحمه الله .. وقد جاء متأبطا جريدة الأهرام .. وقد كنت أسرع إلى لقائه قبل أن يتجاوز عتبة الدار لأنتزع « الاهرام » .. وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذى آخذه .. بلا استئذان .. مدفوعا بشوق عارم كان .. رحمة الله يقدره .. فلا ينهرنى ...

وكان لهذه اللهفة ما يسوغها .

فقد كان فى الأهرام صفحة أدبية كاملة .. ويومية!

كنت أشبهها بطاقة الزهر الجامعة لكل ما فى « بستان » المعرفة من أفانين :

من المقالة الأدبية .. إلى القصيدة الشعرية .. إلى القصة .. والطرفة .. والتعليق ..

وحتى لا يقطع عليّ قاطع منعة أستيعاب الصفحة .. لا بأس أن أنتبذ على سطح الدار مكانا قصيا .. حتى أنفرد بها . ولا يشركنى فى حبها أحد !!

ولو ترتب على ذلك حرمانى من جوهر الطعام .. اكتفاء بلقيمات حول المائدة يقمن صلبى !

ومنذ ذلك التاريخ تكونت لدى عادة القراءة .. هذه العادة التى لا تولد مع الإنسان .. وإنما هى السلعة الغالية .. التى لا تظفر بها إلا بالمران .. والدأب .. والمعاناة ..

مغزى «عادة القراءة»

كنت أتردد على مكتبة المعهد الدينى .. وكان يلفت نظرى مشهد واحد من الباحثين : قلمه فى يده .. وعينه على صفحات الكتاب .. وبين الفينة والفينة يشرع قلمه لينقل فقرة من الكتاب متصلة بموضوع بحثة ..

ولم أر هذا الباحث مرة واحدة مستغرقا فى الكتاب .. متأملا .. ويعنى ذلك أنه : يصطاد من المعانى ما يروقة .. ثم يضعة فى مكانه من البحث .. غير متذوق حلاوته ما يقرأ .. وما يكتب !

لقد كنا نغوص فى الترعة صغاراً .. وراء متعة الصيد .. وأقتناص سمكة حية .. بعد أخرى ..

حتى إذا وافى الأصيل .. لم يكن للسمك المركوم متعة .. بعدما ذقناها غضة طرية فى حينها !!

ألا إن الفرق هائل هائل : بين من يرتشف الكأس .. فيحس مع كل قطرة بمذاق الشراب .. وبين هذا الذى يعب الكأس عبا .. كأنما يتجرع قارورة الدواء ؟!

مع العقاد :

ولقد كان العقاد فى طليعة هؤلاء الذين كانوا يقرأون .. فيستغفرون فيما

يقرأون . وذلك قوله :

(إننى أشعر بأننى لا أقرأ سطوراً على ورق ولكنى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء) [(١)] .

من أجل ذلك كان نهما بالقراءة حفيا بها

ذلك بأن (الكتب هى وسائل الوصول إلى الغاية وهى النوافذ التى تطل على حقائق الحياة ..

ولا تغنى النوافذ عن النظر !

... إن الكتب طعام الفكر :

وتوجد أطعمة لكل فكر .. كما توجد أطعمة لكل بنية ومن مزايا البنية القوية . أنها تستخرج الغذاء لنفسها من كل طعام ..

كذلك الإدراك القوى . الذى يستطيع أن يجد غذاء فكريا فى موضوع)[(١)]

وقد حدد العقاد هدفه من القراءة بقوله :

(لست أهوى القراءة .. لأكتب ..

ولا أهوى القراءة .. لأزاداد عمراً فى تقدير الحساب وإنما أهوى القراءة لأن عندى حياة واحدة فى هذه الدنيا .. وحياة واحدة لا تكفينى .. ولا تحرك كل ما فى ضميرى من بواعث الحركة . والقراءة - دون غيرها - هى التى تعطينى أكثر من حياة واحدة فى مدى عمر الإنسان الواحد لانها تزيد هذه الحياة من ناحية العمق وإن كانت لا تطيلها

بمقادير الحساب :

فكرتك أنت .. فكرة واحدة .

وشعورك أنت .. شعور واحد .

---

(١) أنا - ١٤٢ .

خيالك أنت .. خيال فرد إذا قصرته عليك .ولكنك إذا لا قيت فكرتك فكرة أخرى . أو لا قيت بشعورك شعور آخر .. أو لا قيت بخيالك خيال غيرك : فليس قصارى الأمر أن الفكرة تصبح فكرتين . أو أن الشعور يصبح شعورين .. أو أن الخيال يصبح خيالين .. كلا ..!

وإنما تصبح الفكرة بهذا التلاقى مئات من الفكر فى القوة والعمق . والأمتداد ...

.. وفى عالم المشاهدة ما يؤكد ذلك :

يجلس المرء بين مرآتين .. فلا يرى إنسانا واحداً أو إنسانين اثنين ..

ولكنه يرى عشرات متلاحقين فى نظره إلى غاية ما يبلغه النظر فى كل اتجاه) .

ومازلنا مع العقاد وهو يقول :

لا أقرأ .. لا أكتب ..

لأن معنى هذا :

لو لم يكن قبلك كاتبون .. لما كنت كاتبا .. ولما كان عندك ما تقول تقليداً

وقد أقرأ فى الحشرات .. لأنها « مسودات » تظهر عنها أصول الطبائع ؟

بلى قد تكون فى المسودات أظهر :

الكلب الأبيض .. لا يعض الكلب الابيض

والثعبان .. لا يلدغ الثعبان !

كذلك لست كما قال :

ومن وعى التاريخ فى صدرة ∴ **أضاف أعماراً إلى عمرة**

---

(١) الموضع والمرجع السابق .

إلا إذا كانت الاضافة : أدبية .. وليست بالسنين .. فساعة من الشعور والفكر تساوى مئات السنين ..

ولكنى أهوى القراءة : لأن حياة واحدة .. لا تكفينى فأنت مرآتين : عشرات الصور ومع حبيبك .. فى عالم آخر وبالقراءة تصبح الفكرة آلاف الفكر : قوة وعمقاً وامتداداً ..

إنك مهما أكلت .. لن تأكل بأكثر من معدة واحدة ومهما « لبست » فعلى جسد واحد ..

ومهما أنتقلت فلن تشغل مكانين ..

(ولكنه يزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات فى عمر واحد ويستطيع أن يضاعف فكرة وشعوره كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل وتتضاعف الصورة بين مرآتين) .

(إننى أشعر بأننى لا أقرأ سطورا على ورق ولكنى أحيا فى تلك الأوراق بين أحياء .ومن هنا أَلِفْتُ بعض شخوص التاريخ كأننى أعاشرهم كل يوم وأَلِفْتُ بعض الأدباء فى قراءة كلامهم فنتمثلتهم فى ملامح وجوههم وعاداتهم .. فى حركتهم وسكونهم .

واستمليت من ديوان شاعر كابن الرومى سيرة حياته أوصورة حياته وثبت لى فى خيالى شكل لا يتغير ولا يزال يلوح لى على هيئة واحدة . كلما طاف بى طيفه فى منام) .

القارئ الحــر:

لقد كانت الصفحة الأدبية فى « الأهرام » حافلة بشتى الأفكار والآراء .. وبأقلام كتاب من كل الاتجاهات .. فشكلت وجدان القارىء الذى يستقبل الحياة يزاد من المعرفة متعدد المشارب .. يغطى كل أحتياجاته ونزعاته ..

وهذا ما كنت أقوله لتلاميذى دائما : والذين يقبلون على لون واحد من

الكتب.. واتجاه واحد من الكاتبين إن سنه التنوع .. كسنه التدافع .. كلاهما ماض على رؤس العباد .. ونحن مطالبون بتنويع زادنا المعرفى .. تماما كما تنوع الامم مصادر أسلحتها .. وأذكر هنا تجربة عصرية مفيدة :

كان الاستاذ « أنيس منصور » مفتوناً بالعقاد .. إلى الحد الذى كان لا يشترى مجلة « الرسالة » إلا إذا كانت للعقاد مقاله فيها .. حتى قال :

« كنت أرى أن الكاتب هو العقاد ..

وأن المقـــال هـــو الـــذى يكتبـــه..

وأن مجلة الرسالة خالية .. إلا منه » !

وقال مصوراً مسافة البعد بينه وبينه :

(أنا صاحب قلب .. وهو صاحب عقل .

أنا أتنقل .. وهو يتقدم ..

أنا أنبهر .. وهو يضىء ..

أنا أتغنى .. وهو يخطب ..

... كنت أمسك فى يدى شـمعة .. أمـا هو : فـيمسك النجوم والشموس بيديه..)

ومع هذا الحب الجارف والذى حمله على أن يقول : « لم نكن نرى .. ولم نكن نسمع » فقد كنا ندخر الرؤية للعقاد .. وندخر السمع لكلامه مع هذا .. فقد سمع أن العقاد يقول عنه :

من هذا الأنيس منصور .. فشمر عن ذراع . وكشف عن ساق .. مستجمعا كل طاقته .. فكتب مقالاً بعنوان :

عباس محمود ... العضاض !!

وقال :

إن الأستاذ العقاد مثل كل جهاز ميكانيكى كبير له ماسورة عادم ضخمة . وإن هذا الذى قاله عنى .. قد خرج من ماسورته) !!

وذات يوم إقترح عليه المرحوم توفيق الحكيم أن يلخص كتب « العقاد » لأن أسلوبه صعب وهو فى حاجة إلى من يبسطه للناس .. وهب « أنيس منصور » غاضبا معبراً عن طبيعة التى أرادها مستقله .. والتى لن تكون « ملحقا » لأحد .. حتى ولو كان هو العقاد !!

وقد استشهد بكلمة للعقاد قالها عن سعد زغلول :

(عندما خلقه الله قال له أذهب .. فأنت غاية بأكملها وبقية الناس أعشاب بشرية)

ثم يعلق أنيس منصورا قائلا :

وكان العقاد غاية .. ولم يقل لنا : أنتم أعشاب بشرية . ولكننا خفنا على أنفسنا أن نكون كذلك !

ثم تساءلنا : هل كان العقاد غاية حقا ؟ ونحن أعشاب بشرية ؟ !

من المؤكد أننا نراه كذلك .. ولا يزال .. ولكن لم نكن أعشابا بشرية ؟

ويعلنها «أنيس منصور» ثورة عارمة .. رافضا أن يكون تابعا لأحد فيقول :

(كان كلام الأستاذ الحكيم مثل حجر سقط فوق رأسى : ما الذى يقصدة الحكيم أو العقاد أو أى إنسان ؟

هل معنى ذلك أن أكون شارحا للعقاد .. أن أكون داعية للعقاد .. أن أعيش عمرى على كتب العقاد .. آخذا من عمرى وأضيف إلى عمره ؟! ..

.. لم أكن أفكر كثير فى ذلك الوقت إلا فى تنمية نفسى ورعاية قدراتى ..

.. إن الإنسان لو أكل بقرة .. فلن يكون بقرة ..

إنما سيظل إنساما دائما ..

فلن أكون « عقاداً » صغيرا أو كبيرا

الكاتب الحر:

ولقد كان هناك كُتَّاب يفضلون القارىء القادر على نقد ما يقرأ . على القارىء التابع المستسلم ومنهم المرحوم طه حسين .. والذى قال فى «جنة الشوك: قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ :

أى قرائك أحب إليك ؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :
هذا الذى يقرأ مخلصا .
وينقدنا صحا .
ويعلن الرأى صريحا :
لا يصانع فيه .. ولا يلتوى به :
قال الطالب الفتى لاستاذه الشيخ :
ومن لك بالقارىء الذى تجمع له هذه الخصال ؟
قال الاستاذ الشيخ لتلميذه الفتى :
هبه إحدى المنى التى يقول فيها الشاعر القديم :

منىً : إن تكن حقا تكن أعذب المنى ∴ وإلا .. فقد عشنا بها زمنا رغداً

وهكذا .. انتهت مرحلة تكونت فيها عادة القراءة التى كان الاخلاص من ورائها .. لتبدأ مرحلة أخرى حاولت فيها أن أقول رأيى فيما أقرأ وفيما أسمع ..

عادة النقد :

وفجأة .. اختفت من دارنا جريدة الاهرام .. لتحل محلها جريدة «الأساس » «السعدية » اليومية !

فقد كان والدى يرحمة الله معجبا بشخصيات تنتمى إلى {حزب السعدين} فى قرية مجاورة .. فكان مزاجة مع أقطاب الحزب .. ومن مظاهر ذلك : إيثارة «الاساس» على الاهرام !

ولم يكن من السهل أن أنتزع نفسى من الاهرام إلى الضيف الجديد : الأساس ..

لكننى رأيت العقاد يكتب فيها ..

وكان مدرس الانشاء أيضا يكتب فيها وهو : المرحوم الشيخ «كامل عجلان»..

ولهذا وجدت فيها عزائى عن فقد الاهرام .. والعجيب أن الخصومة كانت قائمة بين «الإخوان» وبين السعدين .. وعلى أشدها ..

ومع ذلك فلا بأس أن يكون الوالد : سعديا وأن يكون الولد : إخوانيا !!

ذلك بأن الوالد لم يكن سعديا إلا بمقدار حبة للسعدين من حولنا .. ولا شأن له بدستور الحزب .. وقواعدة .. وكنت إخوانيا بمقدار حبى للمتحدثين من الإخوان ومنهم : الشيخ الغزالى ، والبهى الخولى .. بالذات ..

وإذن فلا بأس من التعايش السلمى وفى دار واحدة من حيث كانت رابطة كل بحزبه إما ثقافية .. وإما عاطفية !

أما ما وراء ذلك من شئون وشجون .. فلم نكن نحفل بها !

ولقد واظبت على قراءة جريدة الأساس التى كانت مختلفة شكلا موضوعا عن الاهرام :

وكان هناك بين الحين والآخرمشكلة اجتماعية .. تستغرق الصفحة الاخيرة كلها .. ويحررها الاستاذ «محمد مصطفى غنيم » [1] والذى كان يطالب قراءة من الشباب بخاصة أن يسهموا بآرائهم فى حل المشكلة ..

لم يكن هذا «الباب» كما يحدث اليوم : حين تنشر بعض الصحف والمجلات صورا البعض الشباب الذين يعرفون القراء بأنفسهم وبهواياتهم .. مع بقائهم جزرا منفصلة فى محيط متلاطم الامواج لا يلتقون .. ولا يفكرون .. وإنما كانت تثير فينا ملكة البحث .. والموازنة .. والاختيار .. على نحو تتنامى فيه ملكة النقد عندنا ..

وأذكر أن الجريدة نشرت رأيى فى مشكلة اجتماعية بين خطبين مازلت أحفظه بالنص حتى الآن وهو :

(صار حيه بكل شىء .. واسكبا معا من عصارة قلبيكما دموعا على ماض تولى لقد صدمته الايام مثلك .. واستطاعت أناملها أن تضغط عليكما طويلا ..

فليواس كل منكما الآخر .. وأنا واثق أن السفين سيسير بكما فى بحر

---

(١) المحرر بالأخبار الآن .

الحياة خفاق الشراع) .

ومازلت حتى الآن استشعر هذه البهجة .. بنشرا اسمى فى جريدة يومية سيارةّ .. يكتب فيها عملاق الفكر الإسلامى : عباس العقاد !

ولم أتحمل وحدى شحنة هذه البهجة .. فانطلقت بالجريدة إلى زميلى الطالب «محمد الأحمدى أبو النور» ..

وفى بيته التقينا تحت إشراف والده المرحوم الشيخ «محمد مليجى أبو النور» واعظ القاهرة .. والذى شجع المحاولة داعيا ولدة «الاحمدى» أن يرافقنى فى هذه الرحلة الباكرة .وهذا ما حدث فعلاً .. وكانت آراؤنا تنشر فى مربع واحد.. وكان من نتيجة ذلك أن تخلقت فى قلبينا الرغبة فى نشر أفكارنا .. مدفوعين بهذا التشجيع الذى لولاه ما بلغ طالب مناه .

وقبل ذلك فرضت علينا الأوضاع الجديدة أن نقرأ .. وأن نستمع ..

لكن الوضع المالى لم يكن يساعد أمثالى على إشباع نهمتة إلى القراءة «إتساعا» فاتجهت إلى القراءة «عمقا» .. فكان الأمر على ما قيل :

(كتاب واحد تقرؤة ثلاث مرات .. خير لك وأنفع من ثلاثة كتب تقرأ كلامتها مرة واحدة) ولقد كان لهذه القراءة النظرية .. ما يعززها من القراءة فى صفحات الكون الصامت .. وبخاصة فى قريتى التى لم تكن فقط «قريتى» ولكنها كانت بالدرجة الاولى : « مدرستى » .

هذه القرية .. ذات الطبيعة المتفتحة .. الواضحة .. والتى ترفض اللف والدوران .. إيمانا بالصراحة التى كانت سمة الحياة هناك .. وما تزال .. والتى حملت شاعرا على أن يقول :

خلّ النفاق لاهله	∴	**وعليك فالتمس الطريقا**
وار بأنفسك أن ترى	∴	**إلا عدوا أو صديق !!**

هذه الطبيعة التى أنشأت فى القلوب معنى المودة .. والتعاون .. والإيثار .. على ما يقول المعرى :

ولو أنى حبيتُ الخلدَ فردا ∴ لما أحببت بالخلدا انفرادا

ومن أجل ذلك .. تظل القرية تسبح فى خواطرنا .. لا تغيب .. وقد تقبل فى سبيلها العذاب .. ما دام هناك اقتراب .. فى الوقت الذى ترفض فيه الرحمة .. مع فراقها .

عـادة التمـرد :

ولقد تعلمت فى هذة المرحلة عادة التمرد الحذر .. على كل نص مكتوب .. كانت له من القداسة ما يحبط فى الشباب معانى المقاومة .. وأذكر أننى وفى مرحلة «التخصص» كنت واحدا ممن كلفهم المرحوم الشيخ «محمود فرج العقدة» كتاب موضوع إنشاء ..

ولقد طوحّ بى الاعتزاز بالنفس بعيدا .. حين كتبت الموضوع فعلا ..

ولكننى بدل أن أتجة بة إلى الاستاذ حبرا على ورق .. اتجهت به إلية منشورا فى مجلة الدعوة !!

الإعـلام المسموع :

انتخبت عضوا باللجنة المركزية للحزب الحاكم - أوائل السبعينيات - وصرت بهذه العضوية على مقربة من صناع القرار .. ومن بينهم ..

«الدكتور محمد عبد القادر حاتم» والذى رشحنى للعمل باذاعة القرآن الكريم محدثا ..

وفى هذه المرحلة كان كل المذيعين - بلا استثناء يرغب إلىّ كى أطل على المستمعين من خلال برنامجه .. ثم مضت السنون .. لأجد نفسى فى منطقة شبة الظل ليحتل مكانى تلاميذى ..

ثم ينقلب الوضع تماماً ..

وقد وجدت نفسى أمام سؤال يطرح نفسه ..

ما هو المعنى الحقيقى للاعلام الدينى ؟

هل يعنى : أن تحتل الأحاديث الدينية مساحة واسعة على خارطة الإعلام ؟

أم أنه يعنى بالدرجة الأولى أن تكون الثقافة الإسلامية هى الضابطة لخطو الإعلام بعامة .. حتى يكون سيرة على إيقاع هذة الثقافة .. لا يتعداها .. بمعنى : خضوع الإعلام لقيم الإسلام حتى نضمن فاعليته .. وتأثيرة .. وصياغته لوجدان الأمة .

بكل أسف .. لقد تراجع المعنى الثانى .. وآل أمر الاعلام - غالبا - فى أيدى مقدمى البرامج الذين يخضعون فى استضافة المتحدثين إلى المزاج .. والاتصالات الشخصية ? دون النظر إلى قيمة المتحدث .. ونفاسة ما يحمله من حقائق وأفكار ؟!! ويصير أمر الاعلام على ما قيل إنه إستعمار ولكن عن بعد !

وإذا لم يكن الامر كذلك فيم تفسر ما يلى

مقدم برامج .. يسمعك لأول مرة فاذا هو مشاهد بنصاعة ما يسمع من فرائد ..

وربما فاجأك بأن ما يسمعة منك من استنباط .. يسمعة للمرة الأولى ..

ثم إذا به يستعين بغيرك ممن لا يحسن القول ؟!!

فاذا أضفت إلى ذلك ما يحدث من تلاعب بمواقيت البرامج الدينية - أحيانا

ثم فى تعمد إذاعة بعضها قبيل الفجر .. إراد حلّ عذيمة الناس حتى لا يستمعوا إليها ..

ولا ينفى ذلك وجود نماذج طيبة .. ملتزمة بالسير على جادة الصواب مدفوعة بمروءتها .. ودينها ..

لكن هذه الأصوات المخلصة كثيرا ما تغيب فى الزحام .. وعن التدافع بالمناكب والاقدام !

وما تزال المعركة سجالا بين الفريقين : وكل يدعى وصلا بليلى ..

لكن القضية مازالت فى حاجة إلى مزيد من البحث الدقيق .. ليميز الله الخبيث من الطيب .. تميزا تتضح به المعالم .. وتتكشف به المظالم .. فرارا من غموض يقود إلى غموض .. وفروض من ورائها فروض .. الى نور الحق الأبلج .. يصدع الله تعالى به الباطل اللجلج !!

أما بعد :

فالله تعالي يقول :

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ﴾

والعبرة بالخواتيم :

(إن ولد الذئب يصير فى النهاية ذئبا ، وإن تربىّ مع الآدمى)

آلا وإن { الارض السبخة لا تنبت السنبل فلا تضع فيها بذر الامل } ..

(كيف يعمل الانسان السيف الجيد .. من الحديد الردىء ؟

إن اللئيم لا يصير بالتربية إنسانا أيها الحكيم ..

والمطر الذى لا خلاف فى لطافة طبعه :
ينبت فى الارض الشقائق .. وفى السبخة الشوك)

ومهما حاولت «القزم» أن يبدو طويلا فوق جبل من الثلج فلسوف يجد نفسه وهج الشمس .. صفرا على الشمال ..

وهذه الصفحات التى بين يديك أيها القارىء العزيز محاولات تجسد هذه النهاية .. التى سوف تجىء فى ميقات يوم معلوم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

«مدخل»

بدأ الإسلام على أوفى معانى القوة والعزة.. ومنذ اللحظة الأولى:

وكان محمد ﷺ التعبير الصادق عن هذه القوة وهذه العزة جميعا:

وأية قوة أشد.. وأية عزة أعمق.. من موقفه ﷺ.. وهو رجل.. واحد.. فقط.. يواجه سكان الكرة الأرضية جميعا بأنه رسول إليهم جميعا.. وما جاء به من كتاب:

﴿ما هو إلا ذكر للعالمين﴾[1]

إن هذه المواجهة التى تبدو للعين المجردة غير متكافئة.. لدليل على ثقة كاملة بقوة من أرسله سبحانه..

وإذن فهو متوكل على الركن الذى لا يضام.. والحصن الذى لا يرام.. والعين التى لا تنام..

وما قيمة ملوك الأرض جميعا.. فى حسِّ رجل كمحمد ﷺ وما بينه وبين هؤلاء الملوك إلا يوم واحد:

أما أمس.. فلا يجدون لذته..

وأما غد. فهو وإياهم منه على وجل.. وإنما هو اليوم..!

فماذا عسى أن يكون ذلك اليوم!

الحق.. فوق القوة.

لقد واجههم جميعا.. وهو الفرد.. فى صحبة يقين جازم بأنه دونهم على الحق المبين.. بينما حرم مناوئوه من هذا اليقين.. فكانوا الظاهر الرواء.. والباطن الخواء!

وإذن: فهو يعتقد أنه أقوى منهم.. وهم أيضا يعتقدون أنه أقوى منهم..

(١) ن: ٥٢.

فكانوا وهم المبطلون.. جندا للحق من حيث لا يشعرون!! ويا لسخرية الأقدار.

لقد صعد على الصفا.. ثم نادى بأعلى صوته:

يا صباحاه!

فأسرعت قريش: بين رجل يجيء بنفسه. ورجل يبعث رسولا عنه فقال ﷺ:

يا بنى عبد المطلب.. يا بنى فهر.. يا بنى كعب:

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟

فقالوا: نعم ما جربنا عليك كذبا!

فقال: **إنى نذير لكم بين يَدَيْ عذاب شديد.**

فقال أبو لهب: تبا لك.. ألهذا جمعتنا؟!!!

من هنا.. كانت البداية..

فى الموقف الآنف.. بدا الحق جليا.. قويا..

ولأنه ظهر فى قوته.. فقد أحرج الباطل الضعيف الذى تشنج ورمى بسهمه.. وبعنف.. على طريقة النساء اللائى كن ضِعَافاً فكان مكرهن لذلك.. مضاعفا!

وتأمل كيف بدا محمد ﷺ.. على الصفا.. على المنصة.. أستاذا.. يلقنهم الدرس المفيد..

أجل.. كان أستاذا..؛ لأنه من موطنه العالى فوق الجبل.. يرى ما لا يرون.. فإذا أدركت مع ذلك ثقتهم المطلقة بأمانته.. وصدقه.. عرفت فى نفس الوقت كيف نهض الباطل يتصدى للحق.. بالشغب عليه.. لأنه وجد نفسه أمام الحقيقة التى تفضحه.. وتبين عواره..

وهنا بدأ الإعلام المادى يباشر سلطاته فى شخص أبى لهب والذى تلخصت فيه أهداف الإعلام المعادى ودوافعه.. وممارساته على مدار الزمان:

أ ـ إنه إعلام لا يواجه الفكرة بالفكرة. . ولكنه يواجهها بالادعاء والتطاول.

ب ـ يتولى كبره «متخصص» فى التجريح والبذاءة هو أبو لهب.

جـ ـ وهو فى نفس الوقت «عم» رسول الله ﷺ، والذى قد يكون لتشويشه تأثير على الأغرار بحكم قرابته للداعية الأول ﷺ.

د ـ ولعل ذلك هو الأصل فيما يلجأ إليه المغرضون اليوم. . حين يعمدون فى ضرب الإسلام إلى فرع من الشجرة. . يتكلم نفس لغة المصلح. . بل ويجرى فى عروقه نفس دمه. . لعله أن يكون أدعى إلى التأثير.

هـ ـ وهو إعلام لا ينطلق من قيمة أصيلة:

إنه ينطلق من الانفعال الذاهب بأحلام الرجال.

وإذن فهو إعلام التحطيم. . وليس إعلام التعليم.

و ـ وهو إعلام له بهرجة قد تخرس الألسنة فلا تنطق بالحق. . وقد تحرسه جيوش وأساطيل.

ولكن الإعلام الإسلامى يظل سيد الموقف:

وقد يكون رجل الإعلام الإسلامى فردا. . فى بحر من البشر. . وقد لا يستطيع أن يحرز نصرا حاسما. . فى معركة واحدة. ولكن نصوع الحق فى موقفه. . وبقاء الدعوة حية فى شخصه يعتبر نجاحا يترك آثاره على المدى الطويل.

ز ـ وهو إعلام يقوم على رفض الرأى المعارض. . مهما بدت دلائل صحته. . ومن ثم فليس من صلاحيته أن يكون ناقدا. . بانيا. .

ولكن الإعلام الإسلامى: إعلام النصيحة التى لا تجامل فى الحق. . إعلام النقد البناء. . الذى يقبل رأيك. . ثم يناقشه. .

ملتزما بما يؤدى إليه النقاش من نتائج. . وإن كانت لا ترضيه من أجل ذلك قد تكون وخزة الإعلام المادى مؤلمة. .

ولأنها هشة فإنها لا تتجاوز الجلد!

أما الإعلام الهادف البناء. . ففيه من أخلاق عمر رضى الله عنه والذى كان:

إذا تكلم أسمع،

وإذا مشى أسرع،

وإذا ضرب أوجع!

ح ـ وهو إعلام مغرور يدعى أنه فوق النقد..؛ اتكالاً على ما يملك من عدد وعدة.

ط ـ ثم هو يركز على القيادة التى يَتَوخَّى ببذاءته هز شخصيتها لتهتز تبعا لذلك مبادئها.

ونذكر هنا ما زعمه «لامانس» الذى فضل بنى عبد شمس على بنى هاشم نكاية فى الرسول ﷺ.

واجب الأمـــــة:

ومع كل هذه الهالة المصطنعة.. فما زالت أمة الإسلام مطالبة بالتصدى لها.. إحباطا لأهداف يراد بها إغواء الخلق.. وإغراؤهم على مقاومة الحق ويحملهم على ذلك أمور:

١ ـ سهولة الفطرة التى خلقت ابتداء تعشق الحق وتقبل عليه.

٢ ـ طبيعة الإسلام نفسه التى تَكْمُنُ فيها قابلية الإسلام للتكيف الارتقائى التى تجعله قادرا على التفاعل مع الحياة تفاعلا سويا تصاعديا.

٣ ـ ضرورة تصحيح الأوضاع المقلوبة فى هذه الدنيا التى صارت إلى ما أشار إليه توفيق الحكيم:

لقد تراجع العقل.. إلى الخلف..

فالقدم.. تأخذ النقود. والعين ترى البرامج التافهة، والأذن تسمع الأصوات أما التفكير فهو أقل حظًا:

والقدم تدخل الكرة فى الشبكة فتحقق لصاحبها ما لا يحققه العالم بالعقل طول عمره.

وبالمثل: المغنى.. والمغنية!

والاهتمام بالصور عاد بالعقل إلى العهد الوثنى، فقد كانت العين فى فجر البشرية هى وسيلة الناس للمعرفة فكان الإنسان يرسم.. ويصور..

ونضيف إلى ذلك: أن خطة الإعلام المادى ترمى إلى تزيين كل عمل تكره من أجله الموت..

وهذا سر التعلق بالدنيا.. وترك التزود للآخرة، أما الإعلام الإسلامى فخطته مُنسجمة مع منهجه الراشد فى إعداد الفرد الذى يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه.. ومن ثم فعليه أن يتقدم ليحبب المسلم فى كل عمل يكون معه غدا..

إن الإعلام الإسلامى يرتفع بالمسلم ليكون «على الهدى» عاليا.. عاليا..

بينما الإعلام المادى هو قرين السوء الذى يزين الباطل.. ويغرى بالمزيد من الانحراف على ما يقول سبحانه:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[1].

ـ هذا الكتاب وهذه الصفحات ما هى إلا محاولة لكسر شوكة هذه الاتجاهات المادية.. وفضح نواياها وهى فى مجموعها إجابة عن هذه الأسئلة:

١ ـ ما مدى خطورة الإعلام على حياتنا؟

٢ ـ متى بدأت المواجهة الساخنة بين الإعلام الإسلامى والإعلام المادى؟

٣ ـ ومن الذى يتولى كبرها؟

٤ ـ وإلى أى مدى ستظل المعركة قائمة بينهما؟

٥ ـ وما أبعاد هذه المعركة؟ وما أخطر مجالاتها؟

٦ ـ ثم ما الأسلحة التى يستغلها الأعداء ضدّنا؟

والله أسأل أن يجعل الكتاب فى ميزان حسناتى يوم القيامة.

وهو سبحانه المسئول أن يبلغنا المأمول.

د. محمود محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

---

(١) فصلت: ٢٥.

بسم الله الرحمن الرحيم

أهمية الإعلام

تمهيـــــد:

(إنَّ أية دعوة. مهما بلغت من السمو. لا يمكن أن تجتذب إليها الأنظار. مالم يكن لها جهاز دعاية:

الأحزاب. لا تقوم بغير دعاية. بل البضائع لا تروج بغير دعاية. وقد أخذت الدعاية فى العصر الحديث مكانا يجعلها فى الدرجة الأولى من الخطر. حتى أصبحت علما يدرس. وهيئات تدعم. ويعرف المسلمون ذلك جيدا. ولكنهم لا يعملون به. فيما يتعلق بالإسلام:

أين دعاتنا فى الشرق أو فى الغرب؟

أين مبعوثونا؟ أين المبشرون منا؟)(١).

مكونات الإعـــــلام:

يعتمد الإعلام على:

أ ـ الكلمة: مقروءة أو مسموعة.

ب ـ ثم على الصورة الجاذبة.

أهمية الكلمة:

يقولون:

بالحروف نتفاهم. ونتخاصم.

وبالحروف نتقارب ونتباعد.

وبها نتعاون.. وبها نتنابز.

بالحروف: نحول الحياة نعيما.. وبها نحولها جحيما:

---

(١) أوروبا والإسلام. د. عبد الحليم محمود.

إن الحرف: يحيى ويميت.

بل إنه الإنسان: الذى كانت نعمته الكبرى أن علمه الله تعالى البيان.

يقول صاحب الظلال:

(إن الكلمة لتنبعث ميتة. وتصل هامدة. مهما تكن طنانة رنانة متحمسة. إذا هى لم تنبعث من قلب يؤمن بها.

ولن يؤمن إنسان بما يقول حقا. إلا أن يستحيل هو ترجمة حية لما يقول. وتجسيما حيا لما ينطق).

عبقرية البنـــــاء:

وتملك الكلمة عبقرية البناء. كما تملك عبقرية الهدم:

فمن قال الكلمة الطيبة كان أحسن الناس:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[٢].

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[٣].

من هـــــدى السنة:

ولقد غاب هذا المعنى يوما عن معاذ بن جبل رضى الله عنه.. عندما وصاه الرسول ﷺ قائلا:

«**أمسك عليك هذا**».. وأشار إلى لسانه.

فقال معاذ:

يا رسول الله: أو نحن مؤاخذون بما نتكلم؟

فقال ﷺ:

---

(١) فصلت: ٣٣. (٢) إبراهيم: ٢٥. (٣) إبراهيم: ٢٦.

«وهل يكب الناس على وجوههم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم»[1].

خطـــورة اللسان:

وفى اللسان عشر خصال محمودة.. لمن أراد أن يتخذ إليها سبيلا:

أداة يظهر بها البيان.

وشاهد يخبر عن الضمير.

وحاكم يفصل الخطاب.

وواعظ ينهى عن القبيح.

وناطق يرد الجواب.

وشافع تدرك به الحاجة.

وواصف تعرف به الأشياء.

ومعرب يشكر به الإحسان.

ومعز تذهب به الأحزان.

وحامد تذهب به الضغينة.

الكلمة المذاعــــة:

تشعر بالبهجة عندما تقرأ لكاتب تحبه..

ولكنك تكون أشد بهجة عندما يأتيك صوته ليملأ سمعك بعباراته.. ونبراته.. ومن ثم تكون نسبة التأثر به أعلى:

وقد أدركت الأمم ما للكلمة المذاعة من سحر.. فاتخذت منها سلاحا يمهد للجيوش الغازية.. إن لم يسبقها إلى قلوب المغلوبين:

(كان «روزفلت» أول مُكتشف للإذاعة. فاستطاع أن يقنع الشعب الأمريكى بدخول حرب كان يرفضها. وهى الحرب العالمية الثانية.

وكان «هتلر» من أبرز مكتشفى موجات الأثير. لتجييش الشعب الألمانى وراءه

(١) الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

دون تفكير ولا مناقشة. ولا وقفة تأمل. حتى النهاية المعروفة.

وقد خاض «ديجول» معاركه بالكلمة المسموعة والمرئية. ضد كل صحف فرنسا وأحزابها سنة ١٩٦٨. ثم هزم تمرد الجيش الفرنسى ضده فى الجزائر. بالتليفزيون. وغير دور فرنسا وحياتها وتوجهاتها. معتمدا على قدرته أمام شاشة التليفزيون)[١].

الصورة الساحـــــرة:

أتاح التقدم العلمى للدول الغنية أن تمسك بزمام المبادرة.. فسخرت كل إمكاناتها فى تكريس معنى التبعية لدى الدول الفقيرة ـ والمسلمة بالذات ـ عن طريق الصورة الجاذبة الخالبة.. ونقصد بالصورة:

الصورة على الطبيعة. فى الواقع.. وكيف كان الضحايا يساقون كالقطيع.. ليروا من فنون الحياة الغربية ما يبهرهم.. فيستسلمون..

ثم الصورة على الشاشة الفضية.. وكيف كانت جاذبة تستهوى الضحية.. وتشد انتباهها.. ثم كيف كانت خالبة.. أى آخذة له بسحرها.. لتتغير وجهته إلى ما يريدون له.. وهكذا لا تكتفى الصورة بشد الانتباه.. لكنها تصر على تغيير الاتجاه!

ونقرأ فى المعنى الأول ما قاله «جان بول سارتر» فى كتاب (المنبوذون فى الأرض) مبينا أسلوب الماكرين لصياغة المفكر الشرقى فى بلاد الغرب.. ليعود إلى قومه مبشرا بما لقنوه هناك:

قال: (كنا نحضر أبناء رؤساء القبائل. وأبناء الأشراف. والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا. ونطوف بهم بضعة أيام فى لندن. وباريس. وأمستردام. فتتغير ملابسهم. ويلتقطون بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة. ويرتدون السترات والسراويل. ويتعلمون لغتنا وأساليب رقصنا، وركوب عرباتنا، وكنا نزوج بعضهم من أوروبا، ونلقنهم أساليب الحياة على أساس جديد. وطرز جديدة من الزينة، واستهلاك أوروبى وغذاء أوروبى. كنا نضع فى أعماق قلوبهم أوروبا. والرغبة فى تحويل بلادهم إلى أوروبا.

---

(١) من مقال للكاتب: عبد المنعم الصاوى.

ثم نرسلهم إلى بلادهم، حيث يرددون ما نقوله، بالحرف تماماً. مثل الثقب الذى يتدفق منه الماء فى الحوض:

هذه أصواتنا تخرج من أفواههم.

وحينما كنا نصمت. كانت ثقوب الأحواض هذه تصمت أيضاً.

وحينما كنا نتحدث كنا نسمع انعكاسا صادقا وأمينا لأصواتنا من الحلوق التى صنعناها، وكنا واثقين أن هؤلاء المفكرين لا يملكون كلمة واحدة يقولونها غير ما وضعنا فى أفواههم).

وبهذا صارت الحضارة الغربية على ما يقول أحد الباحثين المنصفين:

(إن الحضارة الغربية اليوم، وفى الطور الأخير من أطوار حياتها لأشبه بالضبع الذى بلغ فى فراسته وانتهاكه لكل ما هو معنوى. واعتدائه على تراث السلف، وعلى كل مقدس ومحرم. لأشبه بالضبع الذى أغاص مخالبه فى أمعائه فانتزعها من مكانها، وأخذ يفترسها، ويعضها ويلوكها بين فكيه. بمنتهى البغض والغيظ والتشفى).

شاهـــــد عيان:

ويروى بعض المسلمين بعض ما شاهده بعينيه فى لندن.. مما يعد حلقة فى هذه السلسلة الرهيبة التى تضيف إلى ما سبق مدى حرص القوم هناك على زحزحتنا عن مصدر قوتنا:

(كنت أؤدى صلاة الجمعة فى أحد مساجد لندن فى حى من أحيائها الفقيرة المزدحمة بالسكان وقد أسعدنى أن ألاحظ امتلاء المسجد الكبير عن آخره بالمصلين الذين كانت أغلبيتهم من البنغاليين والباكستانيين المهاجرين.

كان كل شىء يوحى بأنى أؤدى الصلاة وسط أناس بسطاء كادحين انتزعوا أنفسهم انتزاعا من خضم حياة صاخبة غريبة عليهم.

لكى يلوذوا بالمسجد ويأنسوا إلى بيت الله وينعموا بساعة من السلام الروحى ولكنى لم أسعد طويلاً بهذا الشعور، فبعد أن فرغت من أداء الصلاة وانصرفت من المسجد فى طريق العودة صدمت نظرى على قيد خطوات من بيت الله، واجهة

ماجنة لأحد بواكى الفجور، واحد من تلك الملاهى التى تعرض على زبائنها راقصات يخلعن ملابسهن قطعة قطعة. وأثار هذا المشهد الغريب دهشتى. أولا لوجوده على مقربة من مسجد المسلمين على هذا النحو الذى يصدم مشاعر كل مسلم، وثانياً لأنه من غير المألوف فى مدينة مثل لندن أن توجد أمثال هذه الملاهى فى مثل هذا الحى الذى تكاد تشغله من أمور الحياة سوى البيع والشراء فهو سوق كبير يطلقون عليه اسم «سوق اليهود».

إذن ما الذى جاء بهذا الملهى الغريب إلى هذا المكان عمداً ليصطادوا من تضعف قلوبهم من المسلمين المهاجرين.

فكأنهم أرادوا بهذا أن يلغوا دور المسجد الذى يربط هؤلاء المهاجرين بجذورهم ثم قلت لنفسى وأنا أهم بالانصراف، هل نسيت أنك فى سوق اليهود.).

أجل.. أراد اليهود أن يلغوا دور المسجد فى بناء شخصية المسلم، لقد علموا أن مبادئ الأخوة والمساواة ستظل حبرا على ورق إذا ما تعطلت وظيفة المسجد.. لأن المسجد هو التطبيق العملى لمبادئ الإسلام..

والصورة المرئية لمنهج الإسلام واقعا ملموسا..

ومن ثم ركزوا عليه حتى يختفى دوره الإيجابى من حياتنا.

الصورة الخادعـــــة:

تجلس أمام الرائى.. فماذا يحدث؟

يتكلم.. ونحن صامتون.

يتحرك.. ونحن ساكتون..

ويقدم لنا الصورة ونحن بين يديه مبهورون.. مستسلمون..

ومن وراء ذلك كله: آلاف العقول المفكرة.. وملايين الدولارات المدخرة.. لتجعل من المُشاهد ألعوبة يعبث بها العابثون!

وكما قيل:

بسرعة مذهلة.. تنزل البرامج على دماغك.. فلا تستطيع أن تغمض عينيك

عنه . . ولا أن تمنع طفلك منه!

ومن الآثار المرة التى نسارع إلى لفت النظر إليها: ضياع اللغة! اللغة العربية الفصحى . . وهى وسيلة التفاعل بين الأمة . . لأن من خطة الإعلام المادى إماتتها . . حتى لا يوجد جيل قادر على فهم القرآن . . فضلا عن العمل به .

لقد انحسرت الندوات الجادة . . والمحاضرات القيمة . .

وتذكر هنا ما قاله أحمد شوقى:

إننى لا أخشى على اللغة العربية إلا من «بيرم التونسى».

فالإعلام يمكِّن للفوازير . . ويؤثر اللغة الهابطة التى ينسجم معها العامة . . فأصبح الملايين يرددون ما يقوله «بيرم التونسى» بدل أشعار أحمد شوقى وحافظ إبراهيم . .

ولقد تم ذلك كله . . ؛ لأن الجو الذى ترسمه الصور الزاهية . . الملونة . . يحبط كل محاولة للصعود إلى المستوى الجاد المفيد .

الامتحـــان الصعب:

وهكذا صار الإعلام يحيط بنا من حيث لا نشعر كالهواء. أو كالمحيط . . ونحن فيه أسماك!

نتأثر به دون أن نشعر .

وكما أننا نتأثر تلقائيا بالهواء:

نمتص منه (الأوكسجين)

ونتخلص من (ثانى أكسيد الكربون) فكذلك نتخلص لا شعوريا ـ بفعل الإعلام ـ من بعض آرائنا وعاداتنا . . ونتسلح بأخرى .

(فهو دائم التأثير . . والاتصال بالإنسان فى كل لحظة وهى أمنية الشيطان المريد عندما أخذ على نفسه العهد أن يستأصل بنى آدم بالإغواء ـ إلا عباد الله المخلصين ـ .

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً . قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُوراً . وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾[1].

وهذا هو الامتحان الصعب الذى شن فيه الشيطان الغارة على الإنسان:

بالأصوات والمزامير - كما يقول المفسرون - وكل ما يدعو إلى التمرد والعصيان.

مستخدما كل قواته: الفرسان.. والمشاه فى معركة تنتهى بالإنسان إلى الاستغراق فى اللهو..

ثم بالمال والولد وكل ما يدفع إلى المحرم كالربا.. وأنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء.

ولن يفلت من هذا الحصار المضروب.. ولن ينجو من هذه النار التى أحاط بالأمة سرادقها إلا عباد الله المخلصون:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[2].

وعن أثر الصورة قد نقرأ ما جاء فى الأهرام[3].

(لعلها أول مرة فى التاريخ - على ما أذكر - يعترف فيها المجتمع الدولى باستخدام سلاح الصور ضد دولة من الدول لكشف جرائمها، وبقاء هذه الجرائم حية مستعرة كالنار، تلهب الضمير الإنسانى فى كل مكان وزمان.

ففى القرار الذى أدانت فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة فى الشهر الماضى مذابح الفلسطينيين فى مخيمى «صابرا» وشاتيلا. وطالبت فيه مجلس الأمن بالتحقيق فى هذه الحوادث. كان من بين القرارات أو العقوبات التى قررتها كل دول الجمعية العامة، باستثناء أمريكا وإسرائيل وحدهما - مطالبة السكرتير العام للجمعية العامة بإعداد معرض للصور الفوتوغرافية عن مذبحة السابع عشر من سبتمبر ١٩٨٢.

---

(١) الإسراء: ٦٢- ٦٤.	(٢) الإسراء: ٦٥.	(٣) ٢٤/ ١٠/ ٨٢.

على أن يقام عند المدخل الخاص بزوار المنظمة الدولية.

وإذا كانت العادة قد جرت من قبل على الحكم بالسجن أو القتل أو الجلد أو قطع اليد على المجرم، فإن الأمم المتحدة وضعت حكماً جديداً اسمه «الحكم بالصور» على إسرائيل!

وإذا كنا نحن العرب لا نستطيع للظروف التى تحيط بسوق البترول فى عالم اليوم أن نستخدم «سلاح البترول».

وإذا كنا نحن العرب لا نستطيع لظروفنا الداخلية الاستثمارية المحدودة لا نملك مقدرة استخدام «سلاح المال».

وإذا كنا نحن العرب لا نستطيع استخدام «سلاح القتال» بسبب التوازنات العالمية. والحسابات الدولية التى يشترك فيها الشرق والغرب معاً. والتى تضمن لإسرائيل تفوقا عسكريا علينا جميعا.

إذا كنا غير قادرين لأسباب مفهومة ومقبولة على استخدام سلاح البترول وسلاح المال وسلاح القتال ـ مع أننا لدينا تصريح دولى بحمله ـ أفلا نقوى على استخدام سلاح الصور!!).

أهمية الصورة فى الإسلام:

روى عمر رضى الله عنه:

(بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل:

شديد بياض الثياب.

شديد سواد الشعر.

لا يرى عليه أثر السفر.

ولا يعرفه منا أحد) الحديث.

والحكمة فى مجيئه هكذا:

(ليعظم اتجاههم إليه. وإصغاؤهم لما يقول، ويقال له، فإن النفوس أشد مراقبة للعظيم. وأعظم تطلعا للأمر المستغرب.

وبذلك يتمكن فى نفوسهم ما يدور بينهما عليهما الصلاة والسلام من سؤال وجواب).

وهذا هو الدرس الأول الذى يلفت النظر إلى ما للصورة الظاهرة من أثر..

وإذا كان الإعلام المادى قد استفاد من تاريخنا.. فاستغل الصورة فى التمكين لما يحبه الناس.. فعلينا أن نستغل نحن الصورة فى التمكين لما يجب على الناس!

ليتضح الفرق بين الاتجاهين.. ويظهر الصبح لذى عينين.

أثر الصورة
من السنة المطهرة

يقول ﷺ:

«سووا صفوفكم. فإن تسوية الصفوف من تمام الصلاة» .

وفى رواية: **«لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»** .

يشير الحديث الشريف إلى أن للصورة الظاهرة تأثيرها على أحوال النفس الباطنة: فتصرفات الإنسان الظاهرة تغرس فى العقل الباطن إيحاءات تشاكلها:

فالاختلاف الظاهر.. ينعكس كفل منه على الباطن، فالاختلاف فى الصورة سبب للاختلاف فى المودة. وفى الألفة.

أى أن عملية الاختلاف والتضارب تأخذ سبيلها إلى باطن الإنسان فتؤدى إلى اختلاف القلوب. وتضارب الآراء.

وحين يظهر على الإنسان جلال من تقواه.. وجمال من علمه الغزير.. فإنه يكتسب هيبة حين يعرض عن دنياه.. على نحو يترك أثره على الذين يرونه. وقد كانت صورة «الإمام» الجميلة وهيئته المنسقة مأخوذة فى الاعتبار.. وداخله فى نسيج شخصيته ليحدث التأثير:

قال ﷺ لأصحابه:

«وما على أحدكم لو اشترى إن وجد سعة ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته»[1] .

وكان له ﷺ حلة يلبسها للعيدين والجمعة.

فإلى جانب النظافة المطلوبة.. نلحظ أهمية الهندام المنسق ووقعه فى النفوس.. لا سيما إذا تعلق بقيادة ترتاد بالناس طرائق الهدى..

وكان من الممكن أن يكون للمسلم ثوب واحد.. ينظفه كلما أراد صلاة

---

(١) أبو داود وابن ماجه.

الجمعة.. ويكفى الواحد لهذه المناسبة الأسبوعية..

ولكنه ﷺ يفضل ثوبين اثنين.. تلوينا يتجاوز المشهد الواحد الرتيب المكرور كل جمعة.. واهتماماً بهذه المناسبة الجليلة التى يجب الاجتماع لها فيما يشبه العيد..

من آثار هذا التوجيه:

ولقد كانت استجابة المسلمين داعية.. وبان أثرها جليا فيما يحكيه «أرنولد» فى كتابه: تاريخ الدعوة ص٢٥٨.

قال معبرا عن أثر الصورة أو المظهر:

(تحدث «سعيد بن الحسن» أحد يهود الإسكندرية الذى اعتنق الإسلام سنة ١٢٣٨م عن مشهد صلاة الجمعة فى مسجد باعتباره عاملا حاسما فى تحوله إلى الإسلام فيقول:

«وعندما دخلت المسجد ورأيت المسلمين يقفون صفوفاً كأنهم الملائكة سمعت هاتفا يقول: هذه هى الجماعة التى أخبر الأنبياء بقدومها..

ولما ظهر الخطيب مرتديا عباءته السوداء استولى على شعور عميق من الرهبة.

ولما بدأت الصلاة أحسست بقوة تدفعنى إلى النهوض؛ لأن صفوف المسلمين بدت أمامى كأنها صفوف الملائكة التى يتجلى الله القدير فى سجداتهم وركعاتهم.

فأيقنت فى نفسى أنى خلقت لأكون مسلماً.

وقال رينان: ما دخلت مسجدا قط دون أن تهزنى عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى: دون أن يصيبنى أسف محقق على أننى لم أكن مسلماً، فالمظاهر الحسنة بوجه عام لها أثرها الكبير فى النفوس وبخاصة وسط قوم يحبون ذلك. ولأمر ما أقر عمر رضى الله عنه ما رأى عليه معاوية حين كان واليا على الشام من المظاهر التى لا عهد للعرب بها؛ لأنه عرفه أنه بين قوم يقدسون هذه المظاهر).

خطورة الإعلام المادى:

صار الإعلام سلاحا فى يد الأمم القوية.. تحطم به معنويات الأمم النامية. حتى تفقد كما قيل - قابليتها للحياة.

إنه (مخطط من جانب دولة ماكرة بقصد التأثير على آراء وعواطف ومواقف وسلوك جماعات عدائية أجنبية، أو محايدة أو صديقة. بطريقة تعين على تحقيق سياسة الدولة وأهدافها).

الغاية تبرر الوسيلة:

فى دنيا الناس اليوم ـ كما يقرر الذين يستقرئون الواقع ـ إعلام يجعل المعروف منكرا، والمنكر معروفاً:

ينشر الشائعات كأنها حقائق.

ويدرس جهالات على أنها علم.

بل إن التبجح ليصل إلى حد أن بعض الأجناس تحتل أرضا ثم تقتل أبناءها الأصليين.. فى صمت.

ولا بأس أن تتحدث هذه الدول الباغية عن الحرية.. وعن الديمقراطية. والعدل.. تطاولا وادعاء.. بينما سكان الأرض وأصحابها الحقيقيون.. يموتون. فى هدوء ولا يسمع أناتهم أحد.

ولا بأس أيضا أن ترفع هذه الأمم راية السلام.. ساترة من ورائها غرائز الوحوش!

أسباب خطورة الإعلام المادى:

إن رياح الخطر الإعلامى المادى لتهب على أمتنا من كل جانب.. ذلك هذا الإعلام يملك من أسباب النفاذ ما يتملك به رقابنا.

وقد ساعد على تحكمه فينا أسباب يتصل بعضها بالتقدم العلمى الحديث وبعضها راجع إلى هموم الحياة ومشكلاتها التى لم تدع للأمم الضعيفة الدفاع عن نفسها..

أ ـ تقدم العلوم:

استخدم الإعلام اليوم مجموعة من العلوم التجريبية فى مجالات: الصوت والضوء.. والصورة.. والحركة، فكان بذلك: سريعا.. واسع الانتشار

الجماهير فى كل موقع.

كما استخدم العلوم الإنسانية الكاشفة عن طبيعة الإنسان. ودوافعه.. والتى تمكنه من استغلالها وذلك مثل:

علوم النفس. والاجتماع. والاقتصاد. والتربية، فكان قوى الاختراق.. ساطعاً.

وإذا نجحت الشعوب ـ كما يقرر الخبراء ـ حين هبت من رقادها. ثم نجحت فى صد الهجوم الاستعمارى بأشكاله السياسية والاقتصادية.. فإنها عاجزة عن صد هذا اللون من الاستعمار الثقافى. لأنه:

يبث دائماً..

ويغير إذن من المشاهد أو المستمع..

مستخدما العلوم الآنفة الذكر فى التمكين لفكرته وفرضها فرضا بالإلحاح المستمر.. ونذكر هنا ما قاله «جوستاف لوبون».

(للتكرار تأثير كبير فى عقول المستنيرين. وتأثير أكبر فى عقول الجماعات من ... والسبب فى ذلك. كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية ... بها أسباب أفعال الإنسان.

انقضى شطر من الزمن. نسى الواحد منا التكرار، وانتهى بتصديق ... هذا هو السر فى تأثير الإعلانات العجيب:

الواحد مائة مرة: أن الحلوى من صنع فلان، فيخيل إليه من التكرار أنه ... مصادر شتى. وينتهى الأمر بصحة الخبر).

أن الإعلام المادى يذكر دائماً كلمة «الإرهاب» مقرونة بالإسلام ... ما يفعل مع دول أخرى لا تدين بالإسلام..

... يصدق المشاهد والمستمع ما يرى وما يسمع وبلا مناقشة!

... التمكين للفكرة الجديدة.. ما حدث بشأن محاولة إلغاء عقوبة ... بدأت الفكرة طائرة.. عابرة.

... بعد ذلك بأنها فكرة إنسانية..

ثم كان مكر الليل والنهار . . بواسطة الإعلام الموجه . .

ثم كان القانون الذى ألغاها . . وحمى السفاحين . .

والنتيجة :

ارتفاع نسبة الجرائم!

ب ـ هموم الإنسان:

هموم الإنسان الكثيرة حملته على طلب المتعة . . وكان الإعلام المادى أحق بها . . وأهلها!

أضف إلى ذلك ما حققه الإعلام من ربح وفير حمله على مضاعفة نشاطه فى التخذيل . . بعقلية تجارية بحتة غير محكومة بالمثل العليا .

لقد فتح الإنسان المطحون عينيه يوما . . فرأى السراب الخداع . . فذهب يبحث عنده . . عن «كأس من الخمر» «ينسى بها واقعه الأليم» . فوجد فى الإعلام ألوانا من الترف . .كان منها فيما يشبه البحر الذى لا ساحل له . . لقد غاب الإيمان بالله تعالى . . فكانت الحياة رتيبة مملة . . والأيام نسخة واحدة . . لا جديد فيها .

فقرر الإنسان المهموم أن يفر من واقعه المر . المؤلم . . إلى عالم مسحور ينسية آلامه . . وقد انتهز الإعلام المادى هذه الفرصة الذهبية فركز حملته على المسلم بالذات فى محاولة لإحباط دوره الحضارى .

ودخل الإعلام على الناس . . وهم فى مخادعهم بما يمكن أن يسمى «تطبيع العلاقات» بين الدول الكبرى والدول النامية . . والإسلامية بخاصة .

وقد تحاول الدول المستضعفة أن تدافع عن نفسها يوما رافضة أن تقيم مع الإعلام المادى جسرا من العلاقات الدبلوماسية . .

ولكن الدول المعادية تقيم من جانبها علاقات ثقافية عن طريق هذه البرامج المبثوثة . . والتى تخدم أغراضها . . وتنشر أمراضها!

بداية المؤامرة

بداية المؤامرة

بدأ الإعلام المادى يمارس نشاطه مع بزوغ فجر الدعوة الإسلامية.. وتولى كبره التحالف الباغى بين المشركين واليهود.

بل كانت أصابع اليهود الخفية تحرك المشركين فى الظلام.. إرادة التشويش على المسلمين. يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

وفى سبب نزول الآية الكريمة قال المفسرون:

(كان النضر بن الحارث يأتى «الحيرة» يتجر، فيشترى كتب أخبار الأعاجم. ويحدث بها أهل مكة ويقول:

إن محمداً يحدثكم أحاديث عاد وثمود. وأنا أحدثكم أحاديث فارس والروم. فيستملحون حديثه. ويتركون استماع القرآن)[2].

وقيل: (نزلت فى النضر بن الحارث: اشترى قينة - جارية بيضاء مغنية - وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول لها: أطعميه. وأسقيه. وغنيه: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام.. وأن تقاتل بين يديه)[3].

وكان النضر بن الحارث نفسه رسول قريش إلى اليهود الذين علموه كيف يسأل رسول الله ﷺ عن الروح وغيرها.. إرادة إحراجه ﷺ.

ثم هو المقصود بقوله تعالى فى سورة الحج:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ. كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾[4].

---

(١) لقمان: ٦، ٧. (٢، ٣) تفسير الجلالين. (٤) سورة الحج: ٣، ٤. المرجع السابق.

وقد كان لعبد الله بن خطل قينتان تغنيان بهجاء الرسول ﷺ إحداهما: «قُرَيبه» والثانية «فرتنى»).

تحليل وتعليل:

ونلاحظ هنا بعض ملامح الإعلام المادى. والتى بدت منذ اللحظة الأولى للدعوة الإسلامية. .

١ - لقد علم أعداء الإسلام أنه: لا السلاح الأبيض. . ولا الأحمر بقادر على حسم المعركة بينهم وبين المسلمين. . فقرروا النزول إلى ميدان المعركة بسلاح الكلمة الخادعة والصورة الساحرة. .

٢ - قررت العقول المدبرة أن تستصفى من الأذكياء أشدهم خبثا ليتولى كبر هذه الحملة الكاذبة الخاطئة. فكان النضر بن الحارث هو «البوابة الإعلامية» لقريش ومن يحتطب فى حبلها.

٣ - الأموال الطائلة مرصودة لشراء أدوات اللهو واللعب يبذلها النضر بن الحارث باسم قريش ﴿**ليضل عن سبيل الله..**﴾.

ليضل فقط. . وهذا يكفى. . وهى الخطة التى ما زالت سارية المفعول حتى اليوم والتى لا تطمع فى تحويل المسلمين إلى هود أو نصارى. . وإنما يكفى إضلالهم. . وزحزحتهم عن الخط المستقيم. . ليتفرقوا فى شعاب الوادى على غير هدى. . وبغير هوية.

٤ - ثم هو إعلام (بغير علم) لا يسنده برهان. . ولا إيمان. . يلجأ إلى وسيلة التافهين الذين يحسون بضعفهم فيلجأون إلى السخرية. . وهى وسيلة الصبيان الأغرار.

٥ - ثم هو مظلم النفس. . فليست لديه صلاحية الهدى وقد فقد مصدر الهدى. . وبنفس القوة. . ينطلق فى حمق. . بلا وحى يزكيه. . ولكنه مجرد الادّعاء الكاذب.

٦ - وهو إعلام ذكى:

يدرس البيئة. . ويتحسس نقاط الضعف فيها؛ ليقدم للناس الغذاء المناسب:

والناس ميالون بطبعهم إلى: الوجه الصبوح، والنغمة المتكسرة.. إمتاعاً للنفس.. وفى نفس الوقت يحبون الطعام والشراب.. إشباعا للبطن.. فاستقدم الطعام والشراب.. وأحاديث الهوى والمجون.. وقدمها للناس فى طبق من الذهب على يد جارية فتية.. جميلة.. تشوش على القلوب بجمالها.. فى محاولة للتشكيك فى صحة العقيدة وإماته روح القتال فى ضمير الأمة..

٧ ـ ثم هو إعلام لا يطيق سماع الحق.. فضلا عن قبوله..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً..﴾

ذلك بأن طبيعة الباطل تحس بالصغار إلى جانب الحق الأعلى.. فتحاول أن تشوش عليه.. على الأقل حتى لا تسمع نداء الفطرة من داخلها.. يكذبها.. فتتذرع بمظاهر من التكبر والتعاظم فى محاولة لإخفاء الحقيقة التى تكشف زيفه.

٨ ـ وكانت هناك مدارس إعلامية هى نواة لما هو موجود اليوم: فإذا كان النضر يستقدم المغنيات الفاتنات.. لتصد عن سبيل الله.. إلى جانب الشعراء الضالين.. الذين يتبعهم الغاوون.. فقد كانت مدرسة «عبدالله بن خطل» متخصصة فى استجلاب المغنيات بهجاء رسول الله ﷺ..

والهجاء محاولة لهز صورة القائد.. حتى تهتز معها مبادئه.

٩ ـ ولقد حقق الإعلام المادى بعض ما يصبو إليه: فقد «استملح» بعض الضعفاء ما يسمعون وما يشاهدون فصرفهم عن الحق.. كما تقول الرواية.

١٠ ـ حاولتُ أن أتأمل بعض الخدع الإعلامية اليوم.. فرأيت جذورها فى موقف النضر ورفاقه: فقد عمد النضر بن الحارث إلى إقامة الحفلات.. والمهرجانات.. الحافلة بكل ما لذ وطاب مما يستملحه الناس..

كل هذه المظاهرات الإعلامية من أجل هدف يدسه دسا.. وفى غمرة هذا الصخب. وهو ما تقوله الجارية لمن أراد الإسلام:

(.. هذا خير مما يدعوك إليه محمد.. من الصلاة والصيام. وأن تقاتل بين يديه) وهو نفس ما يحدث اليوم:

فالإعلام المادى اليوم توجهه وترسم له مذاهب لها رجالها الذين يدخل فى تخطيطهم:

دس السم.. فى العسل! بحيث لا تحس بخطر السم الذى يسرى فى كيانك على المدى الطويل وأنت لا تدرى.

أ - فقد يقدم لك برنامجا على ساعة كاملة من غناء أم كلثوم.. وبعده خمس دقائق لتعليم لغته الأجنبية.

ب - وقد يعرض لك حياة أديب عربى أو إسلامى كبير مِنْ أجل أن يمدك - وبسرعة وخفية - بفكرة مذهب اجتماعى يضرك كعربى مسلم..

إنها مظاهرة إعلامية ترفع راية التسلية.. أو الترفيه.. وفى غمرة الانبهار بالمظاهر الخالبة يعطونك «الحقنة» المخدرة!

موقف الإسلام:

ذكرت آيات سورة لقمان موقف النضر بن الحارث.. وخطته فى استيراد كل مفسد من القول.. والفعل..

وقد أشارت الآيات بعد ذلك إلى الطريقة المثلى لصد هذا التيار الجارف.. وذلك عن طريق الإعلام الجاد الصادق.. يتحمل مسئوليته إعلامى مسلم يهجم على الباطل فيدمغه بالحق فإذا هو زاهق..

وذلك ما تشير إليه وصايا لقمان لابنه.. مما يمكن أن تعتبره مثلا يحتذى فى الإعلام بالحكمة الهادية.. التى تحبط كيد المبطلين.

وذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ......﴾[1] الآيات.

وذلك ما سنتعرض له بعد أن نوضح دور اليهود فى هذه الحملة الظالمة.

---

(١) لقمان: ١٢ وما بعدها.

بداية المخطط اليهودى

بداية المخطط اليهودى

(يقول البحاثون:

يلعب اليهود - بالذات - دورا كبيراً مدروسا؛ لامتلاك زمام الأمم من الداخل.. ليتسنى لهم أن يسيطروا على أقدارها.. وقد بدأ ذلك الدور بما فعله «عبد الله بن سبأ» فى العصر الإسلامى الأول والذى صار أساسا لما طرأ من بعد من تصورات يهودية فى هذا المجال استهدفت الأمم سواها وبخاصة أمة الإسلام).

وانطلق الإعلام المادى اليهودى إلى تحقيق هذه الأغراض بأساليب ماكرة ومنها ما أشار إليها المجربون:

١ - الغاية تبرر الوسيلة.

٢ - التستر وراء الدين.. أحيانا.

٣ - استخدام المرأة فى غير ما خلقت له.

٤ - محاولة التسلل إلى أعماق الإنسان. عن طريق شهوته.. وفى غيبة عقله ووعيه.

٥ - محاولة إخماد القوى المدركة فى كيان الإنسان.. لشل إرادته.. وليظل دائما التابع الأمين.. كحجر صامت على رقعة الشطرنج!

٦ - يحرف الكلم عن مواضعه.

٧ - تلبيس الحق بالباطل.

٨ - تسقط العورات.

٩ - إساءة الظن.

١٠ - حجب الحقيقة.

مثال من الماضى:

لقد نجحت الدعاية اليهودية فى إقناع بعض نساء العرب بأن فى اليهودية سحرا.. وفيها بركة.. إلى حد أنها تمنح الحياة لمعتنقيها.

وكان أن سارعت النساء إلى تسليم أولادهن بمحض اختيارهن.. ليكونوا هودا.. أى: ليعيشوا.. ودلت هذه الظاهرة على ما يمكن أن يفعله الإعلام الماكر.. والذى يركز خاصة على غريزة المرأة.. بغية كسب ولائها التى تمنحه طواعية لمن يتملق غرائزها.

هذا الإعلام الذى ما يزال يدوى فى الآذان حتى يكسب ود الأغرار.. وهو بعض ما أشار إليه قوله تعالى: **﴿بل مكر الليل والنهار﴾**.

لكن الأسرة العربية لما دخلت فى الإسلام.. ظهر لها حجم الخطأ الذى ارتكبته.. وهبت تصحح خطأها باسترداد أبنائها الذين تهودوا فعلا...

الرد الإلـهى:

لكن الحق سبحانه وتعالى - وهو الذى يدبر للدعوة - وقف بالوالدين على سواء الصراط:

فليكن الموقف امتحانا لهؤلاء الأبناء.. فهم يقفون اليوم على مفترق الطرق.. وعليهم أن يتخذوا قرارهم بمحض اختيارهم..، أما ردهم بالقوة.. فلن يجعلهم مسلمين..

وهذا ما نبه إليه ﷺ.. بيانا للآية الكريمة.. وإشارة لافتة إلى وظيفة الدعاة.

الحملة مستمرة:

(يروى لنا «سيف بن عمر الضبى الأسدى» المتوفى سنة ٢٠٠ للهجرة. فى كتابه «الفتنة ووقعة الجمل» كيف زلزل أمن المجتمع المسلم عن طريق حركة فكرية إعلامية قادها عبد الله بن سبأ.

يقول «سيف بن عمر الضبى»:

(كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء، - أمه سوداء - فأسلم زمان عثمان. ثم تنقل فى بلاد المسلمين يحاول ضلالتهم:

فبدأ بالحجاز. ثم البصرة ثم الكوفة.. ثم الشام. فلم يقدر على ما يريد من أحد من أهل الشام. فأخرجوه حتى أتى مصر، فأعتمر فيها، فقال لهم:

لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع، ويكذب بأن محمدا يرجع، وقد قال الله

عز وجل: ﴿إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾.

فمحمد أحق بالرجوع من عيسى، ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها ثم قال لهم بعد ذلك: إنه كان ألف نبى، ولكل نبى وصى، وكان على وصى محمد، ثم قال: محمد خاتم الأنبياء، وعلى خاتم الأوصياء، ثم قال بعد ذلك: من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصى رسول الله. وتناول أمر الامة ثم قال: إن عثمان أخذها بغير حقها. وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه. وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تستميلوا الناس. وادعوهم إلى هذا الأمر. فبعث دعاته. وكاتب من استفسد من الأمصار وكاتبوه حتى تناولوا بذلك المدينة. وواسعوا الأرض إذاعة».

لقد ترتب على هذه الأفكار ثم على الحركة الإعلامية الواسعة النطاق التى خدمت هذه الأفكار. ترتب على ذلك فتنة عاصفة طاحنة ضربت أمن الدولة الإسلامية. وأمن المجتمع المسلم فى الصميم.

بل إن آثار هذه الحركة الفكرية الإعلامية امتدت إلى يومنا هذا غلوا وتعصبا. وطعنا فى الصحابة، وتوسيعا لنطاق الفتن، وتجديدا لمآسى سوداء)[1].

ولقد يكون للمشرك عذره لو أنه حرص على الحياة الدنيا؛ لأنه منسجم مع عقيدته الباطلة.. والتى تنكر الدار الآخرة. وإذن فليعش دنياه بالطول والعرض. ولكن ما هو عذر اليهودى المؤمن بالآخرة.. إذا بدا وهو أحرص الناس على حياة.. أية حياة.. ومن الذين أشركوا؟!!

وبنفس القوة نقول:

لقد كان منطقيا أن يتزعم المشركون حملة التصدى للحق وأهله.. دون اليهود الذين هم أهل كتاب...

فما هو عذر اليهود الذين قادوا قافلة العدوان والتضليل؟

لقد آثروا التورط فى حماقة التناقض بدل أن يستجيبوا للحق طائعين..

مع أنهم كانوا من قبل ﴿يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾.

---

(١) من بحث للدكتور عبد الله التركى.

وقبل أن نسائل الواقع ونستقرئ التاريخ ليؤكد هذا المعنى نذكر بأن اليهود والنصارى كانوا قبل بعثة النبى ﷺ أعداء.

وبعد البعثة - كما يقول أهل العلم - صاروا أولياء يجمعهم خندق واحد.. ضد محمد عليه الصلاة والسلام.

وذلك ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

الأساس القرآنى:

دلت الآيات الكريمة على تحمل اليهود وزر السبق إلى العدوان.. حتى فيما اجتمعت فيه كلمتهم مع النصارى:

يقول الحق سبحانه:

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾[2].

والسفهاء هم اليهود. كما قال المفسرون.

ويقول سبحانه: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[3].

والآية كسابقتها تعد المسلمين لكى يستعدوا للبلاء قبل وقوعه. فيما يشبه مانقوله اليوم بلغة الإعلام: «تحصين المتلقى».

ثم نضيف إلى ما سبق:

أن أهل الكتاب أعرق فى باب الإضلال من المشركين..

أما عن سبق اليهود إخوانهم من أهل الكتاب.. فيتبين من استعراض الآيات الكريمة التى تتحدث عن ادعاءات أهل الكتاب.. وسخرياتهم ومؤامراتهم.. وكيف كان سبق ذكر اليهود.. تأكيدا لتأصل دوافع الإجرام فى جبلتهم. ونقرأ فى

---

(١) المائدة: ٥١. (٢) البقرة: ١٤٢. (٣) آل عمران: ١٨٦.

هذا المعنى هذه الآيات الكريمة: يقول سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾[1].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ﴾[2].

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾[3].

والآيات الشاهدة بذلك كثيرة فى القرآن الكريم..

ويلاحظ أهل العلم: أن سورة الأعراف مكية.. ولكنها - ولأول مرة - وقبل الهجرة تفصل قصة اليهود تفصيلا يبين كيف سبقوا أهل الأديان جميعا إلى التحايل على الأوامر والتحلل من النواهى. وكيف التوت طبيعتهم كما التوت مساكنهم.. فكانوا كلما عاهدوا عهدا نبذوه.. وكلما أعطوا موثقا.. نقضوه.

عقدة الشعب المختار:

ونتساءل: ما السر فى أن يتولى اليهود كبر الحملة الإعلامية الظالمة:

إنها عقدة الشعب المختار..

الشعب الذى أغره أن الله فضله - يوما - على العالمين.. فمنحه ذلك إحساسا بغيضا بالتفوق.. وراح - مدفوعا بمزاج دموى - يضرب بقسوة.. وينهب بلا وازع من ضميره. ولا خوف من سوء المصير. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العقدة بمضاعفاتها فى قوله تعالى:

﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل﴾.

وشهد شاهد من بنى إسرائيل!

وقد صور الشاعر الإنجليزى «شكسبير» جشع اليهود واستهانتهم بآلام الغير فى روايته «تاجر البندقية» فكان تصويره الرائق تفسيرا من أقصى الشمال للوحى النازل فى جزيرة العرب من أربعة عشر قرنا. يصف هؤلاء اليهود فيقول:

﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة﴾.

(١، ٢، ٣) البقرة: ١١١، ١١٣، ١٣٥.

اليهود بين اللعن.. والغضب:

حاول اليهود إذن أن يتفردوا بساحة الكرامة الإنسانية.. عن طريق الاستئثار بأموال الآخرين.. بل وبحياتهم أيضا. صادرين عن عقدة الشعب المختار».. فكان جزاؤهم من جنس عملهم أن لعنهم الله تعالى.. أى طردهم من ساحة كرمه ورضاه.. يقول سبحانه:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾(١).

ولكن المزاج الدموى. والطبع المنحرف سول لهم أن يصعدوا المعركة.. فزعموا أن ما يفعلونه بالأمم الأخرى دين يتقربون به إلى الله سبحانه.. وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.. فاستحقوا بذلك غضب الحق تعالى.. وهو مرتبة أشد من اللعن.. وما كتبوه بأيديهم شاهد بذلك:

تقول وثائقهم: (حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ـ فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير. ومستعبد لك.

وإن لم تسالمك. بل عملت لك حربا فحاصرها.

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك. فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم. وكل من فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك. وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك).

تحالف المبطلين ضد الإسلام:

ليس فى إسرائيل وزارة إعلام كما هو الشأن فى دول العالم.. اكتفاء بما لها من مد إعلامى يغطى مساحات شاسعة من سطح الأرض.. بل بما لها من امتداد فى ذواتنا نحن! ومن ثم صار للإعلام اليهودى خطره فيما ترمينا به الأنباء من تحركات تهدف إلى السيطرة والتمكين للغزو الفكرى اليهودى. ضمن مخطط ثابت له منهجه [illegible] ميزانيته الضخمة. فقد قام اتحاد الجمعيات اليهودية الأمريكية بشراء [illegible] بث برامج جديدة. عبر شبكة الإرسال الدينى فى أمريكا.

(١) المائدة ١٣.

وهو برنامج ثابت. وشامل، ويبث برامجه عبر الأقمار الصناعية، أى أنه يغطى سطح الكرة الأرضية[1].

ورغم غضب الهيئات المسيحية هناك..

إلا أن ذلك لم يشكل عائقا أمام نجاح البرنامج الجديد..

للأسباب الآتية:

١ ـ من يتصدى للاعتراض.. يعرض نفسه لمتاعب لا قبل له بها. فهو إن أسر النقد.. فلن يستطيع الجهر به!

٢ ـ أمريكا تتعصب ضد كل موقف مخالف.. إلا اليهود!

٣ ـ لائحة لجنة الاتصال الأمريكية تحول دون وقوف طائفة فى وجه أخرى.

٤ ـ المعلن اليهودى سخى للغاية!

٥ ـ ترتبط معظم شبكات الإرسال بأسماء يهودية. تساند النشاط اليهودى.

٦ ـ شعار حرية الرأى يعطى اليهود حرية الحركة.

ومن أهداف هذا البرنامج ملاحقة كل ما هو عربى بالتشويه:

فى نفس الوقت الذى يدعو اليهود عن طريق هذا البرنامج إلى التقارب بين اليهودية والمسيحية.. على حساب الإسلام والعروبة طبعا!

ولو نشرت قصة لصالح العرب أو الإسلام.. انتهزها اليهود فرصة بإعلام مضاد.. مما يضطر المعلن إلى الفرار من ذكر شىء عن العرب وقاية لنفسه من الخسارة المتوقعة.

ولا ننسى الدهاء والمكر فيما نشر بعد حرب ١٩٦٧..

حين اجتمع مجلس الشعب المصرى.. ووقف نائب يرقص حين قرر الرئيس الراحل العودة إلى الحكم بعد أن عزم على تركه!

وكان الإعلام اليهودى بالمرصاد:

نشرت صورة «موشى ديان» صارم الملامح.. وكتبت تحتها: المنتصرون..

(١) عن جريدة الرياض.

وإلى جانبها صورة النائب الراقص.. وكتبت تحتها: والمنهزمون!!

أى أن المهزوم يرقص فرحا.. بهزيمته.. أو بعودة زعيمه ولا عليه من خراب البلاد وذلة العباد!!

وأنت خبير بما تفعله هذه السخرية اللاذعة من مرارة تاركة آثارها فى نفوس الأمم حولنا. ثم تشكل فى النهاية استهانتهم بنا.

صور من الممارسات اليهودية:

لما أحس اليهود بأنهم قلة فى بحر واسع.. من الأمة العربية.. اتخذوا من الحيلة ركوباً إلى تحقيق مطامعهم.

ولقد استهدفوا المواطن الأمريكى كحليف مخلص.. فعرضوا بين يديه أفلاماً عن ترف العرب وقصورهم وبساتينهم..

ولقد فرح بعض السذج من العرب.. بعرض هذه الأفلام التى تكشف عن مدى تحضرهم ـ! ـ ولكن إسرائيل بعرض هذه الأفلام.. كأنما تقول للشعب الأمريكى:

هل العرب مع هذا الغنى فى حاجة إلى مساعدة أو مساندة؟

وإذن.. فاليهود أولى بهذه المساعدة!

ولقد استطاعت بذلك أن تغير من مشاعر المواطن الأمريكى تجاه العنصر اليهودى.. بل استطاعت أن تجعل منه نصيرا لقضاياها:

لقد كان من المألوف زمنا.. أن تقرأ هذه العبارة على واجهات المطاعم الأمريكية:

(ممنوع للكلاب.. واليهود)!

وفزع علماء النفس اليهود. واتخذوا سبيلهم لوضع خطة لتحويل الاتجاه الأمريكى لصالحهم.. فماذا فعلوا؟

تحسسوا العوامل التى أدت بالشعب الأمريكى إلى بغض اليهود.. ثم وضعوا لها الأدوية المناسبة.. والتى بدأت بضرورة تخلى اليهودى عن عقدة «الشعب المختار».. والخروج من عزلته للمساهمة فى الحياة العاملة..

وتكليف الأغنياء أن يقيموا الحفلات الصاخبة.. ومساعدة الفقراء ولقد تم لهم ما أرادوا.. فقد أشارت أمريكا على اليهود - قبل أن تقوم لهم دولة - بأن تبالغ فى مدح الحركة الإسلامية فى فلسطين. وكيف أنها قادرة على تحطيم خصومها.

وركزت حملة المدائح على القيادات الإسلامية حينئذ.. وتحققت ثمرة المكر المبيت عندما أثار ذلك حماس الشباب الذى انهال بالشتائم والسباب على المخلصين من المسلمين. والذين لم يكن ليطربهم ذلك المديح الرخيص. ولكنها الحفرة.. التى نبشت بإتقان فوقع فيها المسلمون.. من حيث لا يشعرون، واستطاع اليهود أن يتسللوا إلى أعماق المواطن الأمريكى.. ليقودوه إلى حيث يحققون من خلاله مصالحهم بعد ما كان بينهم من كراهية.

من تقرير لجريدة الرياض السعودية..

يقول باحث:

(.. لا أرى أحدا يخالفنى الرأى إذا زعمت أن الفرد الأمريكى يتمتع بحريات واسعة. ضمنها له الدستور الأمريكى. ولعل من أهم هذه الحريات: حرية التعبير المطلقة:

فهناك أمريكيون ينادون بالشيوعية.

وآخرون يدعون إلى الشذوذ الجنسى.

وغيرهم يطالب بأشياء أخرى هى أشبه ما تكون بالجنون. إن لم تكن الجنون عينه. إنهم يناقشون هذه الآراء ويدافعون عنها عن طريق وسائل الإعلام المختلفة.

بالرغم من ذلك كله فلا يملك أحد أن يتحدث عن قضية فلسطين إلا بالصورة التى تسمح بها الصهيونية المتحكمة هناك).

حتى فى روسيا:

(قضى «لينين» أيامه الأخيرة يزحف على أربع فى حجرة ويصرخ:

اللهم أنقذ روسيا واقتل اليهود..

وقد صارت ٩٠٪ من الوظائف المهمة فى روسيا فى يد اليهود)[1].

ضلال الفكر المادى:

يخضع الإنسان فى تقلبه ـ كما يقرر علماء النفس ـ لعوامل نابعة من ذاته.. ثم من بيئته.

والجهل بهذه العوامل مانع من الوصول إلى عمق الإنسان.. ذلك العالم المجهول.

ولما فات الفكر المادى إدراك هذه العوامل.. لم يكن تصوره للإنسان دقيقا.. وبالتالى اختل حكمه له.. أو عليه.

وبسبب من هذا الجهل كما يقرر الباحثون تورط الباحثون فى أخطاء.. ارتدت فى النهاية وبالا على الإنسان..؛ لأنها لم تؤسس على فهم شامل لطبيعته واحتياجاته. وعندما أخطأ الباحثون فى تصور ملكات الإنسان.. وعندما انحرفت بهم الأهواء فلم يسيروا به فى الاتجاه الصحيح.. انتهى بهم الأمر إلى التناقض فى مجال الفكر.. والتمزق فى عالم الواقع.. فكان هذا الضياع وهذا الدمار النفسى الملحوظ. وتلك هى قصة الحضارة الحديثة.

يقول «جيمس» فى كتابه «الكون الغامض»:

(ونحن إذ نقف على هذه الأرض. نحاول أن نكشف عن طبيعة الكون الذى يحيط بنا. وعن الغرض من وجوده.. نحُسُّ بما يشبه الذعر والهلع.

وكيف لا يكون الكون مخيفا مرعبا. وهذه أبعاده لا تستطيع عقولنا أن تدرك مداها. وإلى جانبها يتضاءل الإنسان.

وهذا هو الكون الذى ألقت بنا فيه الظروف)

وإذا وقف الملحد خائفا يترقب فإن المؤمن دونه يعيش فى أنس دائم.. وتجاوب مع هذا الكون الذى يحس بما بينه وبينه من ود متبادل..

فالرسول ﷺ يقول:

«أحد.. جبل يحبنا ونحبه».

---

(١) " الإسلامى د. عمارة نجيب ٢٩٧.

ولقد حن الجذع إليه..

والكون كله مسخر لنا..

وعقيدة الإيمان تزرع أعواد الأمل فى حنايانا:

﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

وقد دلت البداية على النهاية.

وتبين لنا كيف ضلل الماديون القافلة الإنسانية.. حين لوحوا لها بالفردوس.. وإذا هم لحظة الوصول لم يجدوا شيئا..

ووجدوا هناك الحساب.. تمزقا وانتكاسا.

كيف أخطأ الباحثون الماديون فى تصور الإنسان وعلاقته بالحياة ففشلت كل محاولات الرقى به وإسعاده.. بل وزادته أثقالا مع أثقاله.

ذلك ما نحاول الإجابة عنه الآن:

إن أساس الوجود فى منطق البحث المادى هو:

تقسيم الوجود إلى قسمين:

فكر.. ومادة..

واختلفت وجهة النظر الرأسمالية عن أختها فقالت:

إن الفكر هو الأساس.. والمادة عارضة..

بينما قرر الشيوعيون:

أن المادة هى الأصل.. والفكر عارض..

ومن الناحية العملية: فالأساس واحد.. هو الانتهاء بالوجود عند حد الخلق.. ونسيان الخالق سبحانه..

وقد انتهى الأمر بالحضارة المادية إلى اعتبار الرغبة الإنسانية إلها يعبد من دون الله: كل المعانى.. والقيم العليا.. كل الأخلاق الفاضلة.. حديث خرافة!.

أما الحقيقة الوحيدة فهى: الطبيعة..

أما فى مجال العلاقات الإنسانية فالحقيقة الوحيدة هى:

الرغبة.. ولا شىء غيرها!

وإذن.. فلا ذوق.. ولا أخلاق.. ولا ضوابط!

ولا شىء يضبط الرغبات المذعورة إلا رغبة أخرى:

قد تكون لدى الراغب نفسه..

أو تكون لدى شخص آخر. أقوى منه وأعتى!

نهايـــــة المأساة:

وجاءت الرياح بما لا يشتهى السفن!.

فبينما قررت الفلسفة المادية: الرغبة أولا.. والرغبة أخيرا.. ترتب على ذلك سلسلة من الصراع لا تهدأ.. ولن تهدأ.. صراع الإنسان:

مع نفسه.

مع بيئته.

مع مجتمعه.

مع الحاكم...

وصراع الأمة مع أختها.. بدافع من هذه الرغبة المجنونة.. فليست هناك رغبة أولى من أخرى بالإشباع!

وهكذا أرادوا للإنسان أن يستمتع بوجوده.. عن طريق إطلاق سراح رغبته.. فقتلت الرغبة نفسها.. حين تصادمت هذه الاتجاهات..

وأظلم الوجود.. وخيم اليأس القاتل.. وتبين لهم كيف فعلت بهم أهواؤهم.. وكيف صارت بهم إلى الهلاك..

وتضخم هذا الشعور بالمصير المشئوم.. وانعكست هذه النظرة المتشائمة على كل صور الفنون.. ومنها الإعلام!!

فكان هذا الضياع الذى احتوى الوجود الإنسانى فى غيبة الإيمان بالله عز وجل.. ولابد من مواجهة العلة بالدواء الذى يستأصل الداء:

ومن العبث الساخر والجهد الضائع أن تنفق الحكومة ما تنفقه من جهد ومن مال. بينما الأدوات الأخرى تتعقب جهودها وآثارها: تنقض ما أبرمته. وتشكك فيما قررته. وتدعو إلى ما حذرت منه وحرمته. وتقيم للناس مثلا. وتبتدع لهم طرائق وعادات مما تقترحه أو تختلقه، هى على نقيض ما تريد المدارس أن تزرعه وأن تؤسسه فى أخلاق النشء.

وانصرف القراء عن الجد من القول إلى الهزل، وعن النافع المثمر، إلى التافه الغث، فكانت أمزجة فاسدة باردة. لا تجد لذة ولا متاعا إلا فى الساقط من القول، واللهو من الحديث.

من الواضح أن الدولة التى تنفق أموالها، وتستهلك جهودها وقواها فى إنشاء المدارس، وفى إعداد القائمين عليها، وفى إحكام نظمها وبرامجها، وألوان النشاط فيها.. ثم تسهو بعد ذلك عن هذه القوى الخطيرة التى تشاركها فى هذا الميدان.. فتترك سبلها ومنافذها مفتوحة لشهوات المأجورين والمخدوعين. ومطايا الشياطين من الفاسدين والمفسدين.. تفعل ذلك تقديسا للوهم الذى أقامته الثورة الفرنسية اليهودية. وزخرفت له اسما خداعا خلابا فسمته:

«حرية الرأى» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد».

وما هو فى حقيقة الأمر إلا وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات. وهدم كل الأديان حتى يتمكنوا من السيطرة عليها جميعا، بعد أن يقضوا عليها قضاء مبرما.

إن الدولة التى تفعل هذا هى كالنافخ فى قربة مقطوعة.. أو الجابى فى حوض مثقوب)[1].

فى مجال الطفولة:

كان مجال الطفولة أهم المجالات التى ركز عليها الإعلام اليهودى..؛ لأن الأطفال هم المستقبل.. وهم لذلك يريدون ردم هذا النبع الطاهر.. لتعيش الأمة بلا مستقبل.

---

(١) د. محمد محمد حسين، حصوننا مهددة ٥٦، ٥٧.

وإذا كان الأطفال هم عدتنا للمستقبل.. فإن المادية الحديثة تحاول استغلال الطفولة لحسابها..

إنهم حقل بكر.. وطاقة مذخورة، يمكن أن تمكن لأغراضهم فى الأرض.. وذلك يفرض علينا دائما أن نفتح أعيننا على حقيقة ما يراد بأطفالنا..

إن دور «كتاب القرية» أوشك أن ينتهى..

كذلك دور المسجد.. والأم.. صار ضعيفا فى أخذ الطفل بأسباب الخلق القويم.. بعد أن اقتحم «التليفزيون» على الناس بيوتهم.. وبعد أن شغلت الأم بالعمل الذى استنفد كل طاقاتها وأوقاتها. فلم تبق لطفلها بقية تعينه على أمر ربه..

وليتها تركته وحده فى المنزل يجتر وحدته ويعانى من وحشته..

بيد أنها تركته فى صحبة وسيله إعلامية تصنعه صنعا يفوق فى آثاره وأخطاره دور الأسرة والمسجد والمدرسة جميعا!

يقول الأستاذ إيهاب الأزهرى فى كتابه «الإذاعة وبناء الإنسان»:

ينفطر قلبى على مصير صغارنا.. وأحس بأنه لو أراد متآمر ببلادنا أن يشب أطفالنا أغبياء.. ليستطيع أن يضربنا فى الجيل القادم ما استطاع أن يحقق عملا أعظم مما يصنعه «التليفزيون» العربى بأطفالنا..؛ أى بمستقبلنا كله.

وكلما تقدمت الحياة.. وتنوعت أساليبها.. ضاعفت أجهزة الإعلام الأجنبية من نشاطها.. وبذلت قصارى جهدها. لاستحداث أيسر السبل وأبرزها أثرا فى حياة الطفل.. من أجل تشكيله على النحو الذى يخدم أغراضها..

جاء بجريدة الأخبار فى ٢٠/١١/١٩٧٩ فى مقال للأستاذ مجدى فهمى:

(الطفل بين التعليم والإعلانات)

هل يستطيع الإعلان إعادة تشكيل عادات المستهلكين والتحكم فى إرادتهم، وتحويلهم إلى «نرجسيين» يلهثون وراء اللذة، ويتحركون ضد الحاضر والمستقبل؟

.. هذا السؤال يطرحه الكاتب الأمريكى فانس براكارد، فى كتابه الجديد (المشكلون لسلوك الناس).

يقول الكتاب: إن الإعلان لم يعد مجرد قوة خطيرة فحسب، ولكنه تحول إلى سلطة اجتماعية فى العالم الغربى تؤثر فى إرادة الناس، وتدفعهم إلى سلوك استهلاكى لا يعبر عن احتياجاتهم الحقيقية.

والحقائق التى يذكرها المؤلف، والمستمدة من أدق الدراسات العلمية تثير العجب ... المواطن فى سن الـ ١٨ عاما يكون قد شاهد وسمع ١٨٠٠٠ ساعة إعلانا تجاريا فى التليفزيون فإذا أضفنا إلى ذلك إعلانات الراديو، يكون قد أمضى حوالى سنتين من عمره فى سماع ومشاهدة هذه الإعلانات!

والمعلنون ينفقون سنويا ٤٠ ألف مليون دولار، أى ٦٠٠ دولار لكل عائلة مقابل تشكيل العادات الاستهلاكية للمواطنين الأمريكيين!

ولأن صناعة الإعلانات تحولت إلى عملاق ينفق بسخاء على العلماء والفنيين فإن ظاهرة مزعجة تبرز فوق ميدان الإعلانات منذ عام ١٩٥٠ تتمثل فى انتقال أعداد كبيرة من علماء النفس والاجتماع ومختلف التخصصات الأخرى، إلى ميدان الإعلان، وهؤلاء يقومون بدور خطير فى التأثير على المستهلكين، ولم تعد المشكلة ـ تنحصر فى مدح السلعة، إنما التغلب على مقاومة المشترى الذى يصر على عدم احتياجه لها.. لابد من دفعه إلى الشراء والتغلب على عبارة: «أنا لا أحتاج هذه السلعة»؛ لأن الاحتياج كما يقول علماء الإعلان مجرد ظاهرة نفسية، ومعظم السلع التى يندفع نحوها المستهلكون، لا تعتبر ضرورة بالمعنى المفهوم، ووظيفة الإعلان تتجسد فى إزالة الفروق بين ما نحتاجه فعلا، وبين ما نستطيع الحياة بغير وجوده فى حياتنا.

وخطورة الإعلان لا تقف عند إضعاف إرادة التمييز بين ما هو ضرورى وغير ضرورى، إنما تمتد إلى تحويل الأجيال الجديدة من البشر إلى مستهلكين بلا وعى،

يندفعون إلى شراء السلع المعلن عنها بصرف النظر عن مدى احتياجهم لها.

فى تقرير حديث للجنة التجارية الفدرالية الأمريكية، يبرز الكثير عن الحقائق التى تتحدى خيال الطفل الذى يتراوح عمره بين ٥ إلى ١٢ سنة، يحملق فى التليفزيون فترة تصل إلى ٥ ساعات يوميا، يشاهد خلالها ٥٠ إعلانا تجاريا، أى بمعدل ١٨ ألف إعلان كل سنة!

صور وكلمات هذه الإعلانات تملأ مخ الطفل بكمية من المعلومات التجارية، تزيد عن كمية المعلومات التى تصله عن طريق التعليم، بل إن المعلومات الإعلانية المقدمة فى صور وأغان وأصوات جذابة، تنافس المعلومات المفيدة فى مخ الطفل، وتفرض نفسها فوق خياله وأحلامه!

وتقول الدراسة: إن وكالات الإعلانات الضخمة تخصص ميزانية كبيرة لتشكيل الأجيال الجديدة، فالإعلانات الموجهة إلى الأطفال، تتكلف ٦٠٠ دولار كل سنة، وهدفها تحويل الطفل إلى قوة ضغط داخل أسرته؛ لإرغامها على شراء ما يريده واستغلال فقدان التوازن بين المعلنين والأطفال من حيث القدرة على التأثير والإقناع، لدفعهم إلى شراء ما يريدون من سلع.

ومن الطبيعى أن يقع الطفل بسهولة فى الشرك الإعلانى، يستجيب إلى دعوته إلى شراء الحلويات «اللذيذة الطعم»، دون إدراك إلى خطورة هذه الحلويات على أسنانه وأثرها المدمر فى اختلال توازن غدده، وانتظام دورته الدموية واحتمال إصابته بالسِّمنة والترهل!

بل إن بعض الإعلانات، تتحدى أبسط قواعد العلم والطب، وتنادى الآباء والأبناء بأكل الشكولاته «والجاتوه» وكل السكريات الموجودة فى السوق، ما دام الأب يستخدم فى بيته معجون الأسنان الساحر، من ماركة كذا أو كذا!

والنتيجة الحتمية لذلك كله، هى استخدام أمهر العقول العلمية، وأحدث ما أبدعته التكنولوجيا المعاصرة، من أجل «غرس» صور إعلانية فى عقول الأطفال، تشكل عقولهم ووجدانهم، وتدفعهم نحو حياة قوامها الاستهلاك الجنونى للسلع المعلن عنها، بغض النظر عن كونها مفيدة أو ضارة.

وكما تقول الدراسات المعاصرة، فإن التناقض بين المعلومات الصحية والعلمية التى يستمدها الإنسان من المدرسة، وبين ما تقوله وكالات الإعلان، يفسر فى الغالب لمصلحة الإعلان، نتيجة لجاذبيته وأسلوب زرعه واستقراره فى النفوس.

والأرقام الأمريكية تقف إلى جانب هذه الحقيقة المزعجة، فالمؤسسات الإعلانية تنفق كما قلنا حوالى ٤٠ ألف مليون دولار كل سنة، أى ضعف ما تنفقه الحكومة الأمريكيه على التعليم الابتدائى، فهل نندهش بعد ذلك إذا استطاع الإعلان تشكيل عقل الصغير والكبير، وبصورة تتغلب على ما تغرسه المدرسة فى العقول من حقائق تتعارض أحيانا مع (المعلومات) الإعلانية!!

خطورة التليفزيون

وتكمن خطورة هذا الجهاز فى أنه لا يقيم حواجز بينه وبين المشاهدين. . ؛ لأنه يذهب إلى المشاهد فى بيته. . وفى غرفة نومه أيضًا! . .

ثم إنه بهذا الانفتاح متاح لكل الأعمار. . وكل المستويات التى تتصل به أو يتصل هو بها فى سهولة ويسر. .

وهو أكثر سيطرة على الطفل الذى تستهويه الألوان. . وفنون الإخراج. . وجاذبية الأحاديث. .

ومن ثم. . فهو السلطة الضاغطة التى تكاد تستولى على إرادة الطفل. . وتشكيل حياته وفق ما يقدمه من برامج. .

فغريزة التقليد النشطة. . وخلو ذهنه من هموم الحياة. . تجعله أكثر فهما بما يرى ويسمع. .

وهنا تبدأ مسئولية القائمين على تثقيف الطفل عن طريق الإعلام.

الواقع المــــــر:

(إن لمراقبة الأطفال بالتليفزيون علامات خاصة تتميز بها عن بقية المراقبات فى التليفزيون، إذ إنها تقبل النصوص من المبتدئين أو الكتاب الذين لم ينجحوا فى التعامل مع المراقبات الأخرى وخاصة مراقبة التمثيليات. . وحتى بعد قبول تلك النصوص، فإنهم يتقاضون نصف الأجر لأنهم يكتبون للأطفال!!

كذلك وجدت أن المراقبة تتعامل مع مؤلفين للأغانى وملحنين لها، على مستويات تقل كثيرا جدا عن المستوى المطلوب بالنسبة لأغنية الطفل. .

فإذا ما نظرنا إلى الوجه الآخر من العملة. (كما يقول الممثل الإنجليزى) نجد أن إذاعات وتليفزيونات الدول المتقدمة فى أوربا وأمريكا واليابان تنتهج فى تقييمها لبرامج الأطفال، مسلكا مغايرا تماما. . يعكس المفاهيم الصحيحة لبرامج الأطفال لدى المسئولين عن تلك المؤسسات الإعلامية.

ويحضرنى بهذه المناسبة، حوار مثير دار بينى وبين الكاتب البريطانى العالمى

صمويل بيكيت.. كنا فى عام ١٩٧٢، وكان صمويل بيكيت يحتفل بعيد ميلاده التاسع والستين، وكان كاتب هذه السطور أحد المسئولين عن برامج الأطفال فى تليفزيون هيئة الإذاعة البريطانية وكنت الروائى المسرحى، وحاولت إقناعه بالكتابة للأطفال..

ولدهشتى الكبرى أجابنى قائلا: يا سيدى العزيز.. إننى لم أنضج بعد حتى أستطيع الكتابة للطفل!!

صمويل بيكيت، أشهر كتاب المسرحية فى العصر الحديث، وقد بلغ التاسعة والستين، يقول هذا الكلام ولكن سرعان ما زالت دهشتى عندما تذكرت بأن الكتابة للأطفال فى بريطانيا وغيرها من الدول المتقدمة، عملية شاقة للغاية، تحتاج إلى تخصص عميق فى دراسة نفسية الطفل ومنطقه، بالإضافة إلى كونها مسئولية كبرى، ينبغى مباشرتها فى عناية فائقة..

وبسبب المسئولية الكبرى، يعامل كل المشتغلين ببرامج الأطفال فى تلك الدول معاملة خاصة للغاية.. فأكبر الكتاب، هم الذى يؤلفون للطفل، وأكبر المخرجين هم الذين يخرجون برامج الطفل وأعظم الموسيقيين والملحنين هم الذين يلحنون ويعزفون أغانى الطفل.. وقس على هذا.. مهندس الديكور، ومهندس الإضاءة والممثلين والممثلات.

بل إن أحدث الاستوديوهات التليفزيونية، تجهيزا هى التى تخصص لإنتاج برامج الطفل.. كما أن تلك البرامج تظفر بنصيب الأسد من ميزانيات المؤسسات الإذاعية والتليفزيونية فى الدول المتقدمة.. وبالتالى يحصل المشتغلون ببرامج الطفل على أكبر أجر على التأليف والإخراج والتمثيل والتلحين... إلخ)[1].

من توجيهات الفقهاء:

(كان طاووس جالسا وعنده ابنه. فجاء رجل من المعتزلة فتكلم فى شىء. فأدخل طاووس أصبعيه فى أذنيه وقال:

يا بنى أدخل أصبعيك فى أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئا. فإن هذا القلب ضعيف.

---

(١) من مقال بجريدة الجمهورية.

ثم قال: أى بنى: اسدد.. فما زال يقول: اسدد.. حتى قام الآخر[1].

وهكذا يبلغ حرص الوالد على ولده.. فللكلمة سحرها وأثرها.. وهو الأمر الذى نتهاون فيه.. لكنه على المدى الطويل يترك بصماته فى نفسية الولد.. بحيث يصعب التفلت من آثاره وأخطاره.. ولورحنا نتتبع الشواهد على أثر وسائل الإعلام.. لطال بنا الحديث.. وطال بنا الندم أيضا على الجهد الضائع والمال المبذول.. وعلى الغفلة التى بلغت بنا حد الإهمال.. وعدم استغلال هذه الوسائل فى صوغ أبنائنا على النحو الذى يرضاه ربنا.. بل العجب كل العجب أن تستغل لتمضى بالناشئة فى اتجاه معاكس لأهداف التربية.. فلا يجنى الأطفال فيها إلا الشوك..

تقول سيدة فاضلة:

رأيت ابنى التلميذ بالإعدادى يدون ملاحظات فى كراس أثناء مشاهدته لمباراة كرة قدم فى التليفزيون، ولما أخذت منه الكراس وجدت مدونا عليه «من الذى أحرز الهدف» وعلمت منه أنه خصص هذا الكراس ليدون فيه أهداف المباريات وأسماء محرزيها حتى يستطيع فى رمضان المقبل أن يفوز بإحدى جوائز فوازير رمضان.

تأسفت جدا من هذه المفاجأة وعلمت أننا بهذا النوع من الفوازير قد فرضنا على أولادنا منهجا مغريا لمضيعة الوقت ولشغل أذهانهم بما لا ينفع، فقد أصبح على مشاهدى مباريات كرة القدم أن يعملوا جاهدين على حفظ تواريخ الأهداف وأسماء محرزيها، بعد أن أصبح ذلك سبيلا للحصول على عدة جوائز بلغت قيمتها بضعة آلاف من الجنيهات.

على أن مغزى هذه الفوازير يدل على أن المسئولين عن الإعلام فى مبادين الرياضة المصرية، ما زالوا يهتمون بالقشور دون اللب، فما كان أجدر بهم أن يطرحوا المسابقة عن أسماء الرياضيين المصريين الذين حققوا لمصر نصرا دوليا فريدا أو ضربوا مثلا لروح المثابرة ولتحمل المسئولية بشجاعة، هى التى يجب أن يتحلى بها الرجل الرياضى.

---

(١) تلبيس إبليس ١٢.

هناك فى تاريخنا الرياضى الرباع الذى صفقت له ألمانيا بأجمعها عام ٣٦، بل والعالم كله: ألبسه هتلر طاقة من الورد فى عنقه قائلا له: «أيها البطل تمنيْتُ لو كنت ألمانيا».

وهناك الملاكم الذى فاز ببطولة العالم العسكرية فى ثلاث دورات متتالية وانتصر فى آخر مبارياته التى لعبها، وهو يتحامل على نفسه؛ لأنه كان مصابا بشرخ فى عظمة يده اليمنى، أخفاه حتى عن ممرن الفريق ومراقبه.

وهناك كابتن كرة القدم، الذى حضر إحدى مباريات هامة ليقود فريقه على الرغم من أن والده قد توفى فى صبيحة اليوم نفسه، مما حدا بحكم المباراة أن يطلب إلى اللاعبين والمتفرجين أن يقفوا حدادا على الفقيد، بل تقديرا لشجاعة رئيس الفريق الذى قدس واجبه وارتفع به فوق الأحزان وفوق الأشجان. «الأخبار ٨/ ٢/ ٨٠».

وفى حياة البطل المسلم «محمد على كلاى» تبصرة وذكرى.. فطالما تحدث عن منهجه فى حياته.. وعن استمساكه بالخلق القويم سبيلا إلى التفوق العظيم.. وإلى أى حد كل يتوكل على ربه عند منازلة خصمه. فيمنحه العون والتأييد.. مما يفرض علينا تركيز أبصار أولادنا على نواحى القوة فى حياة مثل هذا البطل.. اغراءً ودفعا إلى التخلق بمثل خلقه وصولا إلى بعض ما وصل إليه.. بدل أن نشغل أذهان أولادنا بلون ملابسه.. واسم زوجته.. أو والدته.. وما هو الطعام المفضل عنده.. ما لا يمت بصلة إلى جوهر شخصيته.. ويعتبر صرفاً للشباب عن مواطن الأسوة فى حياة شاب. اختاره القدر الأعلى ليعلن إسلامه.. بل ويتمسك به فى بلاد لها مواقف من المد الإسلامى.

فكان «محمد على» ردا إلهيا ساخرا على محاولات الأعداء وقف مسار الدين فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.. وهزهم من أعماقهم.. وجاءهم بالقذيفة من منطقة الأمان!

إن إبراز الجوانب الجادة فى حياة الرجال.. تجذب انتباه الأطفال المدفوعين بغريزة التقليد وهى قوية الدفع لديهم.. فلنقدم لهم النماذج الطيبة التى ينسجون على منوالها.. ويسيرون على دربها..

ولكننا نخطئ مرتين:

نخطىء أولا حين نتجاهل هذه النواحى الإيجابية..

ونخطئ ثانيا عندما نركز على البديل وهو شروبيل على شخصية الطفل عندنا.. فنعلن مثلا بالخط العريض عن ذلك الممثل الأوربى.. البطل الأسطورة.. وإلى جانبه صورة الممثل العربى «رجب.. على صفيح ساخن!!

وقد تحدث الكاتب الأستاذ إبراهيم الوردانى فى جريدة الجمهورية فعاتب «التليفزيون» الذى لم ينشط فى دعوته الدينية إلى الحد الذى يواكب اندفاع الحياة.. والذى لم تعد برامجه الدينية حديثا إلى الروح والقلب.. بل إنها تبدو فاترة لا تنشئ حماسا للحق.. وتطلعا إليه.

يقول الكاتب:

بصراحة - البرامج الدينية فى التليفزيون، فاترة ومتكلفة وغير جاذبة!.. أو خذها منى بطريقة صواريخ، فهى تتثاءب وعليها ينام المستمعون والمتفرجون.

ربما فقط بعض نور على نور - ربما أيضا بعض - عصريات الشيخ الشعراوى - .. وإذا سألتنى المقترحات فقل ما أكثرها إذا تفتحت العقول والنفوس - فالدعوة الدينية ليست كلها آخرة وموت، بل هى حياة يجب أن نحياها أولا والدين لنا فيها منحة مرشد حنون!.. وباشدة الاستفحال من مشاكل هذا العصر وتعقيدات هذا العصر وارتجاجات هذا العصر - ولسوف تكشف حضارته المفتونة بل فلسفتها النزوية ذات يوم قريب بل قريب جدا - بأن لا نجدة ولا إنقاذ، ولا غوث ولا لجوء إلا بالدين!

ولست تدرى والتليفزيون الآن هو جامع مصر الأول، كيف لم يقتنص لنفسه فرصة هذا الحضور الجماهيرى الحاشد ليغرى ويجذب ويخصب ويؤصل، بل هو أحيانا يخشوشن ويجافى وينفر، وخذ الملاحظة مثلا - لا تؤاخذنى سيدى - حينما تقطع المباريات الكروية وينقشع الكابتن لطيف، ويختفى الولد زيزو وقدمه على البلنتى - لتحتل الشاشة ثلاث دقائق أذان الصلاة!.. هل بظنك أن الجمهور الأغلبية فى البيت أو الملاعب - ودعونا لا نتوارى - ينهض فورا ليشكر ويحمد، أم يسقط رأسه على صدره وهو يلتوى ويستغفر.

ثم - مثلا مثلا - لماذا لا يستمر القطع إذن حتى تنتهى المدة الطبيعية للصلاة؟!

أو خذ النظرة مثلا على هذا البرنامج الدينى الجديد قبل نشرة المساء واسمه حديث الروح - والتجديد له مثلا أن المتحدث - وزير - فهل شاهدت هذا المنظر الجم الهيبة لعزيزنا وزير العدل - أبو سحلى - وأرجوه أرجوه ألا يزعل منى - وهو يأخذ تربع المنصة طيلة سبعة أيام الأسبوع - وحديث الروح بينه وبين جماهير الشاشة الصغيرة، «أن ينكفئ» برأسه أمامهم يقرأ من ورقة معدة ومكتوبة!.. هل هذا مقنع أو يدخل القلب؟!].

ومعنى ذلك أننا نقدم للأعداء خدمة من حيث لا نشعر ولا يشعرون! وينعكس ذلك على أولادنا تمزقا وقلقا.. حين يتلقون فى المنزل أو المدرسة مبادئ الدين.. وصور البطولة.. وجلال الذكرى.. لكن أجهزة الإعلام تواجههم بعكس ما يعرفون.. فلا تؤدى عمليه التربية إلى النتائج المرضية..

ومعنى ذلك أيضاً أن الأجانب أذكى منا عقولا:

فما يراه الطفل فى المدرسة.. هو ما يراه فى البيت وفى الشارع.. كل صور الحياة على لوحه الحساس صدى للمنهج المتحكم فى أقدار مجتمعه.. كالشيوعية مثلا.. أما نحن فقد أردنا لأطفالنا أن يعيشوا ذلك التمزق بين مبادئ الدين القويمة ومناهج الإعلام التى لا تعبر عنه فى كثير من موادها.. ولا تعكس روحه.. فكان ما كان!

فإذا أضفنا إلى ذلك أن إعلام الأجانب موجه ضد الإسلام بدت حاجتنا ماسة إلى مزيد من اليقظة والحذر..

إن أعداءنا يستغلون الإعلام للترويج لمذاهبهم من ناحية.. ومن ناحية أخرى اضرب الإسلام وأهله..

ولا يضرب العدو ضربته كيفما كانت.. ولكنها محسوبة ومقدرة.. وقائمة على أصولها من معرفة أحوال النفس الإنسانية ودوافعها.. ضمن خطة ذكية لتشويه الإسلام:

يقول الأستاذ عبد الحميد الكاتب فى أخبار اليوم:

وهناك إرهاب آخر..

فإن أجهزة الإعلام الدولية التى تغذى صحف العالم وإذاعاته شرقا وغربا

وشمالا وجنوبا تقوم هى أيضا بعملية إرهاب. . إرهاب فكرى خطير!

إن برقيات هذه الوكالات الدولية تتركز فى هذه الأيام حول مكة وطهران وإسلام أباد. . وكلها تشترك فى نغمة واحدة. . فكلما قرأت كلمة «الإسلام» و «المسلمين» قرأت معها كلم «الإرهاب» و «الإرهابيين».

لقد جعلت وكالات الأنباء الدولية كلمة الإرهاب مرادفة لكلمة الإسلام، وجعلت كلمة الإرهابيين مقابلة لكلمة المسلمين.

والطريقة المعروفة لتثبت أية دعوى أو أكذوبة في عقول الناس هو تكرارها كل يوم مائة مرة وألف مرة، وتكرارها بكل أسلوب وكل تعبير، وقد لا يصدق الناس هذه الأكذوبة أول الأمر، ولكن التكرار مثل طرق المسمار طرقا خفيفا، حتى ينفذ إلى النهاية ويستقر فيها وهذا ما تفعله الآن وسائل الإعلام الدولية وهى تغطى الأحداث التى يعيشها العالم فى هذه الأيام. . ولو قرأت الأخبار التى تقدمها هذه الأجهزة الدولية فى نصوصها الأصلية قبل أن تعمل على «تهذيبها». . لتبينت بوضوع أن هناك عملية دولية محكمة تهدف إلى ملء عقول الناس ومشاعرهم بفكرة واحدة هى أن الإسلام يدعو إلى العنف والإرهاب، وأن المسلمين عصابات من الإرهابيين.

من المسئول عن هذا الاتجاه الخطير؟

إن المسئولية تبدأ أولاً بما يجرى فى طهران، وما يحدث فى مكة، وما يجرى فى إسلام أباد وغيرها من العواصم والمراكز الإسلامية، فقد أعطت هذه الأحداث لأجهزة الإعلام الدولية المادة اللازمة، والفرص السانحة للقيام بحملة تشويه وتجريح للإسلام، وحملة إساءة واستفزاز للمسلمين.

فليس ما يجرى فى طهران من احتجاز الرهائن الأمريكية، ولا ما يجرى فى باكستان أو تركيا أو بنجلاديش من اعتداء على السفارات والمكاتب الأمريكية والبريطانية، يرجع إلى أن البلاد التى وقعت فيها هذه الأعمال تدين بدين الإسلام. . ولا لأن الذين يقومون بهذه الأعمال يفهمون فهما صحيحا ما هو دين الإسلام. . فإن علماء الدين جميعا يقولون أن الدين يستنكر العنف ويحرم الإرهاب. . وكل مسلم عادى، وكل مسلمة عادية، يشعران بالاستياء والنفور من القيام بأى عمل إرهابى تحت ستار الإسلام.

ولكن أجهزة الإعلام الدولية التى لا يوجد بها مسلم واحد تتطوع بتفسير الإسلام كما تشاء، وتصف المسلمين جميعا كما تشاء.. وتوحى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أن الإرهاب الذى يحدث يتمشى مع مسيرة الإسلام فى مراحل تاريخه، وإن الإرهابيين يقترفون هذه الأعمال لأنهم مسلمين!!

فلنفترض أن هناك شعورا دينيا وراء هذه الأعمال، فهل هناك من شك فى أن الإرهاب الذى يقوم به جيش التحرير الأيرلندى مثلا يرجع أولا وأخيرا إلى هذا الشعور الدينى الذى يدفع الأكثرية الكاثوليكية المحكومة إلى التمرد والثورة على الأغلبية البروتستنتينية الحاكمة؟

إن هذا هو حقيقة الصراع الدامى الذى يجرى فى أيرلندا منذ سنين طويلة.. صراع مصدره هذا الشعور الدينى العميق.. ولكننا لم نقرأ ولم نسمع مرة واحدة أن وصفت وسائل الإعلام عملية من العمليات التى يقوم بها جيش إيرلندا بأن هذا إرهاب كاثوليكى!

وهذا الإرهاب الإيرلندى لا يقل إثارة للمشاعر عما يسمونه الإرهاب الإسلامى الذى لم يقم بعملية مروعة مثيرة مثل عملية اغتيال لورد منتباتن منذ شهور.. ولكننا لم نسمع ولم نقرأ فى كل ما قيل عن هذا الحادث أنه إرهاب كاثوليكى.. بينما نسمع كلمة الإرهاب الإسلامى، وكلمة المسلمين الإرهابيين، لو أطلقت رصاصة واحدة ولم تصب أحداً!

ومنذ بضعة شهور صدم العالم كله وذهل عندما سمع أن مئات من الصبية انتحروا انتحاراً جماعيًا.. وأن قائدهم المضلل الذى سيطر على عقولهم ومشاعرهم كان أيضا يتستر وراء الدين.. فكان عملا إرهابيا فظيعا ضد أمر هؤلاء الأولاد والبنات، وضد المجتمع الأمريكى والمجتمع الإنسانى كله.. ولكن لم نقرأ ولم نسمع أن أجهزة الأعلام الدولية وصفت هذا الإرهاب الذى قاده «الأب جونز» الذى ظهر بمظهر قسيس مسيحى، أن هذا «إرهاب مسيحى»!

وقديما عندما كانت عصابات يهودية تقترف الإرهاب فى فلسطين.. وتنسف البيوت والفنادق، وتشنق القضاة والضباط الإنجليز وتعلق جثثهم على الأشجار.. لم نسمع من أجهزة الإعلام الدولية أن هذا إرهاب باسم الدين اليهودى.. ولكنه إرهاب باسم حركة سياسية تسعى إلى أهدافها بكل وسيلة ممكنة، من السياسة إلى

الدعاية إلى الحرب إلى الإرهاب.

ما علاقة الدين، إسلاماً أو مسيحية أو يهودية، بأعمال العنف والقتل والإرهاب؟ إنها كلمة حق صريحة يجب أن نقولها لأجهزة الإعلام الدولية التى تغذى الناس فى كل مكان فى العالم بالأخبار التى يقرءونها فى الصحف ويسمعونها فى الإذاعات..

إننا نطالبها بأن تسمى الأشياء بأسمائها.. فإذا وقع الإرهاب فى إيران أوفى باكستان أوفى فلسطين فسموه إرهابا إيرانيا أو باكستانيا أو فلسطينيا.. ولا تنسبوا الإرهاب إلى دين الإسلام.. ولا تستغلوا ما يجرى الآن لتشبعوا شهوة التعصب الحاقد الأعمى، ولتشوهوا صورة المسلمين تحقيقاً لأهداف وأغراض أخرى.. لا علاقة لها بأى دين من الأديان.

ولقد نجح الإعلام المعادى فى تنحية القدوة الحسنة فبدأ الطفل يبحث عن مثله الأعلى فى أبطال الروايات الذين يفرضون عليه أموراً تضره.

وترتب على ذلك كما يقرر الخبراء.

أ ـ ضعف الرغبة فى القراءة الجادة بعد أن قدم التلفاز مواده فى يسر وبلا تعب.

ب ـ معروف أن للطفل غرائز تتطلب الإشباع منها:

غريزة الجنس .

غريزة التملك .

غريزة حب الاستطلاع.

والإعلام يثيرها.. ثم لا يشبعها.. وبذلك نترك الحدث فى حيرة من أمره.. ولا يجد أمامه إلا التلفاز الذى يزيده حيرة وقلقا.

جـ ـ ينعكس هذا القلق على صحته العامة فيحدث:

أ ـ فتور الرغبة فى العمل.

ب ـ ضعف النتاج.

جـ ـ رداءة النتاج.

د ـ تجدد حاجة الأمة إلى غيرها من الأمم وما يترتب على ذلك من تبعية.

الهدف البعيد:

وهكذا يركز الإعلام المعادى على الجيل الجديد.. بدءاً بالطفولة وانتهاءً بالشباب.. ذلك بأن الشباب هو المستقبل. فإذا استطاعوا أن يحتووه.. فقد نجحوا فى امتلاك المستقبل..

إن مرحلة الشباب هى مرحلة: التساؤل.. والاستهواء.. والجنس.. والإحساس بالذات.. والميل إلى الرفاق.. والتأثر بهم.. فى الأفكار والعادات.. مما يثير الخلافات.. وينتهى بتكوين العصابات.. والسطو المسلح..

إلى جانب تزيين النماذج السطحية ليتخذها الشباب قدوة.. مثل نجوم الكرة.. ونجوم الفن الهابط.

وهكذا يتنسر البغاث فى أرضنا.. بعد ما غفا الأسد.

وإذا كانوا فى السياسة يقولون:

فرق.. تسد فإنهم فى الاجتماع يقولون:

خرب.. تقد!

ومعنى ذلك أن الإعلام المعادى وفى طليعته الإعلام اليهودى - يتوخى هدم المعبد على من فيه كما يقولون.. ومعنى ذلك: الانتكاسة الخطيرة.. التى بها تنتهى الحضارة.. حين يحس الجيل الجديد بالغربة وهم بين أهليهم.. وفى أوطانهم. يقول بعض الباحثين:

(فقدان التوازن بين العقل العلمى. والقيم الدينية. سيدمر الحضارة: فحيوان «الديناصور» الذى انقرض من آلاف السنين درس لنا:

لقد كان عملاقا هائلا، ورقبته الطويلة كانت قادرة على التقاط الثمر من أعلى الشجر.

ولما تغيرت الأرض، والبيئة، ولم يستطع المواءمة بين حجمه الكبير.. ومخه الصغير.. انقرض.. وهكذا الحضارة).

وتلك غاية المكر المبيت لأطفالنا.. حتى لا يحسنوا التعامل مع المستقبل:

فأطفالنا يتعلمون فى المدارس غض البصر.. ولكن الإعلام يتحداهم بما

يقدمه من وجبات مسمومة يفقدون بها التوازن بين ما يتعلمون، وما يشاهدون. .

فإذا كبروا. . وأردنا تكريمهم. . ربما بعثناهم إلى دولة أجنبية ملحدة. . والتى تتكفل بغسل مخهم. . بما يرصدون من صور تستهويهم. .

وقد حدث فى الكونغو أن تم تسفير مجموعة من الأطفال إلى بلد أوروبى. . وعرض عليهم الاشتراك فى مسابقة. . كانت جائزة الفائز فيها سياحة ترفيهية على شاطئ حافل بالعرايا! إلى جانب مكر الليل والنهار. . حتى يعودوا بأفكار جديدة تصطدم مع حقائق الدين. . فإذا هم «كالديناصور» من الهالكين!

وبعد:

فإذا صمد المسلمون الأولون لحروب التمويه والخداع من قبل اليهود. . فقد غفلت الأجيال من بعدهم عن آثارها. .

فى الوقت الذى صحا فيه الأجانب فخدعوا شعوبا بأكملها لتشترى ما لا تحتاجه. . من الكماليات. . بينما خطط التنمية فى بلادها تندب حظها إذا كانت هناك خطط للتنمية.

وقد أصبح هذا التمويه علما يدرس. . ووقفت من ورائه عقول تفكر. . تمولها رءوس أموال هائلة فى تعاون وتكامل على ابتزاز أموال الدول النامية. . حتى تظل أبدا نامية. . ولا تبلغ يوماً سن الرشد!!

وما زال الأمل باقيا

ولا يزال الأمل فى التصدى للإعلام اليهودى باقيا. .

وهذه واحدة من القصائد العصماء التى بسببها أخرج اليهود من غرناطة. . نسجلها هنا ليظل أملنا باقيا فى قلب مؤمن تخرج الكلمات منه قذائف موجهة. . ينصر الله بها الحق. . اليوم. . كما نصره بالأمس. . وليخرج اليهود من القدس كما خرجوا من غرناطة.

نشرت مجلة التضامن الإسلامى:

من عيون الشعر الإسلامى:

القصيدة التى أخرجت اليهود من غرناطة!

** أبو - إسحق الألبيرى الأندلسى، واسمه إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبى، فقيه زاهد، عالم شاعر، عاش فى غرناطة فى القرن الخامس الهجرى، وأكثر شعره فى الزهد والمواعظ ومحاسبة النفس والدعوة إلى الاستقامة على منهج التقوى، وقد كانت له قصيدة أحدثت أثرا هائلا لا نظير له فى عصره، حين اعترض على تولية اليهودى الشهير بابن «نغلة» منصب الوزارة فى غرناطة فى عهد ابن باديس، فأطلقها أبو إسحق كلمة حق كان لها أثرها فى إقصاء اليهود العابثين المستغلين من تلك المدينة الإسلامية الزاهرة.

** وفى تلك القصيدة تسجيل لمفاسد اليهود فى الأندلس!

ألا قل لصنهاجة أجمعين	بُدور الندى وأسْد العرين
لقد زلَّ سيدكم زلَّة	تقربها أعين الشامتين!
تخير كاتبه كافرا	ولو شاء كان من المسلمين!
فعز اليهود به وانتخوا	وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى	فحان الهلاك وما يشعرون!
فكم مسلم فاضل قانت	لأرذل قرد من المشركين!
وما كان ذلك من سعيهم	ولكن منا يقوم المعين!
فهلا اقتدى فيهم بالألى	من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون	وردهم أسفل السافلين!
وطافوا لدينا بأخراجهم	عليهم صغار وذل وهون؟!
ولم يستخفوا بأعلامنا	ولم يستطيلوا على الصالحين!
أباد ديس أنت امرؤ حاذق	تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم	وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف يتم لك المرتقى	إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟!
وكيف استنمت إلى فاسق	وقارنته وهو بئس القرين؟!
وقد أنزل الله فى وحيه	يحذر من صحبة الفاسقين!
فلا تتخذ منهم خادما	وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم	وكادت تميد بنا أجمعين!
تأمل بعينيك أقطارها	تجدهم كلابا بها خاسئين!
فكيف انفردت بتقريبهم	وهم فى البلاد من المبعدين؟!

وإنى احتللت بغرناطـــــــــة فكنت أراهـــــــم بها عابثين
وقد قسموها وأعمـــــالها فمنهم بكـــــل مكان لعين!
وهم يقبضون جبـــــاياتها وهم يخضمون وهم يقضمون!
وهم أمناكم على سركـــــم وكيف يكون خـــؤون أمين!
ويأكل عيرهـــــم درهما فيُقْصى ويُدْنَونَ إذ يأكلـــون!
وقد ناهضوكم إلى ربكـــم فما تمنعون ولا تنكـــرون؟!
وقد لابسوكم بأسحارهـــم فما تسمعون ولا تبصـــرون
ورَخَّم قردهـــــم داره وأجرى إليها نمَير العيـــون
فصارت حوائجـــنا عنده ونحن على أبوابه قائمـــون
ويضحـــك منا ومن ديننا فإنا إلى ربنا راجعـــون!
وقد نكثـــوا عهدنا عندهم فكيف نـــلام على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمـــة ونحن خمول وهم ظاهرون؟!
ونحن الأذلة من بينهـــم كأنا أسأنا وهم المحسنـــون!
فلا ترض فينا بأفعالهـــم فأنت رهين بما يفعلـــون!
وراقب إلهك فى حـــزبه فحـــزب الإله هم الغالبون!

المعركة بين الحق والباطل: دائمة. وشاملة.

أما أنها دائمة: فهو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]
ويعنى ذلك أن المعركة بينهما مستمرة:

ذلك بأن الباطل يحس بأنه إلى جانب الحق.. صفر على الشمال.. فلا وجود له.. ومن ثم يحاول إقصاء الحق بالقوة أو بالحيلة.. لينفرد بالساحة وحده..

وإذا كانت «إن» فى الآية الكريمة تلقى ظلالا من الشك على قدرة الأعداء على هزيمتنا.. فلا ينفى ذلك استمرار المحاولة.. لعل.. وعسى..

وهكذا يكون الصدام بين الحق والباطل.. لا مفر منه:

فالحق يأخذ سبيله إلى الأسماع.. ثم إلى مكان الإقناع فى العقول وفى

القلوب. . بينما الباطل يحاول أن يمنعه من الوصل إلى مدارك الإنسان. . ومن ثم فلابد من المواجهة الدائمة. .

شمول المعركة:

أما أن المعركة شاملة:

فإن العقيدة الإسلامية تعمل فى مجالات ثلاثة:

أ - عالم الفكر. وهو: اعتقاد صحيح، ومعرفة سليمة.

ب - وعالم الوجدان. . بإنشاء المزاج المعتدل، والتوازن الانفعالى، الذى يحفظ المسلم من الانهيار عند المنعطفات الخطيرة.

جـ - ثم فى عالم التدبير: وذلك عن طريق:

العدل المطرد.

والنظام الثابت.

وأعداء الإسلام يحاربون الإسلام على كل هذه الجبهات:

فى عالم الفكر: يحاربون الاعتقاد الصحيح بالشبهات: بالإلحاد. ورفض الإيمان بالله.

واليوم الآخر. . ويحاربون المعرفة الصحيحة بالبدع والخرافات. .

وفى عالم الوجدان: يحاولون دغدغة هذا الوجدان بالشهوات. . كما حاولوا تضليل العقل بالشبهات.

أما فى عالم المعاش:

فإنهم يحاربون العدل، بالظلم والاستغلال. ويحاربون النظام بالفوضى. وخلخلة الصف الاجتماعى، لتضطرب علاقات الناس. . ومن ثم يتهيأ الجو المظلم الذى يعيش فيه المفسدون. ولا يطيقون العيش فى جو نظيف.

وهكذا يتصدون للمسلمين فى كل مكان. . وبكل ما فى الإمكان!

ولكن قوانين الكون، وسنن الله تعالى فى الاجتماع ترفض سيطرة هذه النزعات المدمرة. . والبقاء للأصلح دائما.

أسلحة المكر السيئ

أسلحة المكر السيئ

وإذ يحاربنا الماديون على امتداد الزمان.. واتساع المكان.. فإنهم يجندون للمعركة كل ما يملكون من أسلحة.. فى محاولات مكرورة للوصول إلى أعماق الإنسان والتحكم فيه من داخله.. وتدور المعركة على محورين:

أ ـ الاستهواء. ب ـ والتخويف..

الاستهواء الذى يحاول احتواءك.. ليميت فيك ملكة النقد وحرية اختيار ما يعرض عليك.. وقد ينتهى الأمر إلى تناول الطعام المسموم.. الذى يعرضه عليك عدوك.. بعد أن أحبط فيك القدرة على الطبخ والإعداد!

وقد وصل الأمر إلى إنشاء الرغبة لدى الدول الفقيرة والتى زينوا لها أن تتنافس فى شراء دهان الشعر.. بينما هى فى حاجة إلى لقمة الخبز!..

أما التخويف فيراد به: بث الرهبة فى القلوب.. لترى العدو أكبر من حجمه.. وليصور لها الوهم أنها فى خطر.. ومن ثم يجب عليها أن تستعد له.. لشراء أسلحة فتاكة.. بينما هى فى حاجة إلى حبة القمح.. وحبة الدواء معا!

الماديون يمرحون على الساحة الخالية

وقد نزل الإعلام المادى بأرض المعركة مدججا بأسلحة فتاكة تعينه على تحقيق مآربه.. واحتلال أنفسنا قبل احتلال أرضنا..

وتتلخص هذه الأسلحة فيما يلى:

أ ـ سلاح الاستهواء.. وتزيين المنكر..

ب ـ سلاح الشائعة..

جـ ـ سلاح الخوف..

د ـ سلاح التفرقة..

هـ سلاح التشويش على القيادات المؤمنة.

الاستهواء

الاستهواء

كان لإبليس وجنوده من الجن والإنس محاولات لاستهواء الإنسان. إرادة احتوائه.. وذلك عن طريق تملق غرائزه.. ودغدغة وجدانه بالقول المعسول.. والصورة الموحية، وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون﴾[1].

ولقد استغل الشيطان حب آدم عليه السلام للخلود. والتملك.. فتملق فيه هاتين الغريزتين.

وذلك قوله تعالى: **﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾** [طه: ١٢٠].

وفرعون وهو واحد من جند إبليس.. يضرب أيضا على هذا الوتر الحساس حين استعدى قومه على موسى عليه السلام فهز فيهم غريزة حب الوطن. لتقف إلى جانب فرعون ضد موسى عليه السلام.

يقول سبحانه:

﴿ قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء، ٣٤، ٣٥].

عندما يتحول الإعلام إلى إعلان

كما يقول المجربون:

هناك الإعلان المحايد.. الذى يعلمك بكل براءة.. بوجود سلعة ما.. وهناك الإعلان المغرى الذى ينشئ فيك الشعور بشراء السلعة المعلن عنها.. وهناك الإعلان المتحدى.. والذى يحملك حملا على شراء ما يريد هو لك.. لا ما تريده أنت لنفسك!

---

(١) الأنعام: ٣٤، ٣٥.

وكل هذه المستويات يجمعها قاسم مشترك هو:

(أنها تحاول التسلل إليك من خلال نقطة ضعفك. وأن تخضع ذهنك لما تريد والحصول على اقتناعك بضرورة اقتناء سلعة ما.. مع أنك لست محتاجا إليها).

بيت القصيد:

وإذا كان هذا هدف الإعلان بعامة.. فإنه إذ يوجه إلى الدول الفقيرة.. أو الدول المسلمة بالذات.. فإن له هدفا بعيدا هو محاولة تجريد هذه الأمة من مقوماتها لتظل تابعا أمينا.. لقد تعلمنا فى حياتنا.. وعلى يد الخبراء منا:

أن للإعلام هدفا:

أ - يقدم إليك الحقائق.. يعرضها.. ولا يفرضها.

ب - ينمى فينا ملكة النقد.

جـ فيتكون رأى عام يقظ.

أما الدعاية فهى:

أ - تفرض عليك الفكرة.. بلا مبرر كاف.

ب - تشل فيك ملكة النقد والاختيار بما تقدمه من بهرجة خداعة.

جـ - تعتمد على التمويه.. والتلويح:

بالجائزة..

بالتخويف..

أو باصطناع عالم مسحور.. لا وجود له فى الواقع.

يقول أحد الباحثين:

(الذين يدرسون أثر «التليفزيون» - الرائى - على حياة الأسرة يجدون أنه: قد أشاع الصمت بين أفرادها:

فالناس أمامه يأكلون ويشربون. وينامون ولا يتكلمون إلا همسا أو بالإشارة.

واستخدام الناس للإشارة.. نكسة:

فقد أعادهم التليفزيون إلى عصر ما قبل اختراع الإنسان للغة:

فحين لم تكن لغة. كان الإنسان الأول يستخدم أصابعه وملامحه، أى أنه: يشير.. ولا يتكلم.

وعندما عجزت الإشارة عن التعبير عن رغباته.. ظهرت الكلمات. وتطورت إلى لغة. وأبدع الإنسان فى لغته.

ولكن إذا عاد الإنسان إلى الإشارة.. نام العقل، واستسلم المشاهد إلى حياة مستعارة:

فالتليفزيون قد سرقه من الواقع، وقام بتهريبه إلى عالم مزيف، إلى عالم تليفزيونى، إلى واقع إعلامى..

وهكذا: ينفلق الإنسان، وينشطر على نفسه:

عالم على الشاشة..

وعالم أمام الشاشة.

عالم الصندوق الملون. الذى وسع الدنيا كلها.

وعالم الواقع المضطرب، المشوش، الذى يتقلب فيه الإنسان.

وليس أمامك إلا أن تنقذ نفسك بنفسك، من هذا الاستعباد الأنيق.

وعلى الدولة أن تساعدك، فى خلاصك اليومى من أجمل وأقسى سجن.. اخترعه الإنسان لأخيه الإنسان)!

ووقع المحظور:

ولكن المحظور قد وقع.. وبقى الإنسان محاصرا فى هذا السجن الكبير.. والخطورة أنه لا يحس بأنه فى سجن..

لأن ما هو فيه ليس له قضبان.. ولا سجان!

وإنما هو التدبير الماكر.. والحيلة الخبيثة.. التى تحتويك.. وقد تظن أنك السجان!

بينما أنت السجين!

فى مجال التجارة:

كان مجال التجارة أوسع مجال.. ظهر فيه لطف المكر بأبناء العالم الثالث.. وأى مكر أخبث.. وأى منكر أشنع من دعاية كاذبة خاطئة تزين لسكان الأكواخ المشوقين إلى لقمة الخبز وحبة الدواء ليشتروا «دهان جونسون للأرضيات» وسنترك التعليق والتحقيق لشاهد من بنى إسرائيل على أهله.

الإمبريالية الإعلانية

صدر فى لندن فى أواخر يناير ١٩٧٩ كتاب بعنوان: «الإهانة أو الأذى». نشرته مؤسسة المحاسبة الاجتماعية التى أنشأها بلندن «الاتحاد الدولى لنقابات المستهلكين» بالتعاون مع «صندوق التنمية العالمية» التابع للكنيسة المنهجية (الميثوديست) ومنظمة «الحرب على الحاجة» البريطانية. وقد أعد هذه الدراسة الباحث شارلزميداوار.

وتتهم الدراسة الشركات البريطانية والعالمية باتباع مقاييس مزدوجة فى تنشيط وبيع منتجاتها فى بلدان العالم الثالث. خلافا للمقاييس التى تلتزم بها فى بلدان الغرب. ومن الأمثلة الصارخة التى ضربتها هذه الدراسة أن الدعاية المضللة تجعل سكان الأكواخ ذات الأرضيات الخشبية القذرة يشترون «دهان جونسون للأرضيات»!

ودهان الجلد يباع للأفارقة على أنه «الدهان الأبيض السحرى»! وخلاصة «براند» للفراخ، التى تنتجها شركة رانك هوفيس ماكدونال وتسوقها فى ماليزيا، تكون أغلى بنسبة عشرين ضعف بالنسبة للبروتين المتوفر فى بيض الدجاج المحلى.. والكورن فيك أو «ويثابيكس» الذى يباع فى كينيا يكون مائة مرة أغلى من القيمة الغذائية المماثلة فى الأغذية المتوفرة محليا! و «بورن فيتا» الذى تنتجه شركة كادبورى وتبيعه فى الأسواق البريطانية على أنه «شراب الليل الطيب» يباع هو ذاته لمستهلكى العالم الثالث على أنه «شراب الطاقة والحيوية والصحة والقوة»!

و «ماء الشعير» الذى تنتجه شركة ربكيت آند كولمان قد أدى إلى سوء تغذية بالغ وإلى وفاة الأطفال فى بنغلاديش.. والأدوية التى تحتوى على مادة «فينا ستين» لاتباع للمستهلك البريطانى إلا بوصفة طبيب، منذ خمس سنوات، وتفكر اللجنة البريطانية للأمن العلاجى حاليا أن تفرض الحظر الكلى على فيناستين لأنه يمكن أن يؤدى إلى أضرار خطيرة بالكلى، ولكن شركة «بوتس» الطبية البريطانية تبيع هذه الأدوية المحتوية على فيناستين، بكل حرية، فى العالم الثالث، وإن كانت قد بدأت مؤخرا فى وضع تحذير على علب الأدوية.

وتلاحظ الدراسة: «أن هناك دعاية واسعة النطاق للأغذية والأدوية البريطانية

لمستهلكي العالم الثالث الذين هم ليسوا فى حاجة إليها ولا هم قادرون على تحمل أثمانها ولا على الاستفادة منها».

ومن المفارقات التى تشير إليها هذه الدراسة أن الفرع الهندى لشركة بيتشام البريطانية تبيع دهان الشعر «برايلكريم» المغذى بالبروتينات، بينما سكان هذه المنطقة يعانون من نقص شديد فى الأغذية المحتوية على البروتينات، وتتهم الدراسة الأطباء وشركات الأدوية، على حد سواء لسوء استخدام المضادات الحيوية التى لا يكون المرضى فى حاجه إليها بصفة عامة كما أنهم لا يقدرون على تحمل النفقات لاستكمال الدورة اللازمة للمضادات الحيوية والتى بدونها تفقد هذه المضادات فائدتها بل ويؤدى الأمر إلى اكتساب الجراثيم والفيروسات مناعة ضد نوع المضاد الحيوى المستخدم، ومن الممارسات الخاطئة التى ترتكبها هذه الشركات أنها لا تطبع النشرات المرفقة مع منتجاتها وأدويتها باللغات المحلية التى يفهمها المستهلك، بل تقتصر على طبعها بلغات أوربية معينة فحسب، الأمر الذى يؤدى إلى سوء استخدام تلك المواد.

وقد حمل الكاتب، ويحق، جزءاً كبيرا من المسئولية، على عاتق الحكومات المحلية التى لا تراقب تصرفات هذه الشركات.. ويشير الكاتب إلى أن منظمة الصحة العالمية ونقابات المستهلكين فى عديد من دول العالم الثالث قد رفعت عقيرتها ضد ممارسات هذه الإمبريالية الإعلانية التى تنتجها الشركات الغربية الكبرى.

إن هذه الهجمة الإعلانية التى يعانى منها مستهلكو العالم الثالث تصل ذروتها فى البلاد العربية التى تغرقها الشركات الأجنبية بسيل من المنتجات الكمالية والتى لا ضرورة لمعظمها.. فهى لا تؤدى فقط إلى بلبلة السوق ورفع معدل التضخم، بل وتضر بالصناعات المحلية ضرراً بالغا.. الأمر الذى يحتم إعادة النظر فى سياسات الاستيراد الحر فى تشديد الرقابة على الدعاية المضللة التى ترافق بل وتسبق وصول هذه المنتجات إلى أسواقنا. (عن مجلة المختار الإسلامى شوال ١٣٩٩).

وعندما أحست منظمة الصحة العالمية بخطر التدخين على الصحة نبهت إلى ذلك.. وتظاهرت شركات الدخان بالاستجابة وطبعت نصائح الأطباء على غلاف

«علبة السجاير» . . ومن وراء ذلك التظاهر مضت الخطة الماكرة أشد ضراوة. .
كتب الأستاذ أنيس منصور يقول:

قررت «وزارة الصحة العامة أن السجائر مضرة بالصحة». . هذه العبارة مطبوعة على كل علب السجائر الأمريكية منذ عشرين عاما، وتطبيقا للقانون تضع شركات السجائر هذه العبارة. وبذلك تكون قد أدت الواجب ونبهت الناس إلى خطورة التدخين. وبعد ذلك كل إنسان يتحمل تبعة هذه المجازفة بصحته وماله. .

ولكن ليس هذا ما فعلته شركات السجاير، إنها انتهزت هذه الفرصة وراحت تستخدم وسائل أغراء أكبر فى حجم السجائر ولونها ورائحتها وطولها وعرضها وشكل العلب. . وراحت تطور صناعة الولاعات أيضا ومعظم شركات السجائر هى التى تنتج الولاعات. .

ثم إن هناك تعاونا بين شركات الخمور وشركات العطور وشركات السجائر أيضا. فكلها شركات تتحكم فى الإنسان عن طريق خلق عادات جديدة له؛ لأن الإنسان حيوان يعيش بحكم العادة - أى إنسان عادى - أى له مجموعة من العادات يكونها ويمضى فيها ومن الصعب عليه أن يغيرها. .

والتدخين أحسن دليل على ذلك. . لقد ثبت بصورة نهائية أنه من الصعب على المدخن أن يميز بين طعم أو «نكهة» السجائر المختلفة. وكذلك الذين يشربون الخمور من الصعب عليهم أن يميزوا ماركاتها. ولكن المدخن يطلب نوعاً واحداً لا يغيره. .

ويرى أن التغيير هو نوع من زعزعة صورته أمام نفسه. . ؛ لأن الذى له شخصية هو الذى له صفات ثابتة وآراء واحدة لا يغيرها، فمن معالم شخصيته أنه يدخن سيجارة ماركة كذا. . ويشرب القهوة السادة ويفطر بالفول ويتعشى بالزبادى وينام على جانبه الأيسر. . إلخ.

وشركات السجاير تستخدم عددا «كبيرا» من علماء النفس، وخبراء الأسواق والتسويق والإعلان والدعاية. . وتثبيت العادات الجديدة عند الناس. . كعادة التدخين أو اقتناء الولاعات الجديدة. . والسجائر تستدرجك إلى الولاعة والولاعة تسحبك إلى التدخين. . والتدخين يغريك بالخمر. . والخمر تغريك بالتدخين وهكذا.

وإذا قرأ الناس هذا التحذير على علب السجائر مرة، فإنهم لن يفعلوا ذلك مرة أخرى.. لأنهم لا يريدون أن يضايقوا أنفسهم؛ لأنهم قرروا أن يمضوا فى التدخين. وأن كل إنسان حر فى صحته.. وأن هناك نظرية تقول: كل شىء لذيذ فى هذه الدنيا يوجع البطن أو القلب أو العقل، وإذا كانت ملذات الدنيا مؤلمة هكذا، فمن أجل أى شىء يعيش الإنسان؟

ثم إذا كانت السجائر ضارة فالشاى والقهوة.. والأكل نفسه ضار، والنوم نفسه ضار.. فإذا كان كل شىء ضاراً فلا أقل من أن يختار الإنسان أخف الأضرار أو أمتعها..

ولذلك فمهما تعددت تحذيرات الأطباء من كل شىء، فالإنسان هو المريض الوحيد الذى لا يريد أن يشفى.. وخصوصا إذا كان الذى يمرضه هو الذى يسعده أيضا.. بعض الوقت.

والسعادة - عادة - بعض الوقت، لبعض الناس، من بعض العادات السيئة!

أما بعد:

فتعجب حتى لا ينقضى عجبك من:

مدافع محشوة بالبارود

وبطون خالية من الطعام

وجسوم خاوية.. بلا طاقة!!

الفن: بين المبادئ.. والمنافع

تمهيـــد:

لا تقاس الأعمال فقط بما تحققه من ثمرات مادية.. بل مع هذا.. وفوق هذا هى مقيسة بما تحققه من منافع روحية أدبية..

وما يجنيه أصحاب المبادئ أربى فى الميزان من طلاب الدنيا:

فمجموع ما يناله المؤمن الملتزم أثقل مما يناله الانتهازى:

فالمؤمن المحافظ على شرفه ينال من الناحية المادية:

ثقة الناس..

وركونهم إليه. فى عملية الأخذ والعطاء..

ومن الناحية المعنوية:

يفوز بحبهم واحترامهم..

وبهذا المقياس.. ننظر إلى الفن الذى يستخدم اليوم كوسيلة من وسائل الاستهواء.. ثم الاستحواذ على مشاعر الجماهير.. وما يمكن أن يحققه ـ لو أخلص النية ـ من فوائد.. تنسحب آثارها على مرافق الدولة جميعا.

إنه من الأمور البارزة فى المنهج الإسلامى التربوى:

أنه لا يتوخى إماتة الغرائز.. بل يستهدف إعلاءها والسمو بها.

(فالشهوة: كلب الصيد.

والغضب: كلب الحراسة.

فلا تعلم كلب الصيد أن يخطف الطير الأليف. الذى يملكه جارك.

ولا تعلم كلب الحراسة أن ينبح فى وجه الضيف!)[1].

وهكذا: يريد الإسلام للحياة أن تكون واحة ظليلة:

---

(١) من بحث للدكتور سيد بدوى.

فهو يعترف بوجود الشهوة.. ولكنه ينظمها بالزواج.. والتملك.. ليستمر تدفق الحياة..

ثم الغضب يشكل قوة الدفاع فى كيان الإنسان.. ولكنها القوة الأمينة.. المسخرة للحراسة.. الملتزمة بأدب الإسلام المانع من الانطلاق المجنون بلا حساب لعواقب الأمور.

فالإسلام لا يأمر بقمع الشهوات. ولكنه يدعو إلى الإعلاء والتأجيل إذا لم تتيسر الوسائل السليمة الشرعية للممارسة..

والمسلم لا يعيش وحده فى هذه الدنيا حتى يطلق لطاقاته العنان.. فإن حرية الممارسة هنا محدودة بالنقطة التى يبدأ فيها الآخرون نشاطهم..

وبذلك يحيا الإنسان كفرد.. فى جماعة يسهم هو بضبط خطواته فى الإبقاء عليها. يقول صلاح الدين السلجوقى مبينا كيف كان المسلم:

(فرديا فى الفكر. اجتماعيا فى العلم.

فرديا فى حق الكسب.. اجتماعيا فى الزكاة والصدقات.

فرديا فى النوافل.. اجتماعيا فى الفرائض.

فرديا فى المحراب.. اجتماعيا فى المنبر).

وقد حرص الإسلام على أن تظل البيئة الإسلامية نظيفة.. يتنفس الفرد فيها معانى الطهر والنقاء.. فى حماية من الالتزام بمنهجه الراشد.. الآخذ فى اعتباره مصلحة الفرد. ومصلحة المجموع.

فإذا نزغ الإنسان من الشيطان نزغ فقد وجب عليه أن يستتر.. وعلى المجتمع واجب المتابعة. ملاحقة لبوادر الانحراف حتى لا تمد رواقها.. وقبل أن يراها الأبرياء فينسجون على منوالها.

وفى سبيل ذلك هدد بالويل والثبور هؤلاء الذين يمكنون للفاحشة أن تشيع.. وإن لم يرتكبوها:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾[1]

---

(١) النور: ١٩.

يقول الأستاذ أنور الجندى[1]:

(حرص الإسلام ألا يظهر الخبث، بل يستر عن الأنظار.

لذلك حث ألا تعلن الرذائل، بل تخفى، وتعلن الفضائل ولا تخفى.

«وهذا هو عكس مفهوم القصة والرواية والمسرحية «فلا تنكشف أستار الجريمة على الناس، ولا تظهر إلا وعقوبتها معا؛ لأن إعلانها مجردة عن العقاب يفسد الجو الاجتماعى. وظهور الشر يغرى باتباعه.

فإذا أعلنت الرذيلة من غير عقوبتها كان ذلك تنبيها وتعليما للأشرار.

وكثيرا ما تجد جريمة وقعت، هى محاكية لجريمة وقعت من قبل وكثيرا ما يصرخ الأغرار بأن ما ارتكبوه تعلموه من صحيفة أو إذاعة.

وقد اعتبر الإسلام إعلان الجريمة: جريمة مقترنة بها:

أ - جريمة الفعل..

ب - وجريمة الإعلان..

وقد نهى الإسلام عن المجاهرة. وهى فى شأن الذين يعملون عملا بالليل فيسترهم الله فيصبحون فيعلنونه).

وهذا ما يريده الله تعالى بالناس..

فماذا يريد الذين يتبعون الشهوات؟.

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا . يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[2].

فالحق سبحانه وتعالى خالق الإنسان وهو وحده أعلم بما يصلحه:

ومن ثم.. يبين له طريقه ليأخذ سبيله فى ضوء هدايته سبحانه.. بما يكشف له من سنن الغابرين.. وما يضرب من أمثال.. تقديرا منه سبحانه لضعفه وثقل أحماله.. لكن الذين اتخذوا الشهوات إلها يعبد من دون الله يريدون أن ينحرفوا

(١) مفاهيم العلوم الاجتماعية: ٩٠.   (٢) النساء: ٢٦: ٢٨.

به انحرافا بيّنا يقطع صلته بالطريق المستقيم.. هذا الانحراف الذى صار حقيقة واقعة فى بلادهم،

(حين أصبح الناس هناك أحرارا لا يخجلون من أعضائهم التناسلية.. حين يجتمعون فى نوادى العراة)!!

إنهم يريدون تدمير خلق الحياء ليصير الإنسان هكذا كالسائمة أو أضل سبيلا..

والذى يحذرنا الحق سبحانه منه.. يحمل أربابه على الشكوى المرة ولكن بعد فوات الأوان.. وهذا نذيرهم العريان يعترف[1]:

(إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان، وتعيش فى ظل قوانين جديدة. قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة. التى تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان. بلا حب ولا تعاطف.

وتقوم على تبادلات الاتصال الجنسى على نحو ما تفعل السائمة، ثم يقول:

«إن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية، لا تقوم على منطق أو تفكير. والمجتمع الجديد لا يعترف بعقود الزواج، ولا يعترف بالأمومة، وكل شىء تصنعه الآلات، والإنسان يستهلك مائة سنة فى خمسين سنة بالعقاقير، والإجهاد العصبى، والخروج عن الطبيعة، وكبت الانفعالات بالكذب والنفاق).

وحتى لا نصل إلى مثل هذا المستقبل المظلم.. يحذرنا الحق سبحانه وتعالى.. قبل أن نفتن بنظريات ومناهج لم تصلح أهلها وإذن فلن تصلح فسادنا.

ومن حكمة العلى القدير أن يظل القتال مستمرا فى قلب المسلم بين أنوار العقل.. وجند الشيطان: من الشهوة والفن الهازل، واللهو العابث.. الذى يقوى جند الشيطان.

وقد أردنا بهذه الصفحات أن نقولها كلمة مخلصة كاشفة عن خطر الفن كسلاح من أسلحة الإعلام فى التمكين للفضيلة أو العدوان عليها..

مركزين فى نفس الوقت على ما حققه الإعلام العالمى من نجاح فى تمزيق الأمة.. وما يفرضه ذلك من صحوة نستعيد بها مكاننا تحت الشمس..

---

(١) الدوكس هكسلى.

إن التقدم العلمى الهائل سلب الإنسان فضائله الأصلية.. وزوده بقيم زائفة أخرى قضت على قوة المقاومة فيه..

وما زالت قيم الدين صالحة لإنقاذه من كبوته.. ونحن مطالبون بالاستعداد.. ثم بالحركة السريعة لنلزم القوم كلمة التقوى.. قبل أن تفوت فرصة الإصلاح..

مسئولية الفنان:

وللحرية حدود (وحدودها ألا تجور ولا تظلم، ولا تكذب، ولا تخدع ولا تهدم، والفنان ليس حرا فى أن يقول أى كلام..

وليس كل ما يأتينا من الغرب يعرض ويقرر، ويفرض على شبابنا وفى بلدنا نعتقل المتطرفين، ونودعهم السجون.

وهذا التطرف التليفزيونى.. الجميل.. الفاتن.. الجذاب الخلاب الذى يقدم الجرائم فى أبهة.. ويعرض الانحلال فى بهاء يأخذ بالألباب:

يلبس العهر ثوب العز، ويكسو الرذائل بهالات من الزخرف، هذا اللون من التطرف أخطر بكثير من التطرف الآخر الغليظ، المنفر، فهو هنا يضع السم فى أكواب من العسل. وسوف ينشأ فى ظله جيل جديد: رخو.. فاتر الهمة، شهوانى التفكير، ضعيف الإرادة.

إن المراد بالفن هو: إحياء الوقت.. لا قتل الوقت.. وذلك لا يكون إلا بالمادة الجادة المفيدة)[1].

ناقوس الخطر:

وإذا كان الحق تعالى سيحاسبنا على ما يقوله الواحد منا للآخر.. فكم تكون مسئولية الفنان الذى يخاطب الملايين.. وهو ما يقوله الأستاذ الزيات محذرا من أدب اللذة والمجون.. وكيف كان فى الماضى محدود الأثر.. بينما هو اليوم - وفى ظل الاختراعات الجديدة - واسع الانتشار خطير الآثار..

(والذين كانوا فى القديم يقولونه كانوا ينشئونه لأنفسهم لا للناس، ويتناقلونه فى السر لا فى العلن، ويتفكهون به فى المجالس الخاصة لا فى المجامع العامة،

(١) د. مصطفى محمود.

ولو كان لهم ما لنا اليوم من طباعة تنشر، وصحافة تذيع، وجمهور يقرأ، لتحرجوا من أكثر ما قالوه، فإن الناس مذ بث الله فى أبويهم آدم وحواء فضيلة الحياء، فخصفا على جسديهما العاريين من ورق الجنة، شعروا أن للجنس عورات لا تظهر، ولما هذبهم الدين، ووثقهم العلم، وصقلهم التحضر، شعروا كذلك أن للكفر عورات لا يجوز أن تنشر، فهم بحكم الحرية والاستقلال والانطلاق، يقولون ويفعلون فى خلواتهم ومباذلهم ما شاءوا، ولكنهم بحكم الدين والقانون والعرف يسترون سوآتهم ونزواتهم ما استطاعوا فلا يقولون كل حق، ولا يصورون كل حالة، ولا يظهرون كل شيء، مراعاة لشعور الجملة، ومحافظة على كرامة الإنسان!).

وفى الدول المتحررة من قيود الدين.. علت هناك أصوات تندد بالفن الهابط.. ومنهم صوت رئيس دولة أوروبية، والذى يقول عنه أحد الباحثين:

وهذا الرئيس المفكر قد راعه انحدار القصص الأوروبى بعامة، والفرنسى بخاصة إلى مستوى الغريزة العارية، والشهوة الوضيعة، فقال: للويس بارتو الوزير الفرنسى حين زار تشيكوسلوفاكيا ناقدا فى صراحة لا تنقصها الجرأة!

(إن أبطال قصصكم الجديدة عامة، تحركهم الشهوات الوضيعة، والحب الجنسى الشره، ويمكنكم أن تتأكدوا أننا قد مللنا، بل قد اجتوينا هذا الضرب المألوف من الروايات العاطلة السقيمة، التى لا تطالعنا فيها سوى امرأة سليطة، يحبها اثنان أو ثلاثة عدا زوجها «الصنديد» الذى تخدعه بشتى الحيل، وهكذا فى دائرة بغير انتهاء، فهل هذا هو الفن الكتابى الذى اشتهرتم به على مدى العصور، ذلك لا يمكن أن يكون، بل هو زيغ، وكبوة، فى الأدباء المعاصرين، فإذا لم تقضوا على هذا الداء الوبيل دفعتم غاليا ثمن تهاونكم) مجلة الرسالة.

وإذا اشتط المزار بطلاب المتعة وطلاب المنفعة فقد حان الوقت لنعرف ما هو الفن.. ثم نسلط الضوء على خط الانحراف. فى محاولة للعودة بالقطيع الشارد إلى سواء الصراط:

ما هو الفن؟

الفن ما هو إلا تعبير عن حاجة كمالية لا ينعدم بانعدامها شيء فى بنية المجتمع من حيث بقاؤه واستمراره، وهو بهذا المعنى مقبول شريطة أن يكون

نافعا.. غير مناقض لاتجاه الأمة نحو الكمال.

(وحيثما يناقض الفن، الشرع، فإنه فى ذات الوقت، يناقض المصلحة الوجودية للأمة) ولا حاجة لنا به حينئذ..

(لقد انتصر المسلمون الأولون على أعظم أمم الأرض، وملكوا أزمة العالم.. وكان الفن بمعناه الواسع فى شريعتهم محرما).

وفى تقوير هذا المعنى يقول إقبال:

(أنا لا أعارض التذوق بالجمال، والشعور به، فذلك أمر طبيعى. ولكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر والبحر.

وذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها ومكانها فى خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات) إن الفن كأسلوب من أساليب التعبير لابد أن يتم فى الإطار الذى رسمه الإسلام نهوضا بالفرد والمجتمع.. وإلا.. فإن فقدان الإحساس بهذا الأساس يجعل من الفن لهوا ولعبا. لا يخدم الحقيقة.. وعلى هذا الأساس ينادى إقبال أهل الفن قائلا:

(يا أهل الفن والنظر العميق:

أنعم وأكرم بنظركم!

ولكن أى قيمة للنظر الذى لا يدرك الحقيقة؟

لا خير فى نشيد شاعر.. ولا فى صوت مغن.. إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس.

لا بارك الله فى نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور والخمول.. والذبول).

والخطأ هنا يكمن فى أننا استوردنا صناعة الفن وهذا فى ذاته حسن..

بيد أننا استوردناه بأهدافه.. ولم نستشعر أننا مجتمع إسلامى له منهجه المختلف.. والذى يفرض علينا توخى المصلحة العليا من وراء هذا الفن المستورد..

إن راكب السيارة فى البلاد التى صنعتها يتجه بها إلى حيث يحتسى الخمر . . فهل نتجه بها نحن إلى «البار»؟

وإذا كان مخترع «التليفزيون» استهدف به العبث والمجون . .

فهل نقتنيه نحن كذلك؟!

يقول المرحوم الدكتور محمد الغمراوى:

(إذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة، وجب ألا تخالف أو تنافض دين الفطرة . . دين الإسلام فى شىء . . فإذا خالفته فى أصوله . ودعت صراحة أو ضمنا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التى جاء الدين لمحاربتها، وعاقت الإنسان أن يعمل بالفضائل التى جاء الإسلام بإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح . . إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا، أو فى شىء غير هذا . . فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة.

فنون جانبت الحق، وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق).

الشيوعية... والفن... والدين!

فى خضم العداوة السافرة بين الشيوعية والدين. . لم تدخر وسعا فى مناهضة المبادئ الدينية بكل ما تملك من وسائل تراها مفيدة فى طمس معالم الدين فى قلوب الناس: . . وكان الفن إحدى هذه الوسائل الناجعة:

(يقول موريس دوس مؤلف كتاب «إنسانية تقتلع من جذورها» وهم ـ أى الشيوعيون ـ يدركون أن فى الدين ما يستهوى حاسة الجمال عند الإنسان، وما يرضى شعوره بأهمية نفسه، وبميله إلى التسامى، وبحثه عن مفتاح لسر الحياة والكون، ولذلك رأوا أن يعالجوا هذه الألوان المختلفة من الحنين بتزويد الفرد بأفكار وتدريبات وأنظمة من صنعه. .

إنهم يبحثون عن وسيلة تؤدى إلى تجريد الدين من مبررات وجوده، ومن أى عنصر من عناصر النفع الإنسانى سواء أكانت نفعا ماديا أم روحيا أم نفسيا.

وإنهم لواثقون من أنهم قادرون على أن يخلصوا روسيا إلى الأبد من الدين بفضل نشر وتطبيق العلم والفن. .

إنهم يعرضون الفلاح الروسى أو الروس عموماً عن حرمانه من الاستمتاع الفنى بقداس الكنيسة وما فيه من جوقات الأناشيد والموسيقى. وما يصحبه من ألوان التأثر الزاهية وصور القديسين. . بجوقات ترتل أناشيد الثورة بدلا من الأناشيد الدينية.

وبصور أبطال الثورة، ومناظر الطبيعة بدلا من صور القديسين كما يعرضونه عن التنسك فى الأديرة والاستغراق فى الصلاة بالخدمات الاجتماعية، والاستمتاع بحياة النادى وما فيه من تمثيليات.

ولذلك فهم يقيمون فى كل قرية مسرحا مهما بعدت القرية عن العمران وعلى هذه المسارح الساذجة تمثل مسرحيات متقنة ـ ترضى ذوق أكثر النقاد تشددا)[1].

(١) عن كتاب: حرية الإنسان فى الإسلام ٢٣، ٢٤ للمرحوم الأستاذ بكرموسى.

وإذا كانت الشيوعية تفعل فعلتها تلك.. فى سبيل التمكين لمذهبها عن طريق الفن، فإن ولاءنا لديننا وواجبنا نحو أطفالنا يفرض علينا تسخير الفن باستهوآته وإيحاءاته، ليمهد الطريق أمام الجيل الجديد ليأخذ طريقه إلى الإيمان بالله عز وجل..

إن الطفل لتبهره الألوان..والحركة..والصور المختلفة..كما يستهويه الصوت الجميل.. والقصص الشائق..

فلنزامله فى رحلة ممتعة: لا تتملق عواطفه.. لكنها تترقى بحاسة الجمال فيه.. لتسعى وراء جمال الحق.. وجمال الخير.. لنعده الإعداد السليم عن طريق الفن الذى ينجذب أساسا إليه..

فلا يحس بضغط الأوامر والنواهى.. بل إننا نأخذ بيده إلى الفضيلة فى لحظاته الممتعة المأنوسة..

ولنفوت فى نفس اللحظة على الإلحاد.. فلا نمكنه من رقاب أجيالنا.. وهم أمانة فى أعناقنا.

التصور الإسلامى للفن

يتيح الإسلام للإنسان أن يتفاعل مع الحياة مستمتعا بكل صور الجمال المتاح فيها. وليس لإنسان سلطة تحريم هذه الطيبات بعد أن أحلها واهبها سبحانه:

﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٣].

فكل صور المتاع الحسن مباحة للإنسان فى الإطار الذى حدده الإسلام.. أما ما حرمه الإسلام فهو كل رذيلة تخدش جمال الحياة.. وتمزق باطن الإنسان وظاهره.. وعلى رأسها الشرك بالله سبحانه.. وهو داء يقف على رأس كل خطيئة..

ومعنى ذلك أن الفن ـ وهو وسيلة المتعة ـ فى منطق الإسلام يستمد قيمه وأهدافه من العقيدة الإسلامية التى تضفى من السحر الحلال على العمل الفنى ما يحقق المتعة ويمنع الضرر فى وقت واحد..

وهو مفرق الطريق بين الفن الإسلامى.. وغيره من الفنون العابثة اللاهية:

(والتصور الإسلامى للفن يبدأ من الله إلى الوجود فى كل صوره وأشكاله، وكائناته وموجوداته.

ويعنى عناية خاصة بالإنسان خليفة الله فى الأرض، ثم يعود إلى الحقيقة الإلهية التى صدر عنها.. فيكون تصورا سليما كاملا شاملا، فى خشوع لله وتقوى، ومراقبة لله، وتطلع إليه، والاطمئنان إلى قدره.

على حين نحت أوروبا إلى الموروث الإغريقى الذى يصور الآلهة فى صراع المبشع للبشر، أو صراع فيما بينها.

والإنسان فى صراع مع الكون: جماده ونباته وحيوانه.. بينما صلة الإنسان المسلم بالكائنات صلة القربى والمودة والتعاطف، والتعاون فى ناموس الله الأكبر.

فالإنسان قبضة من طين ونفخة من روح الله، غير منفصل بأحد عنصريه عن عنصره الآخر فى أية لحظة من اللحظات:

فلا هو حيوان الدارونية..

ولا هو ملاك الهندوكية والبوذية)[1].

ولقد كان ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا..

ولا بأس أن يروح المسلم عن قلبه وجسمه.. تعبيرا عن طبيعته.. كبشر.. واستعلاء بنفسه على مشقات الحياة المعترضة.. والتى يمكن التغلب عليها أو نسيانها بهذه المتع العابرة.. المفيدة فى ذات الوقت..؛ لأنها وثيقة الصلة بعنصر الحق الذى لا يغيب عنها لحظة من زمان..

وقد يباح لك أن تستمتع بالفكاهة كصورة من المتعة الحلال.. ولكنك فى نفس الوقت محكوم بقيم الإسلام:

بين الفكاهة والسخرية:

قيل فى تعريف الإنسان: أنه حيوان ضاحك.. كما أنه حيوان ناطق.. لقد امتن الله على خلقه ﴿**وأنه هو أضحك وأبكى. وأنه هو أمات وأحيا**﴾.

قال الجاحظ معلقا[2]:

فوضع الضحك بإزاء الحياة..

ووضع البكاء بإزاء الموت.

والله لا يضيف إلى نفسه القبيح. ولا يمن على خلقه بالنقص).

وهناك فرق واضح بين الفكاهة.. والسخرية:

إن السخرية عمل العقل.. يريد الساخر أن ينال من غيره.. فيطعنه.. إحساسا منه بالترفع والاستعلاء.. فهو بالتعبير العصرى:

---

(١) محمد قطب. الفن الإسلامى.

(٢) البخلاء.

«أستقراطى»!

أما الفكاهة: فإنها تصدم.. ولا تطعن..

بالإضافة إلى أنها من عمل القلب.. يرى بها الإنسان مفارقة تضغط على إحساسه.. فتنقل الجوارح - وعلى رأسها الوجه؛ لأنه أسرع الأعضاء تأثرا - هذا الإحساس.. ومن تلك الصور ما قاله ابن الرومى فى رجل أصلع:

يأخذ أعلى الوجه من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله!

وبينما يترفع الساخر.. فإن الفكه يتساوى.. بل ويتبذل إلى درجة أنه قد ينال من نفسه. فهو بالتعبير العصرى: ديمقراطى!

الإسلام.. والجمال:

(ولا يفوتنا فى هذا المقام أن ننوه بحقيقة جديدة تضاف إلى رصيد النظرة الإسلامية السامية المستقصية من حيث اهتمام الإسلام بتوجيه الانتباه إلى مواطن الجمال، ومجالى الحسن تتجاوز حدود المحسوس والمعقول إلى ميدان المثل والفضائل. فإذا جاز. أن يقول أى نظام فكرى أو دينى غير الإسلام: أن الصبر - مثلا - فضيلة رائعة جميلة جديرة بالإعجاب والتقدير، قال الإسلام: لا. ليس مجرد الصبر أهلا لكل هذا التقييم، بل الأمر مقصور على «الصبر الجميل» ولذلك أوصى نبيه - صلوات الله عليه - بأن يصبر صبرا جميلا إزاء تحميله أثقل مهمة وأخطر مسئولية يتعرض لها بشر:

بل إن الأعجب من ذلك أن تجد أن المكاره ذاتها قد يكون لها حظها المقسوم من الجمال، الذى يراعى عند الإنشاء أو عند إطلاق الحكم. وليس من محض المصدفة أن نجد الآية القرآنية الكريمة التى تتضمن توصية الرسول فى مقام آخر بالصبر دون أن تورد وصف الجمال، تحتفظ بهذا الوصف لشىء آخر غير الصبر وهو «الهجر» للكفار والمستهزئين، يقول سبحانه مخاطبا رسوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿**واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا**﴾ وبذلك أرسى الإسلام قواعد رعاية الجمال حتى الفضائل والمكاره.

وإن شئنا تركيزا للنقاط الجوهرية فى النظرة الإسلامية الجمالية والفنية بصورة عامة، مقارنة بالنقاط الجوهرية المستخلصة من حصيلة الفكر الحديث أجريناه على

هذا النحو:

أولا: ينفرد الإسلام بتماسك نظرته الجمالية والفنية وتكاملها وتناسقها وتلاقيها مع نظرته إلى الحق والخير، وبهذا تكون النمط الفريد التى تتعانق فيه القيم الثلاث.

وهذا فى مقابل التباين والانفصام بين أجزاء النظرة الغربية الحديثة للجمال، إذ يدعى دائما ضرورة الفصل بين هذه القيم بحجة ضمان حرية الفن والفنان، وقد رأينا صدى مثل هذا الرأى الذى سبق الرد عليه.

ثانيا: تسمح النظرة الإسلامية بالحقيقة الموضوعية للجمال الموجود فى الطبيعة والمصنوع بيد الإنسان، وذلك يعنى فى صراحة: أن إعجابنا بالجمال وتقديرنا له ليس تعبيرا ذاتيا محضا لا أساس له من الواقع، كما يدعى ذلك بعض المحدثين الذين يرون أن الطبيعة خرساء ما لم ينطقها الإنسان إنها لا تحوى شيئا ولا تعى شيئا، وأننا نحن الذين نخلق الجمال بأفكارنا وعقولنا وأمزجتنا وأهوائنا، فإلى الإنسان، وإلى الإنسان وحده يجب أن ينسب كل الفضل فى خلق الصور الجمالية أو الحكم عليها، وهذا كما رأينا عند النظر الدقيق غير صحيح، بدليل أن روائع صورنا الفنية والجمالية إنما استلهمت صور الطبيعة.

ثالثا: تفى النظرة الإسلامية بالنوعين المشهورين للمتعة الجمالية:

أولهما هذه المتعة العابرة التى يصاحبها استرواح النفس والاسترخاء بعد العمل المضنى وهدوء الأعصاب، وثانيهما المتعة التى تنعش الذهن وتوقظ الحواس ومنافذ الإدراك، وترفعها إلى آفاق جديدة من الحياة العامرة بالمشاعر والأفكار، وهذه المتعة الأخيرة هى المتعة الحقيقية الكاملة التى يحققها مصدر جمالى. قيم وهى المتعة التى يحرص الإسلام على تغذيتها وإنمائها لأنها التيار الدافق الذى يمد طاقات الفكر والوجدان والسلوك بما يحفظ لها دوام الرقى والصفاء والصلاح، ولم يغفل الإسلام أهم المقومات الأساسية للصورة الجمالية أو الفنية التى تعتمد على الحس أولا، ثم على العقل والبصيرة فيما بعد ذلك أو ما وراء ذلك، فالتناسب وعدم التفاوت وتقابل الألوان ونصاعتها، وحيوية الانسجام ونبضه فى الحى بل وفى الجماد أحيانا - كلها أمور وجه الإسلام أنظارنا إليها ودعانا إلى التدبر وإطالة التأمل حتى تتأصل فينا ملكة النقد والحكم.

فإذا أمكن نشدان المتعة الأولى فى مثل الآيات:

﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾. ﴿وزيناها للناظرين﴾ ﴿فأنبتنا فيها حدائق ذات بهجة﴾. وغيرها وغيرها، فإننا لا يعيينا نشدان المتعة الأخرى الكاملة والمثمرة فى كثير من الآيات القرآنية والسنة النبوية المطهرة - ويضيق المقام عن استعراض الأمثلة لذلك. ولا يعيى القارئ المسلم تلمس ذلك فى سور مثل: الأعراف والأنعام، والنحل، والصافات.. إلخ.

رابعا: تشد النظرة الإسلامية للجمال انتباهنا دائما إلى ما وراء حواسنا، حفزا للهمم، وإتاحة لتمتع أرقى بمجالى الجمال المطبوع والمصنوع، ومعنى ذلك بصريح العبارة أن الإسلام لا يرضى لمعتنقه أن يكون سطحيا أو شكليا تأسره الصورة الحسية فى مظهرها القريب، بل تدعوه دائما نحو الأعمق، وذلك راجع إلى طبيعة الإسلام ذاتها، من حيث اهتمامه بالعمق الإنسانى الممثل فى النية أو الضمير باعتبار أن هذا العمق ذاته هو مصدر ما ترى من أفكار، أو خواطر، أو مشاعر، أو أعمال محسوسة، ولذا ظل الإسلام دائماً متمسكاً بمقياس البواعث والدوافع ضمانا لسلامة الحكم، وإذا لاحظنا أن أخطر الأعمال وأجل الأحداث والأنشطة الإنسانية كانت فى الأصل خاطرا أو فكرة سلكت سبيلها المتدرج إلى حيز الواقع المشاهد: أدركنا على الفور قيمة النظرة الإسلامية وأدركنا كذلك أهمية التربية الجمالية المستوحاة من الإسلام بالنسبة لفتياتنا، بل بالنسبة لجيلنا المعاصر بأسره.

ومن البديهى أن هذا الجانب نفتقده فى الفكر الحديث تماما، وإن كنا قد نجد بعض أصداء لما يقرب من فكرتنا الإسلامية فيما قد يسمى بصدق الفنان فى التعبير عن مشاعره أو عن مجتمعه، لكن يرد السؤال على الفور: من أى طراز هذه المشاعر، أو هذا المجتمع؟ إذ قد ينقلب الفنان - بين عشية وضحاها - بوقا لواقع مريض، يزين نقائصه، ويهبط بمستوى ذوقه الفنى والجمالى، لا سيما إذا غلب عليه الطابع المادى.

خامسا: تحرص النظرة الإسلامية على رعاية كافة الملكات والطاقات الإنسانية، ولا ترضى مطلقا بأن تعطل ملكة، أو تهمل طاقة، أو تركن جارحة أو عضوا لأن فى هذا تعويقا لسير الحياة، وكأنه تحد آثم لمقتضيات إرادة واهب الحياة جل جلاله، فأسماعنا وأبصارنا وعقولنا وبصائرنا وجوارحنا وجميع منافذ إدراكنا

مجندة لأداء دورها المنوط بها للإسهام فى المسيرة العامة لتقدم الحياة ودفع عجلة الحضارة، ومن المعلوم أن لكل طاقة أو ملكة ميدانها وخصائصها، وقد عالجنا فى مناسبة أخرى بعض جوانب الفكر الخالص وأشرنا إلى بعض فرسان الميدان:

وها نحن، أولاء نعلن أن النظرة الإسلامية فى مجالى الجمال والفن تعتبر الطاقات النفسية ثروة تفوق فى قيمتها أية ثروة أخرى عند ذوى البصيرة والعقل المستنير. وعلى جيلنا المعاصر أن يعتبر أن هذه الثروة ـ وإن تكن غير منظورة فى حد ذاتها ـ هى بالغة الأثر تتحدى شواهدها وآثارها كل جاحد مكابر.

وسنرى فيما يستقبل من دراسة آثار النظرة الإسلامية فيما جادت به جهود هؤلاء الذين أظلتهم الروح الإسلامية، اعتقادا وسلوكا، أو معايشة ومساكنة فى ميدانى الفن والجمال وكما كانت أول سورة فى القرآن نداء بالقراءة، وتوجيها إلى إدراك المنة فى التعليم بالقلم نتخذ نقطة البدء فى حديثنا عن هذه الآثار باستعراض المنجزات الإسلامية الفنية فى مجالى الكتابة والرسم فيما يلى من دراسة إن شاء الله. وسنتبع هذه الدراسة بنظرات لها فى شتى المجالات الفنية والجمالية حتى تتم لنا الصورة الكاملة من الوجهة التاريخية.

وأملنا وطيد فى أننا سنصل فى النهاية إلى صورة نموذجية منتقاة تجمع فى إطارها لب المسألة الجمالية بحيث يمكن على أثرها صوغ الفلسفة الجمالية النهائية التى تصح نسبتها إلى الإسلام، وتليق بواقعنا المعاصر[1].

شاهد على أهله:

(يقول «جاستون راجو» من كبار الباحثين فى أثر السينما:

لقد أصبح الإنسان تحت رحمة مخترعاته.. بل عبدا لها، لننظر لنرى التغير المدهش الذى طرأ على وجود الإنسان، وما صحب ذلك من آثار فى النفس والعقل.

ذلك أن الآلة تحول عقل الإنسان إلى آلة مثلها.

وفى السينما ـ كما فى التليفزيون ـ تحدق ببصرك وأنت غارق فى مقعدك. حيث يهبط نشاطك العقلىّ إلى أدنى درجاته، إنك لا تكلف نفسك إلا استعمال

(١) عن مجلة الاتحاد.

واحدة من حواسك. وليس هناك ما يدعو إلى شيء من التفكير لأن كل شيء مرئى.

ولا مراء أن هذا النوع من اللهو له تأثيره العميق.. ليس فى أذواقنا وعاداتنا فحسب، بل فى مجموع نشاطنا العقلى والفنى، وفى أحلامنا كذلك)[1].

إن الفن ليستطيع تأصيل منهج الأمة.. كما يستطيع هدمه.. لكنه ـ وهو يخاطب الوجدان ـ يستغل سلطته فى التدمير..

وبدل أن يختار الكلمة الراقية تعبيرا عن الحب مثلا.. فإنه يختار القبلة.. محتجا بأن مشاعر الفنان باردة حينئذ.. متجاهلا أنها ليست كذلك بين صفوف المشاهدين المراهقين! والمسنين؟!

وفى الوقت الذى يعلنها ذلك الكاتب صرخة تحذير من ضرر يلحق بالأخلاق.. ويترك أثره على أجهزة الإنسان كلها.. نرى كاتبا كالأستاذ مصطفى أمين يركز على أثر «التليفزيون» على صحة اللغة.. ناسيا آثاره البعيدة فى النفس والروح.. والتى أشار إليها الكاتب الغربى يقول:

(أتفاءل كثيرا عندما أرى الطفل العربى فى هذا العصر الجديد: فهو أكثر ذكاء واطلاعا، وأقوى شخصية مما كنا نحن فى مثل عمره.

أعتقد أن «التليفزيون» هو المسئول عن هذا التطور الملحوظ، ومهما انتقدنا برامج التليفزيون فلا يمكن أن ننكر أثره فى شخصية الطفل الجديد.

فهو أكثر جرأة، وأكثر انطلاقا، وأكثر استقلالا، والمهم أن ننمى فيه هذه الصفات ولا نحاربها.

الذى لاحظته أن أطفالنا الجدد يتكلمون بلغة جديدة هى لغة نيللى فى الفوازير، ولغة عبد المنعم مدبولى، وعادل إمام وفؤاد المهندس!

ولهذا أتوجه لأبطال الكوميديا بدلا من المجمع اللغوى ليحافظوا على ما بقى لنا من اللغة العربية!

وأذكر أن أمير الشعراء أحمد شوقى قال أمامى:

إننى لا أخشى على اللغة العربية إلا من بيرم التونسى فلقد كانت لغة بيرم

(١) عن كتاب مفاهيم العلوم الاجتماعية ـ أنور الجندى.

التونسى السهلة فى أغانيه وأزجاله على ألسنة الملايين أكثر من قصائد شوقى والمتنبى، وحافظ إبراهيم)[1].

إن الكاتب هنا يحيى جهود الإعلام فى بناء شخصية الطفل.. وكان ينبغى أن ينبه إلى الخطر الأكبر من وراء ما يعرضه من فنون..

إنه يخاف على مستوى اللغة.. وهذا حق.. لكنه يتجه إلى الممثلين أن يراعوا حق اللغة عليهم خوفا على مستقبل الأطفال! وهذا حل غير عملى.. فالممثل الضاحك لن يكون كذلك.. ولن يكون محل الإعجاب إلا إذا كسر قواعد اللغة.. بل ربما كان أكثر إثارة إذا تعمد هذا التكسير!!

والاقتراح المقبول هنا: تحذير هؤلاء الفنانين والفنانات اللاعبين بالنار ليرحموا طفولة فى حاجة إلى تقدير ورعاية ورحمة تحتفظ بطاقاتهم عدة للمستقبل.. بدل أن تثيرها الحركات المفتعلة.. والكلمات العابثة اللاهية التى تتجه بهذه الطاقات إلى غير ما خلقت له.

إن (التليفزيون قد غير معالم الحياة الاجتماعية والفنية والاقتصادية والسياسية. يكفى أن تجلس أمامه حتى لا تجد نفسك!

فقد تولاها ألوف الخبراء وراحوا يلعبون بك: فأنت فى كواكب السماء مع رواد القضاء. ومع نجوم الفكر والكرة فى الأرض.

والإعلانات تنزل فوق دماغك.. وعلى جيبك!

لم تعد قادرا على أن تغمض عينيك عن «التليفزيون»:

فأنت تأكل وتشرب بحضوره، وأنت تفتح عينيك وتطبق شفتيك أمامه، وكذلك كل الذين حولك. فانعدم الكلام والحوار فى الأسرة! وأصبح من الصعب أن تطلب من الطفل أن ينام مبكرا)[2].

وهكذا ترى أصابع الهدم تلعب فى الظلام.. حين أريد استغلال هذا الاكتشاف فى غير ما خلق له..

وحين أريد للمعرفة ـ وهى فضيلة ـ أن تتحول إلى رذيلة لا تبقى ولا تذر..

(١) مصطفى أمين الأخبار.

(٢) أنيس منصور ـ الأهرام.

وهذه شهادة واحد آخر من الكتاب التقدميين.. نعزز بها ما سبق تذكيرا وتحذيرا.. يقول الأستاذ عبد المنعم الصاوى[1]:

(المعرفة فضيلة.. هكذا تعلمنا من سقراط.

لكن بعض ذوى المعارف الدقيقة والمتخصصة يحولون هذه الفضيلة إلى رذيلة. أو إلى مأساة، ونحن نرى على شاشة التليفزيون.. ونقرأ بلغات مختلفة كيف تكونت عصابة من علماء وخبراء لرسم خطة سرقة ملايين الدولارات.

ونقرأ أو نسمع أن أفراد العصابة من كبار الأساتذة المتخصصين وأن بينهم عددا من أساتذة الجامعات، وأنهم ينفقون فى إعداد الخطة وإحكامها ملايين الدولارات. لتعود عليهم عدة أضعاف.

بهذا تصبح المعرفة رذيلة.

فقد كان سقراط يتصور أن المعرفة تحمى صاحبها من أن يهوى إلى أعمق ما فى النفس الإنسانية من شر وخداع.

هذه الظاهرة نحن صنعناها بأيدينا.

ولست أقصد من - نحن - معناها الحرفى. لكنى أقصد جيلا شهدنا بدايته حين لجأ الإنسان إلى أسلوب السرية ليتجسس على أعدائه.

وفى هذه العصابات وجدنا أعلى مستويات العلم توظف توظيفا، لا يعتمد على الأخلاق أو المنطق أو حتى الرفق.

بهذا وضعت هذه الأجهزة السرية أساسا للاعتماد على العلم وعلى العلماء فى كل ما تقوم به عصابات السرقة.

بقى أن نسأل: أمن المصلحة أن تعرض كل هذه الجرائم على الناس؟! لا أدرى!).

ونلفت النظر إلى أن الإعلام العالمى الذى يقدم لنا هذا السم فى العسل يكيل لأبنائه بكيل آخر. إنه وفى لأمته.. حفى بترسيخ دعائمها.. ثم نشر مذاهبه فى الامم الأخرى.. وقد تساءل بعض الباحثين عن نشاط الإعلام الخارجى فى هذا

---

(١) الجمهورية.

المجال.. فى الوقت الذى لا يعى أولياء الإعلام عندنا هذه الحقيقة ولا ينهضون بمثل هذا الدور.. قال:

(والعجيب أن هؤلاء الذين يحتكمون إلى منهاج البحث العلمى فيما يقررونه من قضايا يضعون أنفسهم فى مواقف حرجة حين تورطهم أقلامهم فى صور من التناقض تدع نفوسهم عارية.. وحجتهم داحضة..

فحين يقررون - فى مجال الدفاع - أن القبلة أمر طبيعى.. فلماذا نتحدى الطبيعة؟ يجهلون أن العملية الجنسية أيضا أمر طبيعى.. بل أدخل فى الطبيعة من حيث كانت سببا فى بقاء النوع.. وإذن.. فلماذا لا يأذنون بها؟!

إن شيوع الفاحشة أمر له خطره على الواقع.. والمستقبل.. كما أن شيوع الفضيلة داع إلى التأسى بها..

وفى سبيل ذلك يقرر الإسلام:

أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة.. ومن عملها.. كتبت له عشرا.. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة! ذلك بأن العزم على فعل الخير ظاهرة صحية تقترب بصاحبها من التنفيذ إذا ما سنحت الفرصة.. وسوف يساعد غيره من المحسنين فى إبراز ما عجز هو عن تنفيذه فإذا عمل هو الخير.. صار ذلك الخير مثلا يحتذى يطرد العملة الرديئة من السوق.. وما وراءها من غش وخداع..

ونظفت البيئة.. وتطهر الجو.. بمقدار ما لهذا العمل من أهمية. تذيع بها الفضيلة..

والمسلم الذى يعقد العزم على المعصية كان المفروض بالمنطق البشرى - أن يمضى.. لاله.. ولا عليه..

ولكن الحق تعالى يتلطف به.. فيكتب له بهذا التراجع حسنة.. لأنه أسهم فى حماية المجتمع من جرثومة كان من الممكن أن تسرى عدواها إلى الآخرين..

والسنة المطهرة تقرر:

(أن الله غفر لأمتى ما حدثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلم).

فحديث النفس قد يفرض عليك.. ويلاحقك.. ولا تستطيع منه فكاكا.. وحينئذ.. فلا حيلة لك فى الأمر هنا..

أما إذا تكلمت.. أو فعلت.. فقد قدمت من لدنك نموذجا سيئا يراه الأبرياء فيحرك فيهم بواعث كانت نائمة..

من أجل ذلك.. حمَّلك الإسلام وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

من إرهاب الصورة إلى إرهاب السلاح:

فإذا تحولت الفكرة.. إلى كلام..

وتحول الكلام.. إلى عمل..

ثم تحول العمل إلى إرهاب.. وسطو.. واستغلال فلابد من التصدى له..

بماذا؟

بدراسة المذاهب التى تمول هذا الإرهاب.. وتمكن له..

وعلى سبيل المثال:

حين تتواصى الدول بإحباط مفعول خطف الطائرات.. فإنها تتعامل مع «شكل الظاهرة» ولكن.. يجب أن نعلم أن من وراء هذا الإرهاب فلسفات ومؤسسات.. تزينه.. وتموله. ويجب أن نتصدى لها.. بالحكمة.

وعجيب أمر هذه الفلسفات أو المؤسسات:

إنها تنهض لحماية الإنسان من تلوث الماء والهواء..

ثم هى تلوث فى نفس الوقت أفكار هذا الإنسان فتميته وهو حى.. بحيث لا يُجْدِ بهِ الهواء النقى.. ولا الماء الزلال!

وهى مفارقة عجيبة: حين تحميه من تلوث الجو.. بتطهيره.. ثم لا تجعل لهذا التطهير قيمة حين شحنت باطنه بالتمزق والخوف.. ويكفى أن نعلم: أنه يوجد فى العالم كميات من المتفجرات تعادل خمسة عشر طنا من مادة (ت. ان. ت) لكل ساكن من سكان الكرة الأرضية؟

إن هذا الخوف الرعيب لم يجعل للغذاء قيمة. فالشاة السليمة تطعمها

مربوطة.. وهى ترى الذئب يرصدها.. لا تستمرئ الطعام.. بينما العرجاء تسمن عندما تحس بالأمان!!

شبهة.. وردها:

وفى حلقة من سلسلة التمكين للرذيلة أن تنتشر.. حاول بعض الباحثين أن يكسب هذه النزعة طابعا علميا فقرر: أن التمرد على العقائد والتقاليد يخلص الإنسان من الشعور بالإثم عند ارتكابه.

ومن ثم فهو يرى أهمية نشر الموضوعات غير اللائقة، مثل الموضوعات الجنسية والصور الفاضحة لأن الخطر - كما يزعم الكاتب - على هذه الموضوعات يثير الفضول العام ثم يضرب مثلا لذلك بقوله:

تخيل مثلا أنهم أباحوا تداول الصور الشمسية الفاضحة.. ربما راجت لمدة سنة أو سنتين على الأكثر. ثم يملها الناس. ولا ينظر إليها أحد.

(وردنا على ذلك التبرير يتلخص فى نقطتين.

الأولى:

ليس كل ما يعتاده الإنسان يمله. وخاصة فيما يتعلق بالأمور التى تشبع الغرائز والشهوات، ومن أمثلة ذلك الأكل والشرب. فهما عادتان لا يمكن للإنسان أن يملهما. كذلك الغريزة الجنسية فلابد إذن من رادع.

الثانية:

أن القول بأن الناس تمل هذه الأشياء المنكرة مع الوقت قول مخالف لسنة الكون والحياة:

فكل يوم يموت كثير من الناس ممن فعلوا المنكر. ويأتى الكثير ممن يبحثون عنه. فإذا وجدوه متوفرا ومباحا استمر الفساد والانحراف دون انقطاع.

أما إذا وجدوا من ينهاهم عنه. ويحذرهم منه. ويأخذ على أيديهم إذا هم فعلوه تجنبوه)[1].

---

(١) حسن عابدين. رابطة العالم الإسلامى - جمادى الأولى ١٤٠١.

وقد يذهب الشطط بهؤلاء القوم حدا يتجاهل أبسط الدوافع الإنسانية.. حين ينكرون طبيعة النفس الإنسانية التى يحملونها من المسئوليات ما لا تطيق.. ويدعون عليها زورا ما لم تقدر عليه.. سيرا بها إلى مستقبل غير محمود الأثر ولا مأمون العاقبة..

يقول المرحوم الشيخ محمد الخضر حسين فى معرض الرد على واحد من هؤلاء الإباحيين:

(كتب - ملحد - يصف حال المسلمين فى فنلندا.. ومما جاء فى هذه المذكرة:

«إن الرجال والنساء يدخلون الحمامات. عارين وعاريات.. والأبصار مغضوضة والفروج محفوظة» فلعل الأستاذ يدعي للراقصين مع الفتيات هذا العفاف الذى ادعاه صاحب المذكرة للعارين والعاريات من الفنلنديين.

فإن ادعى هذا قلنا له: لأن تقول:

إن العفاف ليس بفضيلة، أيسر عليك من أن تلبس على الناس معنى العفاف، وتعد الخلاعة عملا سائغا).

فانظر كيف تحمس هذا التقدمي!! فى محاولته تبرير الرقص باسم الفن.. أن يجلب هذا الدليل من فنلندا.. كاذبا على الطبيعة وعلى الواقع.. شاهدا على نفسه بالزيغ والضلال.

كاشفا فى نفس الوقت إلى أى حد يبلغ التضليل مداه المنكر بل المتحدى لفطرة الإنسان.. التى يراد تدنيسها بمثل هذه الدعاوى التى لا تصبر على النقد الصحيح.

عندما تكون الأغانى بديلا عن القرآن!

يقول المؤرخون: إن أمراء الأسبان كانوا يتربصون بالدولة الإسلامية فى الأندلس ويرصدون تحركاتها للقضاء عليها. ومن أجل هذا الهدف كان هؤلاء الأمراء يبثون عيونهم فى أوساط المسلمين، ليروا: هل الفرصة متاحة أم لا؟

وفى بعض الفترات كانت تقارير هؤلاء العيون تقول:

إن من يمر فى المدن الأندلسية قبيل الفجر يسمع فى كل بيت قراءة القرآن، وأصوات الناس تدوى به كدوى النحل، وسيجد المساجد عامرة بالمصلين، وسيرى كل المسلمين وكأنهم جند الله حقيقة يعيشون به وله من أجل أن تكون كلمته هى العليا.

ومضت فترة وجاءت فترة تمكنت فيها عوامل الترف، وصنع الفساد الخلقى بالمسلمين ما صنع، وقالت تقارير عيون أمراء الأسبان عن المسلمين: إنهم يسهرون حتى الفجر يعزفون على المعازف ويسمعون الأغانى ويطربون ويرقصون.

لقد تركوا قراءة القرآن وتخلوا عن صلاة الجماعة، وتحولت أمتهم إلى أمم متعددة، وكانت هذه هى الفرصة المتاحة، وضاعت دولة المسلمين فى الأندلس وكان سقوطها منطقيا فى حكم التاريخ».

ولكن ما زال مسلسل التضليل سارى المفعول حتى اليوم.. على لسان أناس يجعلون من الرذيلة شعار التقدم:

(وويل لهؤلاء القوم المرائين الكاذبين، يفسقون ويزعمون أنهم يرقصون، ويقترفون صنوف السيئات والآثام، ويقولون: إنهم يغنون أو يطربون، ووالله ما اجتمعوا إلا ليختطف العاشق معشوقته من يد زوجها أو أخيها أو أبيها حين أعيته الوسائل إليها، أو لتفتش الزوجة التى ملت زوجها وسئمته عن عشير جديد غير مملول، أو ليلقى الأب بابنته العانس الشوهاء بين ذراعى فتى من الفتيان الأغرار، يرجو أن يعميه الشغف الحاضر بها عن النظر إلى عيوبها فيقع فى حبالها، ويصبح على الرغم منه زوجاً لها. إن كانوا يريدون الغناء، فلم لا يغنون إلا راقصين؟ أو الرقص فلم لا يرقص الرجل إلا مع امرأة، ولا ترقص المرأة إلا مع رجل، ثم لا

يرقصون إلا متلاصقين متماسكين، كأنهم بين جدران مخادعهم أو وراء أستار نوافذهم وأبوابهم. من لهذا الزوج الغبى الذى يلقى بزوجته عارية الصدر والظهر والذراعين والكتفين بين ذراعى فتى جميل ساحر يلاصقها ويخاصرها ويقبلها بين يدى شهواته ما شاء، أن تعود إليه ساعة تعود بالعقل الذى ذهبت به وبالقلب الذى كانت تحمله بين أضالعها، ومن لهذا الأب الأبله المأفون الذى يتبرم بابنته ويستثقل مكانها منه فيقذف بها بين مخالب هذه الوحوش المفترسة، ألا تعود إليه بعد قليل حاملة مع همها الأول همين آخرين: عاراً على رأسها، وجنينا فى أحشائها. إنهم يقودون على أنفسهم من حيث لا يشعرون، ويمزقون أعراضهم بأيديهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً»[1].

ولقد وعا أجدادنا الحكماء ما فى المجون والترف من خطر على مستقبل الأمة... فكانوا يوصون أولادهم وقومهم بنبذ ما يميت الحياء فى صدورهم... إبقاءً على هذه الفضيلة ـ الحياء ـ التى هى أساس البناء كله.

قال يزيد بن الوليد:

يا بنى أمية:

إياكم والغناء. فإنه ينقص الحياء. ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة.

وانه لينوب عن الخمر... فيفعل ما يفعل السكر.

وقال الإمام أحمد للسائل عن القراءة بالتلحين وقد أجابه بالمنع:

ما اسمك.

قال: محمد.

قال له الإمام: أيعجبك أن يقال لك: يا موحامد؟!.

وبهذه الصرامة فى التربية المبقية على عافية الأمة قامت دولة الإسلام فتية أبية... وما لحقتها الشيخوخة إلا من هذا السبيل. سبيل الترف وقد استغل أعداؤنا هذا المرض الوبيل ـ مرض الترف ـ فشجعوه.... وروجوا له.... فى ضوء علمهم بطبائع النفوس ونواحى الضعف فيها... فكان لهم ما أرادوا. وهو الشىء الذى تصدى له عمر رضى الله عنه بقوة !.

(١) مجلة الأزهر.

لقد نفى عمر رضى الله عنه شابًا آسر الجمال حذر الفتنة:

فانظر إلى فقه عمر رضى الله عنه وحكمته فى ردم منابع الفتنة:

فمع أن الفتى لم يقترف إثماً... وكل ذنبه أن قد فرض عليه الجمال الآسر... ومع أن من حقه أن يعيش فى مسقط رأسه... وبين أهله وأقرانه...

ومع أن من حقه أن يمارس حريته التى هى جوهر شخصيته.

إلا أن الخليفة يضرب بكل ذلك عرض الحائط؟

فمصلحة الفتى فردية..

ولابد أن نضحى بها فى سبيل مصلحة جماعية.

لقد وجده فى بيئته يؤجج الغرائز فى نفوس ضعيفة الاحتمال ضعيفة المقاومة... وأين هذا مما يحدث اليوم؟!.

إن أجهزة الإعلام تتبارى فى إبراز المحاسن... والمفاتن... والدخول بها قسرا على الناس حتى فى مخادعهم.

وأينما تكونوا تدرككم الفتنة!.

بل إن الأطفال - من البنين والبنات - استُخدِموا فى الإعلان عن واردات الموضة والترويج لأدوات الزينة والمنكر!!.

أهمية الثقافة المخلصة:

لابد من تزويد الشباب بمختلف المعارف الإسلامية الصادقة المحبطة لهذه المحاولات. التى تصحح معلوماته.

يقول الدكتور محمد مندور[1]:

«فى اعتقادى أن نشر الثقافة وحسن استخدام أجهزتها يعتبر من العوامل الفعالة فى إصلاح مانشكو منه أحياناً من فساد فى الخلق أو ضعف فى الشخصية. أو عجز عن تحمل المسئولية وحل للمشكلات التى قد تواجهنا فى الحياة.

وذلك لأن الثقافة لم تعد ترفاً عقليًا. بل وسيلة حياة نستطيع أن ندرك قيمتها لو تصورنا انتشار وباء فى الورق يأتى على ما جمعت الإنسانية فى خزائنها من كتب.

(١) الثقافة وأجهزتها ١٣، ١٤.

والكتب ليست خزائن للمعرفة فحسب.

بل هى أيضاً وسائل للتفكير.

وإذا كانت المعرفة هى وسائل للسيطرة على الطبيعة. وعلى الحياة وتسخيرهما لخير الإنسان. . فإن تدريب الذكاء هو خير وسيلة لتذليل الحياة بين يدى الإنسان.

وذلك لأن الذكاء فى رأى معظم المفكرين هو القدرة على حل المشاكل التى تعرض لأول مرة. وفى رأى البعض الآخر: هو القدرة على ملابسة الواقع والتكيف معه[1].

ومن الواضح أن الذكاء لا يستطيع أن يقوم بهاتين الوظيفتين الخطيرتين ما لم يدرب ويغذى بالثقافة.

ولا أقصد بالثقافة ما يتلقى فى دور التعليم. . . فهذا التعليم ما هو إلا الأساس. أو الوسيلة للثقافة التى نبغيها لمواطننا كعلاج ناجح للكثير من مواضع الضعف المتفشية بينهم».

حتى لا يضيع الحصان!.

اقترح وزير الأوقاف الدكتور الأحمدى أبو النور بأن تذاع «ندوة الرأى فى الفترة ما بين المغرب والعشاء. واستجاب وزير الإعلام صفوت الشريف. . . وعلى الاستجابة مزيد من الاعتزاز بقيم الشباب التى استعد أن يكسبها ولو خسر مليون جنيه. ولقد أصر المسئول على إذاعة برنامج «الأسبوع الرياضى» فى زمان إذاعة الندوة إرادة صرف الشباب عن مرارة الحق إلى متعة لا يستطيعون عنها حولاً.

اقتراح قديم:

وهمة وزير الإعلام تحملنى على رجائه. . . وهو يعد الآن لبرامج رمضان. . . إلى إعادة النظر فى الفترة من المغرب إلى العشاء فى شهر الصيام لإتاحة الفرصة لأولادنا أن يؤدوا صلاتى المغرب والعشاء. . . والقضاء على إحساس الشباب أن الصوم سجن يخرجون منه الآن إلى رحاب الدنيا الواسعة. وفى هذا اقتراح سابق لى أعلنته من قبل. إن طوفان الفوازير يحبط فى كيان الشباب ما حصلوه طول النهار من متعة أداء الواجب التزاماً بأمر الله تعالى. وإنى أتساءل. . . ما مدى

(١) لكنها فى الإسلام: ملابسة الواقع وتكييفه والارتفاع به. وعدم الخضوع له.

الحاجة إلى برامج الترفيه. . . فى هذه الفترة بالذات، ربما ـ إذا كان ولابد ـ كانت سكرة الجوع قبيل المغرب أولى بالترفيه قتلاً للوقت الذى يمر حينئذ بطيئاً. . .لاسيما وهى لن تضيع فرضاً فلماذا الفوازير بعد المغرب بالذات مع إمكان الاستغناء عنها. اتركوا الفرصة لأولادنا كى يؤدوا الصلاة وافعلوا ما شئتم بعد أن يؤدوها. ومن حسن الحظ أن اقتراحى بتفريغ هذه الفترة من الفوازير يتاح فيها الفراغ لأداء الصلاة حظى بموافقة لجنة الاقتراحات بمجلس الشعب. . . الأمر الذى يجعل منه إرادة شعبية تطلب التنفيذ.

البذرة القوية والتربة الضعيفة:

قال وزير الإعلام. إن البرامج الدينية تبث على مدى أكثر من ١٤ ألف ساعة سنوياً، فى حين أن بث البرامج الترفيهية يبلغ ٨ آلاف ساعة فقط. . . وأنا أقول للسيد الوزير: إن قليل النار غير قليل، فالبرنامج الترفيهى قادر على أن يحبط مفعول الساعات الطوال من البرامج الدينية. إن بذرة المانجو كما يقول بعض العلماء: قوية تستجيب لها الطبيعة من حولها فتمنحها الماء والهواء وتفسح صدرها لتمد جذورها ومن ثم تثمر من كل زوج بهيج. . لكن ما قيمة البذرة القوية فى التربة الضعيفة السبخة التى لا تقلب لها التربة ولا تتقى لها الجو؟ إنها سوف تولد لتموت. . .فإذا صام الشاب واستوت فى قلبه قيم الصبر والثبات ونمت روح التعاون فى حياته ثم فتحنا الباب إلى ساحة اللهو العابث، بينما القيم تتكامل فما تغنى القيم عن قوم لا يفسحون لها الطريق. . . ومن ناحية أخرى قالت المرأة العربية المسلمة:

« كنا ننهى الصبى إذا بلغ العاشرة وحضر من يستحى منه ـ أن يتبسم «أوليس شهر رمضان مما يستحى منه وهو شهر القرآن وكرامة الإنسان. . . ولماذا الإصرار على تلوين البرامج الدنيوية بالذات فى وقت هو الفرصة الذهبية التى تتحقق فيها أهداف الحكومة من: ترشيد الاستهلاك والانضباط والكف عن المحرمات. . .إنك يا سيادة الوزير مسئول أمام الله أولاً ثم أمام الحكومة التى تلتزم بتنفيذ خطتها أن تعين الشباب على أمر الله تعالى.

إن هذه المقاصد لتتحقق تلقائيًا وبلا ميزانيات ورجال وحركة فلم لا نستجيب استجابة لا نخسر بها ملايين الجنيهات، بل نوفر للدولة أمثالها. . . إن ضياع

اللحظات المباركة فى حياة شبابنا ضياع للحظات الإخصاب وتكون الشخصية المسلمة... إن فقدان المسمار أضاع حدوة الحصان... وفقدان الحدوة أضاع الحصان... وفقدان الحصان... أضاع الفارس.

وما أكثر الفرسان الذين يسقطون فى لحظة من لحظات طوفان يهيج سكينة النفس مدا وجذراً وما أكثر الأصابع التى تضغط على الزناد لتطلق الرصاصة القاتلة ثم تسلم بالأخرى مفتاح البيت خيانة وخمراً كل ذلك بدافع من غريزة التقليد تقليداً للهو المفروض علينا.

عود على بدء:

وإذا طالب الدكتور الأحمدى أبو النور الآباء أن **يقوموا بدورهم فى العناية** بأولادهم ـ وذلك فى اليوم الثانى على التوالى ـ **فأنا أطالبه باسم هؤلاء الآباء أن** يعيننا الإعلام على ذلك. إن مهمة الإعلام ليست فى زيادة البرامج الدينية وإنما أولاً فى التخلص من كل الأعشاب الطفيلية التى تتنامى إلى جانبها فتمتص منها رحيق الحياة لتصبح زهوراً ولكن بلا رائحة.

وإذا قال الكواكبى: ما بال الزمان يضيق علينا برجال ينبهون الناس... ويرفعون الالتباس، ويفتكرون بحزم ويعملون بعزم ولا ينفكون حتى ينالوا ما يقصدون... إذ يقول الكواكبى ذلك فإننا نحمل الإعلام مسئولية إعداد هؤلاء الرجال.

إن النبات يا سيادة الوزير لا يورق إلا فى درجة حرارة معينة فإذا زادت أو نقصت ذبل النبات، ومن الحقيقة الكونية إلى الحقيقة النفسية التى تعزز أختها مؤكدة: أن قيم الإيمان لا تورق إلا فى مناخ مناسب. هل يكتفى الإسلام من المسلم أن يخرج من بيته إلى صلاة الجمعة رأساً ولحظة تكبيرة الإحرام. أبداً... إنه يشجع على التبكير للصلاة بحيث يصير المبكر أكثر أجراً لماذا؟ إنه يتوخى توفير الجو الروحى وقبل الصلاة بوقت طويل تتوارى فيه أشباح الشارع، وأحلام الكسب والخسارة، وأصوات الأحياء الصاخبة حتى إذا حان وقت الصلاة دخلها بنفس خالصة من هذه الشوائب فجاءت على مراد الله عزوجل... فإذا لم نوفر لشبابنا ـ فى رمضان على الأقل ـ هذا الجو الروحى، فاتت فرصة التربية... وقد لا تعود... والله معك يا سيادة الوزير.

التشويش على القيادة المؤمنة

التشويش على القيادة المؤمنة

كان المستشرق «زويمر» يدعو إلى حملة تستهدف القيادات الإسلامية. . . ولما كان من المستحيل زحزحة هذه القيادات عن الإيمان. . . بعد أن يئس الشيطان نفسه من إغوائهم. فقد رضى بحملة تشويه تهز صدورهم فى وعى المسلمين. . . لتهتز تبعاً لذلك المبادئ التى يمثلونها. . وتكون النتيجة انصراف المسلمين عن رموز الإسلام. . . ويصبح المجتمع الإسلامى فوضى. . . بلا قيادة.

وقد بدأت هذه الحملة من قبل «زويمر» عندما آثار المنافقون «حديث الإفك» ثم صارت من بعد جزءاً فى خطة محكمة.

ونأخذ هارون الرشيد مثالاً على ذلك:

لماذا الرشيد بالذات؟

وقد كان التركيز على هارون الرشيد بالذات؛ لأنه مثل الإسلام خير تمثيل - بغض النظر عن بعض الهنات الهيئات -

أ - كان عصره يمثل العصر الذهبى للإسلام.

ب - استطاع أن يثبت دعائم الخلافة رغم بعض المناوئين من أقاربه والحاقدين من الأجانب.

جـ - وكان هذا مما يحزن المتربصين بالإسلام فقرروا تشويه تاريخه. . . ليضربوا الإسلام من خلاله.

يقول بعض الباحثين:

«لقد استطاع خصوم الإسلام أن يروجوا الروايات المصطنعة للنيل من الإسلام ورجاله، ولم يشعر المسلمون بهذا الخطر.

فمثلاً يلفق هؤلاء روايات عن هارون الرشيد تظهره كملك الخمر والنساء وروج ذلك جورج زيدان فى رواياته التاريخية حتى أصبح اسم هارون الرشيد مقترناً بالمجون والخمر والنساء على الرغم من أن ابن خلدون فى مقدمته قد نـه

(١) سنفرد له مكانا فى هذا البحث.

إلى ذلك بقوله:

ما علمنا عليه من صحبة سوء فقد قام بمنصب الخلافة من الدين والعدالة وبما كان عليه من صحبة العلماء والأولياء ومحاورته للفضيل بن عياض وابن السماك ومكاتبته سفيان الثورى وبكائه من مواعظهم وما كان عليه من المحافظة على أوقات الصلوات، بل روى الطبرى وغيره أنه كان يصلى من كل يوم مائة ركعة نافلة ويغزو عاماً ويحج عاماً.

ويؤكد الإمام الطبرى أنه روى أخباراً شنيعة لا تقبل وذلك أداء للأمانة نقلاً عن غيره فيقول: «فما يكون فى كتابى هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماجنين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً صحيحاً ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أوتى من بعض ناقليه إلينا، وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا».

وفى ذلك يقول ابن خلدون: «وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالطات فى حكايات الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط»[1].

يقول الدكتور البوطى: الرشيد المفترى عليه

أما الآن فلنتجاوز العصر الأموى إلى الخلافة العباسية. ولنصغ إلى شىء من الكلام الكثير الذى يقال عن حياة الرشيد وأخلاقه الشخصية... إن أحدنا ليتصور وهو يسمع هذا الكلام وأن هارون الرشيد لم يكن أكثر من إنسان كان يتطوح بين دنان الخمر، وأن معظم لياليه كانت وقفاً على اللهو والمجون.

تلك هى الصورة التى رسمت له فى كثير من كتبنا المدرسية وهى التى رسمت من قبل فى كتب أكثر المستشرقين، ثم فى كتب ممن يسيرون وراءهم تجملاً وتقليداً.

ولعلى لا أنسى تلك الكلمة التى ظلت مثبتة إلى عهد قريب فى بعض الكتب المدرسية لإحدى سنوات المرحلة الإعدادية عن ترجمة هارون الرشيد وما انتهى إليه

(١) الوعى الإسلامى رجب ١٤٠٤.

حاله من البذخ والترف... وخلاصتها أنه قد بلغ من بذخ هارون الرشيد أنه كان ينفق على إعداد طبق جانبى صغير على مائدته ما يزيد على ألف درهم.

تلك هى الصورة التى كانت ولا تزال تحشى بها أخيلة أطفالنا الصغار، عن تاريخنا العربى والإسلامى وعن كثير من قادة هذا التاريخ وأساطينه... ولا ريب أن هذا هو أقرب السبل إلى إثارة أهم أسباب التقزز فى نفوس هؤلاء الصغار تجاه تاريخهم الذى هو مصدر فخارهم وأرومة عزهم.

ومع ذلك فليس المهم أن يتقزز هؤلاء الفتية أو لا يتقززوا.. إنما المهم أن تكون الصورة صحيحة وأن نجد فى أحداث التاريخ ما يؤيدها ويبعث الحياة فيها.

وننطلق فنغوص مرة أخرى فى أغوار التاريخ العباسى وفيما أثبتته أمهات كتب التاريخ عن ترجمة هارون الرشيد بحثاً عن أى جذور لهذه الصورة فلا تعود إلا بما يلى:

روى الطبرى فى ترجمة هارون الرشيد أنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وأنه كان يصلى فى اليوم والليلة مائة ركعة، ما لم يعتل بعلة أو يكن مشغولاً بغزو... وأنه لم يكن يقطع فى أمر من أمور المسلمين إلا بعد الرجوع إلى الصالحين من أهل العلم.

وهذه الترجمة، لا تعنى أن الرجل كان معصوماً عن الأخطاء والآثام... بل لا ريب أنه كان على الرغم من هذه الصفات التى نعته بها الطبرى وغيره، واحداً من البشر يجوز عليه الزلل والعصيان، قد يجتهد فيخطئ ... وقد يغضب فيزل... وقد تجمحُ به نفسه فيقع فى عصيان...ولكن تلك هى ترجمته فى الجملة على كل حال والمهم أننا لم نجد فى شىء من أمهات الكتب التاريخية أن الرجل كان كما يقول هؤلاء: يعيش حياته متطوحاً بين دنان الخمر يقضى لياليه غارقاً فى اللهو والمجون.. بل الحق أننا لم نجد له هذه الصورة إلا عند فيليب حتى وجرجى زيدان وأمثالهما.

أما قصة الطبق الذى كلف ألف درهم فمرد ذلك إلى ما رواه المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» وهو خبر يزيدنا إعجاباً بسيرة هارون الرشيد ومدى خوفه من الله عزوجل.

وها أنا أنقل خلاصة ما رواه المسعودى فى ذلك:

حدث إبراهيم بن المهدى، قال: زارنى الرشيد بالرقة فوجد حرٍّ بين ما قرب إليه من الطعام جاماً فيه ما يشبه سمكاً مقطعاً، فاستصغر القطع، وقال لم صغر طباخك تقطيع السمك قلت: يا أمير المؤمنين هذه ألسنة أسماك، قال: فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان!.

فقال خادمه: يا أمير المؤمنين فيها أكثر من مائة وخمسين فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم..

فرفع الرشيد يده وحلف أن لا يطعم شيئاً حتى يحضره ألف درهم، فلما حضر المال أمر أن يتصدق به، وقال: أرجو أن يكون كفارة تسرفك فى إنفاقك على جام سمك ألف درهم.

ثم ناول الجام بعض خدمه وقال: اخرج من دار أخى ثم انظر أول سائل تراه فادفعه إليه، قال إبراهيم: وكان الجام يساوى مائتين وسبعين ديناراً، فغمزت بعض خدمى للخروج مع الخادم ليبتاع الجام ممن يصير إليه، ففطن الرشيد فقال له:

يا غلام إذا دفعته إلى سائل فقل له: يقول لك أمير المؤمنين احذر أن تبيعه بأقل من مائتى دينار، فإنه خير منها.

تلك هى الصورة السيئة المشينة، وهذا هو أصلها الرائع العظيم.

فياللعجب من كاتبين ومؤرخين ينكسون الواقع تنكيساً، ويكرهونها بعملية «مونتاج» مخجلة ليجعلوا منها شاهد زور ضد أبطالنا، مما يقدمون هذه الافتراءات مادة تربية وعلم إلى الأطفال البرآء.

أأزيدك يا أخى القارئ أمثلة ونماذج؟ إن فى الجعبة أمثلة كثيرة أخرى ولكن مساحة هذا البحث لا تتسع لكل ذلك، وإن بعض القول الغناء عن الاسترسال؟

والمهم أن أعود فأقول: إن المذهب الذاتى فى كتابة التاريخ، لم يكن فى حقيقته سوى إجازة مرور شرعية إلى العبث بالتاريخ وأبطاله، ليتحول التاريخ بعد ذلك إلى مجرد خادم صغير، يهيئ لكل فرقة مسرحها الذى تهواه والمناظر المنسجمة معه. وما دامت الفرق المسرحية شتى، ومصالح الناس متفرقة، فمرحباً بالاختلافات والأخيلة المتناقضة يرزح تحتها جميعاً منكب التاريخ[(١)]

---

(١) د/ محمد سعيد رمضان البوطى.

الرشيد صانع الحضارة:

يزعمون ذلك. . . ناسين. . . بل متناسين كيف كان هارون الرشيد في طليعة صناع الحضارة.

يقول الدكتور، خليل صابات[1].

« في العصور الوسطى حدث تطور أساسى فى حياة الكتاب. . . عندما عرفت أوروبا الورق بواسطة العرب الذين تعلموا فن صناعته من الصينيين فى النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى:

ففى عهد الخليفة هارون الرشيد العباسى انتشرت مصانع الورق فى بغداد وفى غيرها من مدن العالم الإسلامى.

وانتقلت هذه الصناعة فى القرن العاشر إلى مصر. وبعد ذلك وصل الورق إلى أوروبا. عندما أدخله العرب إلى أسبانيا.

وتعتبر طليطلة أول مدينة فى القارة الأوربية يصنع الورق فيها[2].

وهذا هو هارون الرشيد الذى حاولت أجهزة مغرضة أن تصوره فى ثوب ماجن عابث !.

ولا يزالون مختلفين !.

وإذا كان أعداء الإسلام منطقيين مع أنفسهم وهم يحاولون التشويش. . . بل تشويه هذه الوجوه الوضيئة. . فما هو عذر المخدوعين من المؤمنين. . - إذا هم - مع هذه الحقائق - فى أمر مريج من حياة الرشيد. . . وعهده العتيد؟

ولقد تعجب عندما تقرأ لمروان بن أبى حفصة فى هارون الرشيد مادحاً:

وسدت بهارون الثغور وأحكمت ... به من أمور المسلمين المرائـــــــر

وما انفك معقودا بنصر لـــواؤه ... له عسكر عنه تشظى العساكـــــر

وكل ملوك الروم أعطاه جزيــة ... على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر

ثم تقرأ فى نفس الوقت قول «دعبل بن على» قادحا. . لقد هجاه مشيرا إلى

(١) وسائل الإعلام ١١.   (٢) وسائل الإعلام ١١.

اجتماع قبرين فى طوس:

قبر الرشيد. وقبر «على الرضا»:

قبران فى طوس: خير الناس كلهــم　　وقبر شر همو هذا من العبـــــــــر

ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا　　على الزكى بقرب الرجس من ضرر!

وبعـــــد:

فقد كان هارون الرشيد يحج سنة ويغزو أخرى.. وكان المستشرق إذا فرض عليه أن يقول ذلك قال:

كان الرشيد يحج كل سنتين.. ولا يذكر الغزو! ويلاحظ بعض الكاتبين هنا: خبث الأعداء الذين لا يريدون بروز الوجه الإيجابى الفاعل لهارون الرشيد كحامل لواء الجهاد.. فليحذر المؤمنون.. وليعلموا أن تشويه القيادات المؤمنة.. يترك أمتنا بين الأمم هملا.. بلا نسب. وبلا تاريخ.

سلاح الخوف

سلاح الخوف

تمهيـــــد :

المعركة بين الحق والباطل تؤكد: أنه لا بقاء لأحدهما إلا بفناء الآخر. . وقد علم الحق سبحانه وتعالى بمكر الأعداء المستمر. وإعدادهم الدائب لتنحية الحق ومحاولة إطفاء نوره. . فأمر عباده المؤمنين بأن يعدوا أقصى ما يستطيعون من قوة. . ليواجهوا بها أقسى ما يلاقون من احتمالات. وذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾(١).

والقوة هنا: قوتان:

أ ـ قوة مادية تتمثل فى التسلح بكل جديد.

ب ـ قوة روحية تتمثل فى إعلام هادف نستحيى به هذه القوة المادية.

وقد فهم أعداؤنا ما للحرب النفسية من أثر، فجعلوا منها فنا قائما بذاته، ينوب عن السلاح المادى فى التنكيل بأمة الإسلام:

لقد علموا أن ثمانية وتسعين فى المائة من المعارف تصل إلى الإنسان عن طريق السمع والبصر. . فاخترعوا من الوسائل ماسيطروا به على هاتين الحاستين. . اللتين لا تشبعان كما تشبع المعدة وعن طريقهما حاولوا تشكيل وجدان الأمة وعقلها، لتصبح أمة بلا شخصية.

خطة الأعداء:

يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) المجادلة: ١٠.

ويقول تعالى:

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]

خطة الشيطان:

تتلخص خطة الشيطان المريد وجنوده من الجن والإنس فى التمكين لانفعال الحزن فى قلوب المؤمنين. أسفا على ما فات.. ثم لانفعال الخوف.. قلقا على المستقبل.. ولو تحققت أمانيهم.. لضاع المؤمن بين مخافتين..

ولكن الآيتين الكريمتين تبادران أولا إلى بوار كيد الشيطان وضلاله، وذلك قوله تعالى فى الآية الأولى:

﴿...... وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله..﴾.

وقوله سبحانه فى الآية الثانية:

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً..﴾.

أى أن كيد الشيطان إلى بوار.. وحتى لو أصيب الإنسان فإن ذلك بقدر الله تعالى ولا دخل للشيطان هنا..

وما على المؤمنين إلا أن يقوموا بدورهم: توكلا على الله تعالى.. وتفويضا إليه.. وفقها لمكر الشيطان الذى أشارت إليه الآية الكريمة:

فهو يخوف بالفقر أولا..

حتى إذا ضمن استمالة الإنسان إليه فبخل بماله ومنع الزكاة.. تقدم الخطوة التالية أكثر ثقة بنفسه فأمر بالفحشاء من منطلق القوة.. ويجب ألا يمكنه المسلم من ذلك!

إشاعة الخوف:

(عندما يهمس الشيطان همسته الأولى فى أذن إنسان بأنه صاحب حق فى البطش بالآخرين فإنه يكون قد مهد بهذه الهمسة بزرع حقل من الألغام المخادعة:

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

فلان يكرهك.

فلان يحقد عليك..

فلان يطمع فى منصبك..

فلان يتحدث عنك بالسوء فى غيبتك..

فلان يتآمر عليك..

فلان يخدعك..

وعندما يصبح الشيطان واثقا من أن سمومه قد أينعت، وأصبحت فى عقل الإنسان حقائق مسلما بها، يبدأ رحلة التحريض، ولما كان الخوف هو عدو الإنسان الأكبر فإن تحريضه على العدوان بحجة الدفاع عن النفس يكون أيسر الأشياء.

ومن سوء حظ الإنسان أن الشيطان يرتدى مئات الأقنعة:

فهو يهمس له فتبدو همساته كأنها حديث النفس.

فإذا لم يستجب له عاد يهمس بلسان صديق من البشر.

فإذا لم يقتنع ألحَّ عليه بالفكرة عن طريق شخص آخر.

وهكذا، حتى يظن أن ما يوسوس به هو الحق)[1]

شياطين الإنس وهيكل الخوف:

وهكذا تفعل القوى العدوانية اليوم.. والتى تحاول إشاعة جو من الذعر أو الخوف.. لتتمكن من الصيد فى هذا الماء العكر وهكذا تقول الأساطير:

أسطورة:

ذكروا فى أساطير الأولين أن هيكلا عظيما كان خارج مدينة إصطخر وربما آوى إليه بعض سراة الليل إذا اشتدت بهم وحشة الظلام وما آوى إليه أحد إلا غالته المنية فيأتى طلاب أثره لقص خبره فيدخلون الهيكل فى ضوء النهار فيجد به ميتا ثم لا يهتدون لسبب موته لسلامة بدنه من كل ما يعد سببا للموت واشتهر أمر الهيكل بين السابلة والقطان وأخذ كل قاصد حذره من الميت به حتى ضاقت الدنيا

(١) من كلمة للأستاذ عبد السلام داود بجريدة الأخبار القاهرية.

برجل فاختار الموت على الحياة وصعب عليه انتحار نفسه بيده فذهب إلى الهيكل لعله يصادف منيته فإذا بالقرب منه رجال نصحوه وحذروه عاقبة الهلاك فلم يصغ إليهم وقال: إنما أتيت لتلك العاقبة وانفلت من نصحائه إلى حيث يظن مهلكه فلما توسط الهيكل فاجأته أصوات مزعجة هائلة كأن جمعا عظيما يخاطبه ها نحن قد أتينا لإتلافك، ها نحن قد أتينا لإزهاق روحك ها نحن وصلنا لتمزيق بدنك وسحق عظامك فصاح اليائس ألا فأقدموا فقد سئمت الحياة ولم يتم كلامه إلا وقد حدثت فرقعة شديدة وانحل الطلسم وانشق الجدار وتناثرت منه الدراهم والدنانير وتفتحت أبواب الكنوز فاطمأن الخائف ونام حتى أصبح ولما أضحى النهار وجاء الواقفون على خبره ليحملوا جنازته وجدوه فرحا مستبشرا يسألهم بعض الأوعية لحمل ما وجده من الذهب والفضة فاستخبروه قصته فبعد البيان علموا أن هلاك من هلك إنما كان بالفزع من تلك المزعجات التى لا حقيقة لها.

وأعداؤنا اليوم هيكل عظيم يأوى إليه المغرورون إذا أوحشت مظلمات السياسة فتدركهم المنية بمزعجات الأوهام وكم هلك بين جدرانه من لا مريرة لهم ولا ثبات لجأشهم، وأخشى أن يسوق اليأس إليه قوى المريرة ماقت للحياة فما يكون إلا هنيهة يصعد فيها صوت اليأس فينقض الجدار وينحل هذا الطلسم الأعظم.

ونضيف أن ذلك ما تفعله إسرائيل التى تعلن دائما عن يدها الطويلة التى تستطيع أن تضرب أعداءها فى أى مكان.. بلا تردد.. وبلا خوف.. إنها أسطورة الجيش الذى لا يقهر!!

وهذا ما يريده الإعلام المادى:

أن نعقل: بغير عقولنا

ونرى.. بغير أعيننا..

ونسمع.. بغير آذاننا..

وفى سبيل ذلك.. يستغل طبيعة الإنسان لصالحه:

فحياة الإنسان اليومية لا تخلو من انفعالات:

الغضب.. والخوف.. والقلق..

الخوف على الرزق.. وعلى الجاه.. وعلى الحياة.. والقلق من المستقبل المجهول..

وعندئذ تضطرب خلايا المخ نتيجة لهذه الانفعالات.. فيستغلها الإعلام الموجه اليقظ فرصة ليفرض فكرةً معينة فى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى.

نماذج من أحد

جاء فى تفسير المنار:[1]

(قال طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين:

يا معشر أصحاب محمد:

إنكم تزعمون أن الله يعجلنا بسيوفكم إلى النار..

ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة..

فهل منكم أحد يعجله الله بسيفى إلى الجنة؟ أو يعجلنى بسيفه إلى النار؟

فقام إليه على بن أبى طالب فقال:

والذى نفسى بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفى إلى النار، أو يعجلنى بسيفك إلى الجنة.

فضربه علىّ، فقطع رجله، فسقط، فانكشفت عورته، فقال:

أنشدك الله والرحم يا ابن عم.. فتركه.

فكبر رسول الله ﷺ، وقال أصحاب على له:

ما منعك أن تجهز عليه؟ قال:

إن ابن عمى ناشدنى حين انكشفت عورته. فاستحييت منه، ولم يعترض عليه رسول الله ﷺ).

وما أجمل ما فعله أبو دجانة رضى الله عنه بين يدى أحد.. فكان ما صنعه ردا عمليا على التحدى الجائر بمثله..

فعندما تناول أبو دجانة السيف من رسول الله ﷺ بحقه (راح يتبختر بين الصفوف فما أنكر عليه رسول الله وإنما قال:

«هذه مشية يكرهها الله إلا فى مثل هذا الموضع» وهذا يدل على أن كل مظاهر

---

(١) المنار ج ١٤٩/١٦.

الكبر المحرمة فى الأحوال العادية تزول حرمتها فى حالات الحرب..

فمن مظاهر الكبر المحرمة أن يسير المسلم فى الأرض مرحا متبخترا.

ولكن ذلك فى ميدان القتال أمر حسن وليس بمكروه..

.. فمظهر الكبر هنا إنما هو فى حقيقته افتخار بعزة الإسلام على أعدائه.

ثم هو معنى من معانى الحرب النفسية التى ينبغى ألا تفوت المسلمين أهميتها)[1].

بعد القتال:

فى أعقاب أحد نادى أبو سفيان فى المسلمين:

(أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبى قحاف؟ أفيكم ابن الخطاب؟

فنهى رسول الله أصحابه أن يجيبوه.

فلما لم يسمع جوابا صاح فى قومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم - يريد أنهم قتلوا، فلم يجيبوا - فأجابه عمر:

«كذبت والله يا عدو الله، قد أبقى الله لك ما يسوءك»

فعرف أبو سفيان صوته فسأله:

أنشدك الله يا عمر، أقتل محمد؟

فقال عمر: اللهم لا، وأنه ليسمع كلامك الآن..

فقال أبو سفيان: أنت أصدق عندى من ابن قميئة وأبر، ثم قال: إنكم ستجدون فى القوم مُثْلة، لم آمر بها، ولم تسؤنى.

ثم صاح: اعلُ هبل. اعلُ هبل!

فقال النبى لعمر وصحبه:

قولوا له: «**الله أعلى وأجل**».

فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم.

---

(١) فقه السيرة. د. محمد سعيد رمضان ١٩١، ١٩٢.

قال النبى ﷺ: قولوا له:

«الله مولانا ولا مولى لكم».

قال أبو سفيان: موعدكم بدر للعام القادم.

قال النبى ﷺ:

قولوا له: **«هو بيننا وبينكم موعد»**[1].

تهافت الإعلام المادى:

إن أبا سفيان هنا يستغل لحظة ضعف فى حياة المسلمين ليضرب ضربته.. وها هو ذا يستعرض عضلاته.. وتسكره خمر النصر المؤقت فيحاول أن يتحدى المسلمين بلقاء قريب يصفى معهم حساب غزوة بدر!

وقبل أن يسترسل فى أمانيه الكذاب.. وفى اللحظة التى يشتد إحساسه بالتفوق.. يفاجئه صوت عمر الذى أضاع أمله ووضع حدا لغروره.

وفى ضوء هذا الموقف تتحدد بعض معالم الإعلام الإسلامى والذى لا ينبغى أن يسترسل فى مهاترات مع العدو الراغب فى معركة كلامية من هذا النوع سوف يتفوق فيها قطعا بما أوتى من وسائل التهريج..

ولذلك ينهى ﷺ أصحابه أن يجيبوه أولا.

فلما وصل به الغرور بهبل.. واللات.. وثقته فى نصر قريب وفى الموعد الذى حدده.. حانت الفرصة لتطلع شمس الحق ليتبخر على وهجها ذلك الغرور الذى لا مسوغ له وذلك عن طريق المنطق النبوى الذى واجه التحدى السافر من أبى سفيان بما يعبر عن قوة المسلمين التى لم تتأثر بالهزيمة العارضة..

وما زالوا مستعدين لهذا اللقاء المحدد.. ورحم الله امرءًا يرى المبطلين من نفسه قوة.. وقد حقق المنطق النبوى ثمرته..

فقد أرسلت قريش «نعيم بن مسعود الأشجعى» إلى المدينة فأشاع أن قريشا قد جهزت للمسلمين جيشا عظيما.. تريد تخويف المسلمين..

---

(١) أحمد التاجى سيرة النبى العربى ﷺ.

وخرج الرسول فى الموعد المحدد، فلم يجد أحدا، حيث أخلفت قريش موعدها.. وحقق الإعلام الصادق نتائجه وانحسر الإعلام المادى مخذولا مدحورا.

ولم يكن قصارى جهد الإعلام الإسلامى أن يتقى الخوف عن المسلمين.. بل إنه بالإضافة إلى هذا ينقل المعركة إلى داخل نفوس الأعداء ونجح فى زرع الخوف فى قلوبهم.. فرد السهم إلى نحورهم.

وفى تعقيب على هذا الموقف نقرأ ما كتبه الدكتور سعاد جلال:

قال تعالى: **﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾**.

لما انتهت غزوة أحد بالمصير الذى انتهت إليه، نادى أبو سفيان المسلمين أن موعدهم «بدر» العام المقبل يتهددهم باستئناف القتال فى ذلك الموضع: فقال النبى لأصحابه قولوا له نعم، فقالوا له نعم يردون على تحديه بالمثل:

وجاء العام المقبل فخرج النبى وأصحابه للقاء عدوهم فى «بدر» استجابة لتحدى أبى سفيان واستهانة بتهديده لهم: فلما علم بذلك ولم يكن تأهب لحرب، أرسل إليهم نعيم بن مسعود الأشجعى يخوفهم بأن قريشا جمعوا لحربهم جموعا كثيرة ويزين لهم عدم المضى لبدر والرجوع بأنفسهم إلى المدينة لكنَّ المسلمين لم يخافوا من هذا الإرجاف، وصمموا على بلوغ بدر وملاقاة عدوهم مهما كثرت جموعه: وقالوا فى تثبيت ذلك:

﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، أى يكفينا الله كيد أعدائنا وهو نعم الحفيظ فلما بلغوها لم يجدوا أحدا ينتظرهم هناك من قريش ولم يجدو أبا سفيان فَعَلا أمرهم فى جزيرة العرب وترجح جانبهم وظهر أمام الناس من أعز بالله ناصراً وأشجع جندا.

وكانت «بدر» سوقا تكثر فيه السلع وكان النبى قد أعطاهم دراهم يصرفونها فاشتروا بعض السلع وتاجروا فيها فربحوا منها ثم رجعوا إلى المدينة مغمورين

بنعمة الله عليهم وهى الانتصار الأدبى على أعدائهم والله ذو الفضل العظيم على أوليائه الذين يحسنون التوكل عليه ينصرهم على أعدائهم دائما.

من آثار عقدة الخوف:

وقد نجحت القوى العدوانية فى حمل دول مسالمة على أن تتحول إلى «ترسانة أسلحة» فى الوقت الذى لا تحتاج فيه إلى سلاح.. وقد لا تمكنها ميزانيتها من شرائه.. وكان الأجدر بها أن توجهه لخدمة مرافقها البالية:

ونكتفى هنا بمثالين.. نشرتهما جريدة الأهرام وجريدة الرياض:

التفاح والسلاح.. وحبوب منع اللقاح:

قلبى يتمزق ورأسى على ما يدور حولنا فى العالم المتحضر. فلقد نشر أن أوروبا أنفقت هذا العام ٩٥٠مليون دولار على تغذية الحيوانات من السلع الغذائية المخصصة للاستهلاك البشرى وذلك فى إطار مكافحة الفائض الزراعى.. من بينها ١٠٣ مليون طن من الحبوب. وخمسة ملايين طن من اللبن الحليب و٣٣ ألف طن من الفواكه و٥٥ ألف طن من الزبيب. وذلك حتى لا تنخفض الأسعار.

وقبل هذا نشر أن دول السوق الأوروبية المشتركة وحدها تلقى فى صناديق القمامة ٨٦٦ كيلو جراما من التفاح كل دقيقة.. وذلك للحفاظ على أسعاره العالمية وأن ٩٧٪ من إنتاج السوق الأوروبية من البرتقال يتم إعدامه لنفس السبب.

ومن أخبارهم المحزنة أيضًا أن مخازن اللبن الحليب بهذه الدول قد ضاقت بمخزونها وأنهم لم يعودوا يجدون مكانا لتخزين الفائض من هذه الألبان، وبعض الدول الكبرى تلقى بالحبوب فى قاع المحيطات.. وتشجع الزراع ليلقوا من إنتاجهم.. كل ذلك حتى لا تنخفض الأسعار.

وإلى جانب هذه الأخبار الموجعة.. فإن هناك أخبارا أشد إيجاعا.. فقد جاءنى تقرير أعده صندوق الطفل التابع للأمم المتحدة أن ٤٠ ألف طفل يموتون يوميا فى المناطق الفقيرة بسبب أمراض الأطفال وسوء التغذية.. ويضيف التقرير أن حوالى ١٥ مليون طفل قد توفوا خلال العام الماضى لإصابتهم بالجفاف وسوء التغذية.. بالإضافة إلى إصابة ملايين أخرى من الأطفال بالشلل ولين العظام وضعف البصر.

ولكى تصبح الأمور أكثر تناقضا وأكثر إيلاما.. فقد أعلنت الوكالة الأمريكية لمراقبة التسلح ونزع السلاح أن نفقات التسلح فى العالم وصلت إلى ١٠٠٠ مليار دولار هذا العام.. وأن دول الشرق الأوسط تتصدر قائمة مستوردى السلاح.. وإن الاتحاد السوفيتى هو أكبر دولة مصدرة للسلاح.. يليه الولايات المتحدة.

مسلسل حزين.. وأخبار باكية.. وأنباء مفزعة وموجعة تلك التى تأتينا من نصف الكرة الغربى.. والتى أصبحت مصدرا لشقاء الإنسان.

فبينما أطفال العالم يموتون بالملايين بسبب الجوع.. إذا بالمواد الغذائية تلقى للحيوانات.. وفى صناديق القمامة.. وقاع المحيطات.

وبينما الموت يلتهم الأطفال الصغار فوق صدور أمهاتهم.. نجد الدول الكبرى تقدم اللبن للحيوانات.. وتضن به على أكرم المخلوقات.

وبينما يحتاج العالم الفقير إلى القمح واللبن والتفاح.. يعطونه السلاح وحبوب منع اللقاح.

ومن الغريب أنهم يقدمون السلاح بسخاء شديد.. ومع تسهيلات فى الدفع لا تصدر إلا عن الكرماء.. كما أنهم يقدمون حبوب منع اللقاح دون لقاء.

الدول الكبرى تبكى بكاء مرا.. وتسكب العبرات الساخنة من أجل ما يسمونه بالانفجار السكانى الذى تعانيه الشعوب الفقيرة.. ولكنها لا تذرف دمعة واحدة على الأطفال الذين يموتون من العطش والجوع.. وتضن عليهم بالقمح واللبن والتفاح.. وتفضل أن تقدمه غذاء للكلاب والقطط والخنازير.. منتهى الرفق بالحيوان!! منتهى الحنان والإحسان!

إن دول العالم الثالث والرابع والخامس.. تعيش مشكلة حادة من أجل رغيف الخبز وسفاهة الإنسان ليس لها حدود.. وإلا فبماذا تفسر ما يحدث فى العالم من تناقضات؟

إن أرض الله تفيض بخيرات الله.. ولكن الإنسان ـ بسفاهته ـ يبدد هذه الخيرات.. عمدا ومع سبق الإصرار.

حتى هنا فى بلادنا.. انظروا إلى مقدار التلف الذى يصيب الفواكه والخضراوات فى المحلات.. وفوق العربات.. وعلى الأرصفة.. وكيف أن الباعة

الجشعين يفضلون أن يروها وهى تذبل وتتلف بين أيديهم.. بدلا من أن يبيعوها للمحتاجين بسعر مريح.

ولهذا فليس غريبا أن تطالعنا الأخبار كل يوم - مع أخبار التفاح وأخبار السلاح - بأخبار الحرائق والمصائب والبراكين والزلازل والعمارات المنهارة هنا وهناك.. وليس غريبا أن النار مشتعلة فى كل ركن من أركان العالم حتى بين الأخ وأخيه)[1]

أسلحة بلا حرب:

يقول بعض الباحثين:

ويبدو أن الالتهاب ليس المبرر الوحيد لطلب السلاح، فهناك نماذج لدول كثيرة انطلقت فى سوق السلاح دون أى ضرورة لذلك.. فى أسيا.. دول فقيرة لا يتهددها أى خطر مباشر أنفقت مائة مليون دولار ثمنا لطائرات سوفيتية وكان من الأجدى بها أن تنفق هذا المبلغ على مناجم النحاس الذى يمثل الثروة الأساسية لها.. وكولومبيا فى أمريكا اللاتينية استوردت طائرات ميراج فرنسية وطائرات إسرائيلية.. وهى أسلحة لا مبرر لها..؛ لأنها فى مأمن من أى مشاكل حدود أو اعتداءات، كما أن بيرو اشترت ثمانى عشرة طائرة أمريكية الصنع وست عشرة طائرة سوفيتية ومائتين وخمسين دبابة سوفيتية وثلاث مدمرات من هولندا ومائة واثنين وتسعين صاروخا من إيطاليا وأربع غواصات من ألمانيا.. وثمانية وأربعين قاربا حاملا للصواريخ من فرنسا.. ونموذج بيرو هو أفضل نموذج لتجار السلاح.. لأنها دولة تحارب وليس هناك ضغوط على أية دولة تصدر لها السلاح..؛ ودولة مثل ألمانيا الغربية تطبق سياسة تصدير الأسلحة للدول التى تقع خارج نطاق مناطق الالتهاب.. ولذلك فهى تبحث عن عميلات مثل بيرو.. أسلحة تبلغ قيمتها ثلاثة بلايين من الدولارات؟ ألم يكن الأولى بها أن تنفقها على دفع عجلة التنمية فى البلاد؟ ويدخل فى هذه القائمة دول كثيرة فى أمريكا اللاتينية، وآسيا وأفريقيا.. تهرع للتسلح لأنه أصبح لعبة الأمم.. وأن الدول التى لا تشترى السلاح.. لابد وأنها مهددة. وهو نتاج طبيعى لسياسات التوتر والضغوط المستمرة من أجل تبديد الأمن الواقعى وتحويل الساسة فى الدول

---

(١) د. عوض الدحة.

الصغرى إلى البحث عنه فى ترسانات الأسلحة)[1]

المتاجرون بآلام البشر:

(عرضت مجلة تايم الأمريكية ٢٨/ ١٠/ ١٩٨١ لوحة مثيرة للسلاح من خلال تعليقها على اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات. .

كيف تقول:

«إن ضباطا وجنودا يحملون مدافع رشاشة طراز ك. أ. ك ٤٧ (وثمن الواحد منها فى السوق ٧٥٠ دولارا فقط) يركبون سيارة زيل سوفيتية الصنع ثمنها (١٨٠٠٠ دولارا) تحمل مدفعا كوريا مضادا للدبابات ثمنه (٣٥٠٠٠ دولارا) اغتالوا الرئيس السادات المصرى وسط العرض العسكرى الذى كان يضم دبابات أمريكية طراز: إ. م ٦٠ (ثمن الدبابة مليونا دولار) وتحلق فى سمائه ست طائرات ميراج فرنسية الصنع (ثمن الطائرة ٢,٥ مليون دولار).

وبعد اغتياله أطلق خصومه النار ابتهاجا من مدافع كلا شينكوف السوفيتية الصنع، والتى ابتكرها المهندس ميخائيل كلاشينكوف).

أثر الإعلام:

ونتيجة لذلك:

دولة فقيرة لا يتهددها عدو أنفقت مبلغ مائة مليون جنيه ثمنا لطائرات سوفيتية كان الأجدى بها أن تنفق المبلغ على مناجم النحاس لديها والتى تشكل ثروتها القومية. كما تقدم.

---

(١) جريدة الرياض، فائق فهيم.

وإذا كان الشيطان يستغل عامل الخوف ليشل إرادة الإصلاح فينا . .

إذا كان هذا ديدن الشيطان ومن ورائه جنوده من الجن والإنس يضربون على نفس الوتر . . فما هو الطريق إلى التحرر من ربقة هذا الخوف. وهل إلى خروج من سبيل؟

وقد وضح علماؤنا معالم طريق الخلاص فيما يلى:

فالإنسان يخاف على نفسه وعلى أهله وماله وولده. . ومهما وثق بقدرته. . وكثرة عشيرته. لتظل هذه النعم باقية. . فإن الموت ما يزال يرصده. . وفى أية لحظة. . ومن ثم يظل خائفا من الموت الذى يأخذه من بين أحضان هذا النعيم.

أو يظل خائفا من بقائه هو حيا. . بينما يفارقه ذلك النعيم. .

ومن هنا يظل بين مخافتين. . وفى هذه اللحظات القلقة يضرب الشيطان ضربته. . وقبل أن يزحف اليأس نحو قلب المؤمن. . فإن **الإيمان بالله تعالى يسعفه** لينتشله من اليم قبل أن يحتويه اليم:

حصن الأمان:

وفى القرآن الكريم شفاء من داء الخوف والحزن معا:

وذلك قوله تعالى:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٤، ٦٥].

وإذن. . فلا سلطان للشيطان على الذين آمنوا.

إنما سلطانه على الذين يتولونه:

﴿إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين. ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيا يريد الله ألا يجعل

لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ [البقرة: ٢٦٨].

ومعنى ذلك:

أ - أن إيمانك بالله تعالى.. القادر.. القاهر.. عاصم من الزلل. ﴿فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين﴾(١). فالإيمان بالله تعالى يربطك بالقوة التى لا تغلب، وبالحصن الذى لا يرام.. فممَّنْ تخاف.. وعلى أى شىء تخاف؟

ب - ومن أجل ذلك تحس أنك لا تواجه الدنيا بقواك المحدودة.. التى سوف تنهار عند مواجهة الأحداث.

جـ - ومن ثمرات الإيمان بالله تعالى وقدره: أن ما يأتى به الله تعالى خير كله.. وأن الابتلاء سنة إلهية ماضية فى البشر: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾(٢).

د - ثم إن ما تبتلى بفقده.. لك عوضه عند الله تعالى.. وإذا لم تتسع الدنيا للعوض كما تتصوره أنت فإن الجنة هى العوض الأكبر المدخر هناك..

هـ - وإذا كان الأمر كذلك.. فلا سبب يحمل على الخوف.. من شىء.. أو على شىء.. ما دمت كاسبا على أى حال. ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٣).

و - وإذن.. فمن ثمرات الإيمان أنه لا يأس مع الإيمان:

﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾(٤).

ز - والنتيجة: ألا نمكن حملة التخويف من شل إرادتنا.. وألا نصغى لحملة التيئيس.. من قبل قوم هم أولى باليأس..؛ لأنهم فقدوا الإيمان.. هذا الإيمان الذى فقدوه.. فلما أحسوا بالفراغ.. والتمزق.. حاولوا تصدير مصيبتهم إلينا.. فلنكن منهم على حذر.

---

(١) يوسف: ٦٤. (٢) آل عمران: ١٨٦. (٣) البقرة: ١٥٥، ١٥٧. (٤) يوسف: ٨٧.

المؤمنون.. يحبطون كيد الشيطان:

قرر الأطباء قطع ساق الرجل.. فى نفس اللحظة التى بلغه وفاة ولده.. لكنه بإيمان أحبط كيد الشيطان.. فاستعلى على الحزن قائلا: اللهم إن كنت أخذت عضوا.. فقد أبقيت أعضاء.. وإن كنت أخذت ولدا.. فقد أبقيت أولادا!

وهو موقف عظيم يضاف إلى موقف سابق لخالد رضى الله عنه عندما أطلقها قذيفة فى وجه الشيطان.. ليظل محتفظا بشجاعته.. فوق مستوى الخوف الذى هو بضاعة الحمقى..

قال يوما: ما أدرى من أى يومَىَّ أفر؟

يوم أراد الله أن يهدى لى فيه شهادة؟

أو يوم أراد الله أن يهدى لى فيه كرامة؟

المؤمن لا يخاف ولا يحزن:

إن المؤمن لا يخاف.. على.. الرزق..

ثم هو لا يخاف من.. الموت..

وكيف يخاف وآيات القرآن الكريم تأخذ بحجزه إلى الأمان:

إنه يقرأ قوله تعالى:

﴿ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ﴾(١)

وقوله تعالى:

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾(٢)

ثم هو لا يخشى الفقر وهو يقرأ قوله تعالى:

﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾(٤).

---

(١) آل عمران: ١٥٤. (٢) النساء: ٧٨. (٣) البقرة: ١٥٣. (٤) الطلاق: ٢، ٣.

واجب المؤمن:

واجب المؤمن أن يعتصم بالعزة.. فلا يستسلم للعدو فى الحرب.. وفى السلم: قال تعالى:

﴿ولا يحزنك قولهمُ.. إن العزة لله جميعا هو السميع العليم﴾[1].

والمؤمن لا يخشى قوات العدو الضاربة:

يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

---

(١) يونس: ٥٥. (٢) البقرة: ٢٤٩.

الشائعة

الشائعة

الشائعة: خبر بلا مصدر معلوم.. كما ينطق الواقع.. وكما يقرر الخبراء: فهى خالية من أهم عناصر الخبر وهو: الصدق.. ومن ثم فهى: لقيط.. وحتى لو كان لها مصدر.. فهو ضعيف.. وصاحب هوى.. فهو غير موثق.. والعجيب أن الشائعة تحمل عناصر فنائها.. إلا أنها تسرى كالنار فى الهشيم! فى الأوساط البدائية.. والمتحضرة على سواء..

لقد درس الماكرون طبيعة الإنسان.. وعلى ضوء هذه الدراسة عرفوا من أين تؤكل الكتف:

إن طبيعة الإنسان أنه: يخاف.. ويرجو.. ويحب عائلته.. وذاته.. ويسعى لتحقيق مصلحته..

وقد استغلت الشائعات هذه الدوافع الفطرية.. ثم خاطبتها باللغة التى تفهمها وترتاح إليها.. وكان للإيحاء دوره فى التمكين لها..

هذا الإيحاء الذى يحاول قيادة الإنسان لقبول أفكار معينة.. أو سحب الثقة من شخص معين دون أن يفحص الأفكار المعروضة أو المفروضة عليه..؛ لأن المنطق لا مجال له هنا.. وإنما هى عملية سرقة الانتباه فى غيبة الوعى البصير بعواقب الأمور.

وفى الشعوب البدائية. أو التى لم ترتق إلى مستوى عال من الوعى، تأخذ الشائعات مجراها بلا مقاومة تذكر، وحتى المجتمعات الواعية فإنها تخضع إلى حد ما لتأثيرها لأن الناس - وفى عصر السرعة لم يعد لديها وقت كاف لمناقشة ما يسمعونه، وعرضه على موازين الصدق، بالإضافة إلا أنه حلال الأزمات الاقتصادية والسياسية التى تمر بها الشعوب، يجد الأفراد فى الشائعات لا سيما التى تستهدف الحاكم والنظام تعبيرا عن سخطهم عليهما. ومن ثم فإنها تحقق بعض مآربهم فى التنفيس عن الهم المكبوت.

هذا بالإضافة إلى صعوبة إثبات كذب الشائعة.. ومن ثم يحاول المغرضون إطلاقها فى أوقات الشدة.. وحالات التوتر.. وهذا مكمن الخطورة فيها

الشائعة فى الحرب

استخدم الأعداء سلاح الشائعة فى الحرب.. لتقاتل مع السلاح الأبيض جنبا إلى جنب..

بل أنها لتسبق السلاح لتمهد له الطريق تمهيداً:

خرج رسول الله ﷺ. فى ذى القعدة من السنة السابعة قاصدا مكة المكرمة.

وقد سبقته إلى هناك شائعة تقول: يأتيكم المسلمون وقد أوهنتهم حمى «يثرب» فى محاولة لابراز المسلمين فى صورة من لا يخشى بأسهم.

وكان رد الرسول ﷺ قويا كما قال ابن إسحاق:

(تحدثت قريش بأن محمدا فى عسرة وجهد وشدة. فصف له المشركون عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.

فلما دخل ﷺ المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال: **«رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة»**[1].

(ولقد سار المسلمون فى طرقات مكة ولهم ضجيج وكديد)[2].

وقد نجح المسلمون فى إحباط شائعة قريش، بل انتزعوا منهم الأعتراف الصريح بقوة المسلمين، وهذا ما يشير إليه قول الناس بعضهم لبعض حينئذ:

(أهؤلاء الذين زعمت قريش أن الحمى أنهكتهم؟

إننا نراهم اليوم يعدون كما تعدو الظباء)[3].

فى حرب الروم:

كانت هناك شائعة مغرضة تقول:

إن العرب طلاب قوت لا طلاب مجد..

وكان لابد من شائعة مضادة تمحو أثر هذه الشائعة المتهافت.. ويروى لنا

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢/ ٣٧٠.

(٢) الكديد: الغبار المتطاير.

(٣) السيرة النبوية لأحمد التاجى ٤٧.

التاريخ موقفا يشير إلى ذلك:

قبيل وقعة اليرموك طلب «ماهان» قائد الروم خالداً «أن يبرز اليه فيما بين الصفين. فيجتمعا فى مصلحة لهم.

فقال «ماهان».

إنا قد علمنا أن ما أخرجكم من بلادكم : الجهد والجوع. فهلموا إلى أن أعطى كل رجل منكم عشرة دنانير. وكسوة وطعاما.

وترجعون إلى بلادكم. فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها».

فقال خالد:

إنه لم يخرجنا من ديارنا ماذكرت، غير أننا قوم نشرب الدماء. وإنه بلغنا أنه لادم أطيب من دم الروم. فجئنا لذلك».

فقال أصحاب «ماهان»:

«هذا والله ماكنا نحدث به عن العرب»[1].

فانظر كيف صد المسلمون الشائعات السارية هناك بما هو أقوى منها... يتحدث بها الروم اليوم عندما رأوا وعلى الطبيعة صدق ما سمعوا لما رأوا خالداً يواجههم صراحة بصحة ماسمعوا فزرع فى قلوبهم الخوف...فكان يقاتلهم بالكلمة قبل أن يقاتلهم بالسيف!.

وما يزال المكر مستمراً.

وفى أثناء الحرب العظمى الثانية كانت الشائعات سلاحاً يحارب به الحلفاء المحور أو يحارب به المحور الحلفاء.

والحكاية التى انتشرت بين السذج من الناس بدأت شائعة ثم استقرت كأنما هى حقيقة.

(محمد هتلر) تصوروا كيف يصبح (ادولف هتلر) هو (محمد هتلر).

كأنما الرجل قد أسلم ، أو أنه مبعوث العناية الإلهية لتحرير المسلمين فى مختلف الأقطار.

---

(١) البداية والنهاية ج ٧/ ١٠.

على أي حال، لقد سبق أن حاول نابليون بونابرت نفس المحاولة ليضمن نجاح الحملة الفرنسية على مصر، لكن محاولاته كلها باءت بالفشل.

ومع إدراك النازى، لفشل محاولة بونابرت. إلا أنه لم ييأس من محاولتها.

وربما دلت دراسات النازى على أن نابليون حاول هذه المحاولة وهو يحتل أرض مصر وفى ظل الاحتلال لا خيار لاى شعب. إن كراهيته للمستعمر تظل بغير ديل أما محاولات النازى فقد حدثت وليس فى مصر جندى ألمانى واحد ينتهك استقلال مصر. ومن هنا فإن النجاح فى نشرها. كان أيسر.

وأظن أن حكاية (محمد هتلر) هذه ترتبط عضوياً بالهتاف الذى ارتفعت به حناجر المتظاهرين المصريين وهم يقولون: تقدم ياروميل، ولم يكن روميل إلا واحداً من رجال «الحاج محمد هتلر».

هى إذن صناعة الشائعات وترويجها قد استعملت بكثرة وذكاء خلال الحرب العالمية الثانية وهى تستعمل خلال كل حرب تقوم على أنى أود أن أقف هنا وقفة لأوضح أن ادولف هتلر لم يكن ينوى أن يحرر أرضا. يسكنها مسلمون أو يسكنها موارنة...ولو أنه انتصر لأصبح هذا «الحاج» أعدى أعداء الإنسان المصرى أو الإنسان المسلم فقد قامت نظرية هتلر على أن الجنس الآرى الذى ينتسب إليه الألمان هم السادة «وأما الباقى فخدم»[1].

تمهيد:

كان للإسلام منهجة الراشد فى التصدى للشائعات.... ويمكن تلخيص منطلقات الإعلام الإسلامى فى إحباط مفعول الشائعات فيما يلى:

أ - ضرورة التثبت قبل الحكم.

ب - مواجهة الشائعات بالإعلام الصادق الواقعى.

جـ - إطلاق الشائعات المضادة مواجهة للعدو بنفس السلاح.

من توجيهات الرسول:

والمفروض ألا يقول الإنسان كل ما يعرف....ولا يتحدث بكل ما سمع...

(١) عبد المنعم الصاوى.

وإلا فلا يلومن إلا نفسه. . . لأن الثرثرة تورط فى الخطأ. . . ثم فى الخطر بعد ذلك. . . ولعلنا نفهم هذا المعنى من قوله ﷺ:

«كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ماسمع» رواه مسلم.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال. . . مما يشبه حاطب الليل. . . الذى يجمع الحية مع عود الحطب بلا وعى ولا إدراك!.

وفى المنعطفات الخطيرة فى حياة الأمم تكثر الشائعات. . . وما على المؤمن إلا أن يرد ما يسمع إلى أهل الذكر الذين يمحصون ما يسمعون وقاية للأمة من المزالق. . . وذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[1].

---

(١) النساء: ٨٣.

من دروس أحـد

من دروس أحـــد

يقول الحق سبحانه:

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[١].

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾.

﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب عل عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾.

﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بأذن الله كتابا مؤجلاً. ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين﴾.

﴿وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾.

﴿وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾.

فى أعقاب الهزيمة العسكرية لأمة من الأمم. تحس النفوس بمرارة تعكر عليها صفو حياتها الجارية. . . . وبالتالى. . . يرتجف ميزان الأشياء فى يدها الراعشة. . فيختل حكمها على الناس والأحداث. . . وفى مثل هذه اللحظات الحرجة تطل من الرؤوس أشباح من الظنون والأوهام. . . قد تأخذ الناس فى دوامتها بعيداً بعيداً. . . فى رحلة عذاب مرهقة. . . يعود الإنسان منها محطم الأعصاب. . . مثقلاً

(١) آل عمران: ١٣٩ : ١٤٨.

بهموم فوق ما يطيق.

عند ذلك... ينتهزها العدو المتربص فرصة مواتية ليضرب ضربته الثانية! فى وقت تتهيأ فيه النفوس لتصديق كل ناعق والاقبال على كل شائعة.

إنها فرصته الذهبية التى يطلق فيها شائعاته المغرضة... حتى إذا أفلح فى حربه النفسية هذه... فأسلمت له النفوس زمامها وأسلست قيادها... كان ذلك فوزاً آخر يعزز به انتصاره العسكرى.. ثم ضمن لنفسه البقاء على أشلاء أمة غير جديرة بالبقاء.

لكن النفوس إذا صحت من غفوتها على أضواء من نكستها تكشف أمامها من معالم الطريق ما لم تكن تراه فواصلت المسير.. واحتفظت بارادتها صلبة تتحدى العدو الغالب... مستعلية بقيمها على دسائسه وشائعاته.. إذا فعلت الأمة ذلك.. فإنها تفوت عليه غرضه الأساسى من عدوانه.. ويصبح احتلال الأرض بعد ذلك أمراً يمكن القضاء عليه... بقوة ارادة نفوس أرادت الحياة... فاستجاب لها القدر الأعلى.

وفى غزوة أحد مصداق ما نقول:

لقد انتصر المسلمون فى الجولة الأولى.. ولما نسى الرماة أمر الرسول ﷺ بالثبات دارت عليهم الدائرة... وأحاط بهم العدو... وحدث ما توقعه الرسول ﷺ.. وهزم المسلمون بعد أن كانوا أقرب إلى النصر من حبل الوريد. وانتهزها العدو الماكر فرصة للضغط على المسلمين من الوجهة النفسية.. وبدأ يضرب ضربته بينما الحديد ساخن!.

وفى حملته تلك الماكرة... استهدف الرسول والمسلمين معاً:

وفيما يتعلق بالمسلمين:

أشاع العدو أن الرسول قد قتل. حتى ينفرط العقد بعد أن ضاعت واسطته.. وقالوا للمسلمين بعد أن ظنوا نجاح الشائعة فى استئصال ثقتهم بالله وبرسوله:

(ارجعوا إلى دينكم وأخوانكم... ولو كان محمد نبياً لما قتل)؟!.

وحول هذا المعنى تراكضت الشائعات وكثر اللغط ابتغاء الفتنة وتشكيك المسلمين فى سلامة ما يدعوهم إليه الرسول عليه الصلاة والسلام. . . فى وقت هو أنسب الأوقات لكسب جولة لم تكن تخطر للعدو على بال.

ويبدو أن هذه الحملة قد حققت بعض أغراضها لدى بعض النفوس فعادوا إلى الكفر بعد الإيمان.

بل إن المسلمين المخلصين لم يكونوا بنجوة من هذا التأثر إلى حد ما:

فقد شق عليهم الأمر عندما دعاهم الرسول إلى ملاحقة العدو مع ما فيهم من جراح. . . لكنهم نهضوا معه ﷺ بينما جراحهم تسيل دماء. . . وكان هذا أول الغيث. . . وأبلغ شاهد على أن المسلمين قد نجحوا فى امتحان الصمود ولو لم يحققوا نصراً. . . بقدر ما كان تفويتاً للشرك الخبيث الذى أراده المشركون للقضاء على الإسلام.

وأراده الحق سبحانه وتعالى درساً يتبين به الذين نافقوا. . ويعلم الصادقين.

وفى هذا الجو الملتهب. . نزلت الآيات الكريمة تتعقب الخواطر النابتة فيه. . فتقرر من المبادىء والأسس ما يصلح منها جا راشداً ودستوراً لحياة حرة كريمة. . يحدد معنى النصر. . . والهزيمة. . ويشرح دور القائد. . وطبيعة مهمته. . . وواجب المسلمين عبر التاريخ فى مثل هذه الأزمات:

ونتأمل الآيات الكريمة ـ موضوع الحديث ـ فتستلهمها بعض هذه المباىء والأسس. . . ونتلَمَّسُ فى رحابها منهاج الإسلام. . . أو قل دواءه الناجع الذى يَطِبُّ به المقاتلين فى سبيل الله. . . فماذا نجد؟:

إن عظمة الجيش لا تقاس بإحرازه نصراً ما. . . بقدر ما تقاس بمبادئه التى يدافع عنها. . . . ومدى استعداده للبذل فى سبيلها.

وما دامت هذه المبادىء سليمة. . وما بقى البذل فى سبيلها موصولاً لا يتوقف. . . بقيت فرص الفوز مؤكدة فى مستقبل الأيام. . . . وفى ضمان من هذه المبادىء التى يصدر المقاتلون عنها.

فلا مجال للإغراق فى الحزن على دماء سالت فوق رمال الصحراء. . فتلك سنة الدعوات منذ فجر التاريخ. . . وهذا هو طريق الدعاة إلى الله. . . دائماً

تضرجه الدماء . . . ولا داعى أيضاً للإحساس بالهوان . . . ما دمتم قد خرجتم من المعركة بأنفسكم قوية كما هى . . . وبإيمانكم صلباً كما كان .

وفى حالتى النصر والهزيمة أنتم أبداً الأعلون بهذا الإيمان . . . وتلك النفوس التى صاغها على عينه . . وأمسك بها أن تزول فى معمعان المعركة الطحون .

ولحساب من هذا الدمع المسكوب؟ فى حين أنكم قد سبقتم أعداءكم إلى النصر فى غزوة بدر . . . وصدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه؟

إنها سنة الكون :

يوم لك ويوم عليك .

فيوم علينا ويوم لنا

ويوم نساء ويوم نسر

ذلك ليعلم الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين الذين تفرزهم مغارم الكفاح بعيداً عن الصف الذى لا يبقى فيه إلا كل مخلص أمين .

والذين يسعون للجنة سعيها ينقلون خطاهم على طريق مفروس بالأشواك . . وعلى قدمين من الجهاد المبرور . . . والصبر الجميل تصلون هناك . . . إلى جنات عدن .

على أن معركة أحد لم تكن مفاجأة لكم . . . فقد جاءت استجابةً لأمنية غالية جاشت بها أنفسكم المتعطشة إلى لقاء العدو حين قلتم :

«ليت لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه» .

وهأنتم أولاء تواجهون الموت الذى تطلبون فلم تجزعون؟

ألأن محمداً قد مات؟

على أى حال لم يمت القائد هذه المرة . . . والواقع المشاهد يكذب هذه الشائعة . . . ولكن . . . ولو فرض ومات . . . فأية غرابة فى هذا المصير؟

إنه واحد من الرسل الماضين . . . يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق . . . وتجوز عليه أعراضهم . . . وفى مقدمتها الموت . . . فيموت كما ماتوا . . . وتبقى العقيدة من بعده ملتقى الآمال . . . ونقطة التجمع ومبدأ الانطلاق .

وهكذا ثبتت الآية الكريمة القلوب الهالعة. . .والنفوس الجازعة. . .وكيف؟

فليس للمسلمين أن يجزعوا لموت الرسول ﷺ. لأنه ـ كما يقول الباحثون ـ مكلف بالبلاغ. .وقد بلغ. .فإذا مات فهذا أمر طبعى سار عليه من قبله من الرسل.

ثم إن جسد الرسول ﷺ ليس هو القوة الفاعلة المحركة.

وإنما المحرك هو رسالته التى يجب أن تبقى دافعة مانعة. . .جامعة. . .لا تقبل الهزيمة.

فإذا لم تفهموا أيها المسلمون هذا الدرس. . .فلن تضروا إلا أنفسكم فقط. . .حيث يفقدكم الله نور الهداية. .وثراء الحكمة.

أما إذا ثبتت الأمة. . .فذلك تعبير عن شكر نعمة الله تعالى بإرسال الرسول.

﴿وسنجزى الشاكرين﴾.

وتلك سنة لن تتخلف. . .ولن يخلف الله وعده.

وكعهدنا بالقرآن الكريم فى توجيهاته. . .يعود بنا إلى الماضى. .تلمسا للعبرة. .وعوداً بالحق إلى نقطة البدء. . .ليعلم المجاهدون قصة ذلك الصراع الموصول بين الحق والباطل. . .والذى لن يفتر أبداً.

ثم يعرض علينا نماذج من صبر الجنود من خلف قادتهم وقت المحنة. . .وسعة آفاقهم التى تقف بهم على السبب الحقيقى للهزيمة. . .داخل النفوس. . .لا خارجها!.

﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

فلم تجر على لسان واحد منهم كلمة يائسة. . .ولا رفت حول رؤسهم بارقة من القنوط!.

فإيمانهم بالله ورسوله راسخ كما هو. . .ولا علاقة للنكسة بهذا الإيمان كما يحاول المنافقون أن يربطوا بين الهزيمة وضعف العقيدة بغية التشكيك فى دعوة الإسلام.

إنهم. . . فى هذه اللحظات العصيبة التى يقبل الناس فيها بعضهم على بعض يتلاومون. يتجهون مباشرة إلى النفس التى أسرفت على نفسها فقصرت فى حق ربها. . . فجاءت الهزيمة نتيجة لهذه المقدمات!.

فإذا كان من لوم فللنفس. . وإذا كان من ضرورة للتأهب والسير نحو استعادة القوة. . . فبتطهير النفوس من الخطايا. . عن طريق الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى. . . ثم إن هذا الطمع فى الغفران وطلب العفو. . . لا يشكل موقفاً سلبياً يطوى الإنسان عليه جوانحه.

لكنه رجاء فى طاقة إيمانية تمنحه القدرة على الانطلاق مرة أخرى ليكون بعد هذا التطهير وقوداً للمعركة على نحو ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾.

أى أنهم يطلبون إعداد النفوس مرة أخرى. . . بتخليصها من شوائب الأرض وصولاً إلى الغاية الكبرى. . وهى انتصار الحق على أعدائه.

وهو معنى كبير صرّفه الحق سبحانه وتعالى فى القرآن. . ليكون دستوراً يجمع المقاتلين على الغاية المثلى. . . وقد جاءت الإشارة إليه فى آخر سورة البقرة:

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

وبعد فلا ننسى موقف أنس بن النضر، ودوره المرموق فى إنقاذ الموقف:

فلقد اشار إلى المنافقين وإلى ضعاف الإيمان يوم أحد قائلاً:

اللهم أنى أبرأ إليك مما يقول هؤلاء. وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء.

وانطلق فشد بسيفه على المشركين فقتل» متفق عليه.

فأنت ترى سلاح الشائعة كيف حقق بعض اهدافه فى إضعاف الروح المعنوية. . . لكنه من ناحية أخرى كان حافزاً للصحابى المجاهد أنس بن النضر الذى فلسف الموقف لصالح الدعوة مؤكداً لهم أن وفاة الرسول إن كانت حقاً فليست مدعاة إلى الفرار ولكنه سبب يحملنا على بذل الروح. . . إذا لا حياة لنا

على أن تخلف ابن أبى قبل المعركة بجنده كان خطة ماكرة بدبرها للنيل من القوة المعنوية المرتفعة لدى المسلمين.

فقد كان فى الإمكان أن يرفض الاشتراك فى المعركة ابتداء.

لكنه قرر الاشتراك فيها.

وفى نفس الوقت قرر أن يعود من الطريق.. ليوهم ضعاف الإيمان أن رجلاً كابن أبى له تجربته وحنكته وما كان ليعود إلا لمعرفته بالهزيمة المتوقعة!.

ولكن الوقائع كذبته بعد ذلك.

وبهذا التوجيه القرآنى السديد... عاد إلى المسلمين رشدهم الغارب وأفاقت نفوسهم على هذه الحقائق التى تقيمهم على سواء الصراط.

ولكن التحالف الباغى بين المشركين فى مكة... والمنافقين فى المدينة يضرب ضربته الثانية... فى محاولة لعزل القائد عن أتباعه... بعد أن حاول قبلاً أن يقتت اجتماعهم على الحق رغم ما تعرضوا له:

لقد سير المشركون وفداً يضم: أبا سفيان بن حرب.. وعكرمة ابن أبى جهل... وأبا الأعور السلمى... فى محاولة يائسة لمساومة الرسول ﷺ. على عقيدته !.

وبنزل الوفد ضيفاً على رأس النفاق عبد الله بن أبى... ولاشك أنهم اتفقوا بتوجيه منه على حبك الدور وإحكام الخطة...، ومع ذلك.. فقد أعطاهم الرسول ﷺ الأمان... وسمح لهم أن يقولوا ما يشاءون.

ويقول متحدث باسم الطرفين للرسول:

«ارفض ذكر آلهتنا... اللات ومناة.. وقل أن لها شفاعة»!!.

ورفض الرسول المؤمن اقتراحهم بطبيعة الحال !.

لكنها كانت لحظة حرجة عصيبة فى حياته كلها... تلك التى يحاول فيها التحالف الباغى أن يفرض رأيه على المسلمين... فى ظل انتصار مزيف... زاعمين أن غلبتهم تلك الخاطفة... ربما تكون قد مهدت السبيل إلى

امتلاك زمام نفوس المسلمين ورسولهم... وربما انتهت باعتراف المسلمين بهم كأمة... والاعتراف بأوهامهم كدين!.

وفات هؤلاء الواهمين أن الله عز وجل... لا يترك عبده وحيداً... لقد سبقهم جبريل إلى هناك... إلى المدينة بالآيات السابقة وإن الجبهة لتبدو أصلب عوداً وأشد مراساً.

التحدى المؤمن:

صحيح أن المسلمين فى أحد قد هزموا فى الجولة الأولى من أحد.. لكنهم لم يكونوا أبداً مهزومين!.

أى أن الإيمان يحول بينهم وبين صلاحية الهزيمة. لأن الإيمان قوة تواجه بها الحياة. لا بقوتك وحدها.

ولكن بقوة القادر سبحانه وتعالى.

وهذا ما يحدث فى المرحلة الأولى من أحد.

ولكن الرسول ﷺ.. أمر بلالاً أن ينادى:

أن رسول الله يأمركم بطلب العدو... ولا يخرج معنا إلا من شهد القتال بالأمس.

وهكذا يأمرهم بمتابعة المشركين بينما جراحهم تنزف دماً.

،لم يشأ ﷺ أن يتبع المشركين برجال أصحاء لم ترهقهم الحرب...بل أصر على أن يخرج معه الذين شهدوا المعركة بالذات حتى لا يكون تجاوزهم إلى غيرهم شهادة بضعفهم.. أى أن الجيش الذى تصوره الدعاية المغرضة أنه قد هزم... هو هو بعينة ما زال مستعداً للنزال.

وتحقق ما كان يهدف إليه ﷺ حين أراهم من نفسه ومن المسلمين قوة لا تغلب.. قوة قد تخسر رجالاً أو سلاحاً لكنها لن تخسر إرادة القتال أبداً.

وقد نقل معبد الخزاعى إلى قومه المزهوين بالنصر نبأ تجمع المسلمين هذا فهبوا مسرعين عائدين إلى مكة.

وهكذا:

«فى الخامس عشر من شوال كانت غزوة أحد.

وفى يوم الإثنين السادس عشر منه... نادى رسول الله ﷺ فى المسلمين بتعقب قريش... وقد اجتمع المسلمون فى «حمراء الأسد».. بينما اجتمعت قريش بقيادة أبى سفيان فى «الرويحاء».

ولما علم المشركون أن المسلمين فى «حمراء الأسد» ألقى الله فى قلوبهم الرعب.

ثم بدأت الحرب الإعلامية بين الفريقين:

فقد مر بالمشركين ركب مسافر - من ربيعة - فأعطوهم جائزة - ثم طلبوا منهم إذا مروا بالمسلمين أن يخذلوا محمداً وأصحابه قائلين لهم:

إن قريشاً قادمة!

وأحبط الله كيد الكافرين... وفت الله فى عضدهم عندما قال ﷺ: حسبنا الله ونعم الوكيل.

فكان للكلمة أثرها البالغ فى رفع الرّوح المعنوية لدى المسلمين بقدر ما كانت وبالاً على الكافرين.

اسكات الإذاعات المعادية!!.

وعند عودة المسلمين من تعقب المشركين وقع فى قبضتهم «أبو عزة» الشاعر.

وكان قد نقض عهد رسول الله ﷺ وظاهر قريشاً على المسلمين واستعطف الرسول.

فقال له ﷺ:

« والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول:

خدعت محمداً مرتين.

ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» وأمر بضرب عنقه.

وفى فتح مكة:

قبل فتح مكة أمرهم ﷺ فى تلك الليلة فأوقدوا عشرة آلاف نار» لا نار واحدة... كلها عالية اللهب.

وكان ذلك اشعاراً للأعداء بأن جيشاً لجبا وافر العدد يوشك أن يجرفهم تياره العاتى وما يترتب على ذلك من توهين كيدهم.

وعلى هذه القاعدة:

وفى موقعة القادسية لجأ القعقاع بن عمرو إلى تفريق كتيبة النجدة إلى عشر فرق. وطلب منها أن تدور حول جيش المسلمين هناك: تثير الغبار...ثم أعلى صوته..وكان صوته بألف فارس كما يقول الصديق رضى الله عنه.

ولا تنْسَ ما فعله قائد عربى مسلم...زاره رسول من قبل مناوئه..ولم يكن لديه إلا ألف رجل...فاتخذ من الحيلة وسيلة إلى توهين معنوية الرجل.

فأمر بأن يرتدى الألف جندى ملابس المدفعيه، ويمرون بين يدى المنصة، ثم يعودون ليخلعوا هذه! ويرتدون ثياب المشاه...وهكذا..حتى ألقى فى روح المندوب أن الجيش لا يطاق !!.

وفى فتح مصر:

كانت المواجهة الإعلامية سلاحاً من أسلحة النصر فى يد عمرو بن العاص رضى الله عنه فى فتح لمصر:

« كان إذا جاءه الرسل من قبل الروم. أبقاهم بين جنوده يوماً أو يومين. ليروا بأعينهم:

زهد المسلمين.

واستخفافهم بالموت.

وصبرهم على الشدائد.

وإقدامهم على الكريهة فى سبيل ما هم مؤمنون به وساعون إليه».

وكان الرسل يعودون وفى وعيهم صورة لا تنسى...لرهبان الليل وفرسان النهار.

وحاطب بن أبى بلتعة،

فى رسالة حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس...تحس مدى حرص الداعية

المسلم على تهيئة نفس المدعو للانسجام مع الرسالة الجديدة.

قال حاطب للمقوقس:

«كان قبلك رجل - يعنى فرعون - زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به...ثم انتقم منه.

فاعتبر بغيرك..ولا يعتبر بك غيرك؟

وإن لله دينا لن تدعه إلا لما هو خير منه. وهو الإسلام الكافى الله به.

وما بشارة موسى بعيسى...إلا كبشارة عيسى بمحمد.

وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل...ولسنا ننهاك عن دين المسيح..ولكنا نأمرك به».

رد المقوقس:

أراد المقوقس أن يمتحن الدعوة...فنجحت الدعوة فى الامتحان!.

لقد أرسل هدية..وصدقة. وجعل الهدية جاريتين ليعلم هلى يَجْمَعُ بينهما؟

فكان أن اهدى ﷺ إحداهما...وبنى بالأخرى ثم وزع الصدقات على الفقراء.

وبهت المقوقس...بما سمع!.

الإعلام الإسلامى
ينتصر فى حرب الصين

كانت الحروب الإسلامية مجالاً استخدمت فيه كل الأسلحة:

المادية والمعنوية وقد مر بنا أمثلة على ذلك... ونختار هذا المثال الجامع.. أو هذه الصورة الرائعة عن فتح «كاشغر» وأنها صورة لا تحتاج إلى تعليق:

« أوغل قتيبة حتى قارب حدود الصين القديمة. ففتح كاشغر. وجنغاريا الواقعة على حدود منغوليا. وترفان على مقربة من الحدود المنغولية، وخوتن الواقعة شمالى التبت الواقعة شمالى التبت وكشمير، وقانو التى تقع تماما فى منتصف الصين الحالية.

ولكن المصادر العربية المعتمدة، تقتصر على فتح كاشغر فى هذه السنة ولا تقدم التفاصيل الإضافية الأخرى عن فتوح المدن الصينية الأخرى.

المفاوضات:

بات الاصطدام بين المسلمين من جهة، وبين ملك الصين من جهة ثانية وشيكا، فطلب ملك الصين التفاوض بين الجانبين، وعرض التفاوض على قتيبة، فقد أوغل قتيبة حتى قارب الصين واخترق حدودها الغربية، فكتب إليه ملك الصين:

« ابعث إلى رجلاً شريفاً يخبرنى عنكم وعن دينكم» فوافق قتيبة على طلب ملك الصين.

واختار قتيبة بين رجال جيشه اثنى عشر رجلاً، لهم جمال وألسن وبأس وتجمل وصلاح ، وأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشى وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هبيرة بن المشمرج الكلابى مفوها سليط اللسان، وقال لهم:

«إذا دخلتم على ملك الصين، فأعلموه أنى قد حلفت أنى لا أنصرف حتى أطا بلادهم، وأختم ملوكهم وأجبى خراجهم.

وسار وفد قتيبة إلى ملك الصين، عليهم هبيرة بن المشمرج الكلابى، فلما قدموا الصين، دعاهم ملكها، فلبسوا ثياباً بيضا تحتها الغلائل، وتطيبوا، ولبسوا الأردية ودخلوا على الملك، وكان عنده عظماء قومه، فأخذوا أماكنهم فى مجلسه، فلم يكلم الملك الوفد ولا أحد ممن عنده.

ولما انصرف الوفد من مجلس الملك، قال الملك لمن حضره: «كيف رأيتم هؤلاء؟ !.

قالوا: «رأينا قوماً ما هم إلا نساء».

وبالطبع، قال من حول الملك، ما «يحب» الملك أن يسمع، لا ما «يجب» على الملك أن يسمع أسوة بمن حول أصحاب السلطان فى كل زمان وكل مكان.

وفى غد دعاهم الملك إلى مجلسه، ولبسوا الوشى وعمائم الخز والمطارف - ألبسة من خز مربعة لها أعلام - وغدوا عليه» فلما دخلوا عليه قيل لهم: ارجعوا.

وقال الملك لأصحابه بعد انصراف وفد المسلمين: «كيف رأيتم!؟ «فقالوا: «هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك».

وفى اليوم الثالث دعاهم الملك إلى مجلسه أيضاً، فشدوا سلاحهم، ولبسوا البيض - الخوذ والمغافر - (جمع مغفر)، وهو زرد ينسج على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.. وأخذوا السيوف والرماح والقسى، وركبوا خيولهم العربية المطهمة الأصيلة.

ونظر إليهم ملك الصين، فرأى أمثال الجبال مقبلة، فلما دنوا من مجلس الملك، ركزوا رماحهم، ثم أقبلوا مشمرين، وقيل لهم قبل أن يدخلوا على الملك:

«ارجعوا...» لما دخل فى قلوب الملك ومن معه من رجال الصين وقادتها من خوف ورهبة.

وانصرف الوفد عائدا إلى مستقره، بعد أن أخذوا رماحهم واستعادوا سلاحهم وامتطوا خيولهم، ثم دفعوا الخيل حضرا - عدو ذو وثب، وهو ركض الخيل بأقصى سرعتها، كالذى يجرى فى سباق الخيل - كأنهم يتطاردون، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم!؟»

فقالوا: «ما رأينا مثل هؤلاء!».

وفى مساء ذلك اليوم، بعث ملك الصين إليهم أن ابعثوا إلى زعيمكم، فبعثوا إليه (هُبيْرة) فقال له الملك: «قد رأيتم عظم ملكى، وأنه ليس أحد يمنعكم منى، وأنت فى يدى بمنزلة البيضة فى كفى، وأنى سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقونى قتلتكم».

وما كان هبيرة بحاجة إلى التهديد والوعيد، وليس هو من الرجال الذين يخيفهم التهديد والوعيد، فهو لا يكذب أبداً حتى ولو قتل على أن يكذب لا يكذب، فلا مجال لتهديده بالقتل إذا لم يصدق.

وسأل الملك هبيرة لماذا صنعوا فى الزى الأول ما صنعوا، ثم الزى الثانى، والزى الثالث؟

وكان جواب هبيرة، «أما زينا الأول، فلباسنا فى أهالينا وريحنا عندهم، وأما يومنا الثانى، فإذا أتينا أمراءنا، وأما الثالث، فزينا لعدونا».

وقال الملك ما أحسن ما دبرتم دهركم فانصرفوا إلى صاحبكم، فقولوا له: ينصرف، فإنى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت عليكم من يهلككم ويهلكه».

وإذا كانت الجبال الراسيات تهتز قيد أنملة من خطرات النسيم العليل، فإن هبيرة قد اهتز يومئذ من وعيد الملك وتهديده، فلابد به من أن يبلغ هذا الملك رسالة قتيبة بقوة وأمانة وصدق، فقال للملك فى ثقة كاملة وهدوء تام: كيف يكون قليل الأصحاب مَنْ أول خيله فى بلادك، وآخرها فى منابت الزيتون! وكيف يكون حريصا عن خلف الدنيا وغزاك!!

وأما تخويفك بالقتل، فإن لنا آجالا إذا حضرت فأكرمها القتل، فلسنا نكرهه ولا نخافه!»

واستخذى الملك فى مجابهة قولة الحق، فنسى تهديده ووعيده، ثم تساءل فى قول لين رقيق: «فما الذى يرضى صاحبك؟ «فأجابه هبيرة بقول فصل لا مساومة فيه: أنه حلف ألا ينصرف، حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم، ويعطى الجزية» واستخزى الملك إلى درجة الانهيار، بعد أن سمع كلمة تزهق الباطل، فقال: «فإنا

نخرجه من يمينه: نبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطأه... ونبعث أبناءنا فيختمهم... ونبعث له مالاً يرضاه...» .

ودعا الملك بصحاف من ذهب فيها تراب من أرض الصين، وبعث بحرير وذهب وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجاز الوفد فأحسن جوائزهم، فقدموا على قتيبة الذى قبل الجزية وختم الغلمان وردهم إلى الملك، ووطئ تراب الصين.

وقد لجأ الوفد الإسلامى إلى تبديل أزيائهم، للتأثير فى معنويات ملك الصين ومن معه، مما أدى إلى انهيار معنويات الصينيين واستجابتهم لمطلب المسلمين)[١] .

واقع المسلمين اليوم:

لم تستوعب أمة الإسلام منهج الإسلام فى القضاء على الشائعات..

بل كانت عونا للأعداء على نفسها حين ثرثرت فى مجالسها الخاصة والعامة معلنة كل أسرارها على ما أشارت إليه آية سورة النساء **﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به..﴾**.

يقول اللواء محمود شبت خطاب:[٢]

لقد أصبحت «الثرثرة» عادة مستحكمة فى نفوس الكثيرين، وهى من جملة عيوبنا التى يجب أن نحاربها بدون هوادة ورحمة، الإسرار، عليهم أن ينصحوا الذين يثرثرون بهذه الإسرار هنا وهناك، ولعل من أهم متطلبات القتال، هو الكتمان، والقاعدة الذهبية المعروفة، هى أن الأمة التى تكتم أسرارها، هى الأمة التى يمكن أن تنتصر. والأمة التى لا تكتم أسرارها هى الأمة التى لا يمكن أن تنتصر.

وما يقال عن الأمة يقال عن الأفراد لأن الأمة تتكون من أفراد، والبناء الضخم يتكون من ذرات، والعسكريون مطالبون بأن يكونوا فى ذروة الكتمان الشديد، والمدنيون أيضا مطالبون بأن يكونوا فى ذروة الكتمان الشديد؛ لأن الجيش من الشعب ونيات الجيش لا يمكن أن تخفى على الشعب.

والقادة يجب أن يكونوا نموذجا رفيعا فى «الكتمان» والقائد الذى لا يتحلى بمزية «الكتمان» يقود رجاله حتما إلى الهاوية. وإفشاء الأسرار الحربية خيانة

(١) عن مجلة الأمة صفر ١٤٠٥.
(٢) عن مقال بجريدة الجمهورية القاهرية.

بالنسبة للمدنيين والعسكريين على حد سواء، وإفشاء تلك الأسرار خيانة عظمى، والذى لا «يكتم» الأسرار العسكرية لأمته فإن وجوده فيها من مصلحة أعداء أمته.

ورب كلمة عابرة يحسبها المرء تافهة وهى فى واقعها سر يؤدى إفشاؤه إلى كارثة، وتاريخ الحروب خير شاهد، وفيه عبر لمن اعتبر، إن الكتمان فى الإسلام «دين» حث عليه القرآن الكريم وأمر به النبى ﷺ وطبقه فى كل حياته.

وصدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»** وحسب المسلم الحق، أن يتأسى بالنبى الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام وإلا فهو مسلم جغرافى أو مدع للإسلام أو متهم بأنه مسلم والإسلام منه براء.

والسؤال الآن: كيف نكتم أسرارنا؟

والجواب على ذلك سهل يسير، ولكن العمل فى وضعه فى حيز التنفيذ يحتاج إلى جهد كبير.

لقد استطاعت إسرائيل جمع أدق المعلومات العسكرية عن العرب من ناحية، واستطاعت كتمان أسرارها العسكرية عن العرب من ناحية أخرى. ومن الغريب جدا أن بعض أجهزة الإعلام العربية هيأت لإسرائيل معينا لا ينضب فى المعلومات عن الجيوش العربية وأسرارها التى كان من الواجب أن تكون «حرز حريز»، ليس من الكتمان فى شىء نشر وإذاعة تنقلات القطاعات العسكرية من مكان إلى آخر، وليس من «الكتمان» نشر وإذاعة شراء الأسلحة وكمياتها ومستودعاتها ونشر تصاويرها، وليس من «الكتمان» نشر وإذاعة نياتنا وأهدافنا وما نريد عمله فى الميدان.

والرجل الذى يريد القضاء على خصمه، لا يمكن أن يقول له كل يوم سأقضى عليك.. سأقتلك.. إلخ. ومن المعقول، بل من البديهى أن يكتم هذا الرجل نياته، بل يتظاهر بعكس ما يريده.

فكيف إذا أراد شعب من الشعوب القضاء على خصمه دفاعا عن الحق المغتصب، أن يقول له بمناسبة وبغير مناسبة علنا: سأقضى عليك.. سأفعل فيك الأفاعيل؟

يجب أن يكون شعار كل فرد من العرب.. ومن المسلمين أمام الأسرار هو: لا أسمع.. لا أرى.. لا أتكلم.

إن الظروف الراهنة تحتم علينا جميعا الالتزام بالكتمان الصارم.. وقد رأينا كيف هيأ الالتزام بالكتمان للمسلمين الأولين النصر المؤزر.

فهل نعتبر بدروس الكتمان التى طبقها الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام قبل أربعة عشر قرنا أم لا نزال بحاجة إلى النكسات والنكبات؟].

والعاقبة للمتقين:

ومع هذا فالعاقبة للحق أخيرا.. الذى يهزم الباطل فى الجولة الأخيرة: فمهما حاول الباطل إثبات وجوده الهش.. بما يملك من مال أو حيلة.. أو شائعة فإن القدر الأعلى يرخى له من حبال الأمانى.. حتى إذا أخذه لم يفلته.

وهكذا تقول حقائق التاريخ كما لاحظها العارفون:

لقد قال إبليس كما حكى القرآن الكريم:

﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾.

فكانت العاقبة:

﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾.

وقال النمرود ـ كما حكى القرآن ـ:

﴿أنا أحيى وأميت﴾.

فكانت العاقبة:

﴿فبهت الذى كفر﴾.

وقال فرعون ـ كما حكى القرآن ـ:

﴿أنا ربكم الأعلى﴾.

﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم﴾.

وقال قارون ـ كما حكى القرآن ـ:

﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾.

فكانت العاقبة:

﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾.

وقال صاحب الجنتين: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾

فكانت العاقبة:

﴿فأصبح يقلب كفيه﴾.

ثمن النصر:

ولكن هذه النهاية المحتومة.. محكومة بمشيئته سبحانه وتعالى وعونه.. ثم بما تقدمه الأمة من جهد ومال..

وستظل جديرة بالنصر ما بقيت فيها روح القتال متوهجة.. تلك الروح التى عبر عنها ابن المبارك:

لقد ذهب للجهاد يوما فقال لصاحبه.. رفيق السلاح:

إنا لله وإنا إليه راجعون! على أيام قضيناها فى السفر.. وليال قضيناها فى اللهو.. وأبواب الجنة هنا مفتحة!

الإعلام الإسلامى بين النظرية والتطبيق

وهنا تبرز أهمية الإعلام الإسلامى.. ليقوم بدوره الفعال.. درءا لهذا الخطر: وإذا كان هناك ما يسمى بالاستعمار الاقتصادى.. والسياسى.. والذى يستهدف الثروة والاستئثار بخيرات الشعوب..

فإن هناك استعمارا جديدا لا يقل خطرا عن سابقيه وهو:

الاستعمار الإعلامى الدولى؟!

هناك وكالات أنباء تعد على أصابع اليد.. تحتكر الأخبار العالمية.. ولديها رصيدها من المعلومات.. ثم تصدر ذلك كله.. بل تغرق به جنبات العالم على اتساعه..

ومن بين الشعوب الواقعة تحت هذا الوابل المنهمر: شعوبنا الإسلامية.. وبخاصة الشباب المأخوذ بما حققه الإعلام من مستحدثات سلبت لبه وقلبه.. وزودته بمعلومات وأفكار تتجاهل المبادئ الإنسانية الراقية.. وتخاطب فيه غرائزه وشهواته..

فصار يعرف عن نجوم الفن والرياضة ما لا يعرف مثله عن عظماء تاريخنا الإسلامى وهم هداة الإنسانية، وثروتنا التى ندل بها.. ولولاها ما كان لنا وجود اليوم على ظهر الأرض.

وهو الأمر الذى يجعل من الإعلام الإسلامى اليوم ضرورة ملحة.. تتصدى لهذا السيل الجارف.. إحقاقا للحق وإبطالا للباطل..

إن وسائل الإعلام العالمية تتحدث كل يوم بألف لغة..

وهناك مئات الألوف ممن يعادون الإسلام.. يُصَدِّرون عبر هذه الوسائل ما يعكر علينا صفو حياتنا.. وتسرى أفكارهم كالسموم.. مما يضاعف مسئوليتنا إزاء هذا الغزو الوافد.. الذى يفرض علينا أن نأكل طعامهم المسموم.. ثم لا نحاول أن نجيد فن الإعداد والطبخ؟

ويمكن للآلاف ممن أبنائنا المبعوثين للخارج أن يقوموا بهذا الدور.. عندما نزودهم بالمعلومات الصحيحة التى يصححون بها أخطاء أعدائنا.

لكن العبء الأكبر يبقى على كاهل الدول الإسلامية التى يجب أن ترصد إمكاناتها المتاحة لإنشاء وكالة أنباء إسلامية تصد عنا هذا الهجوم.

إن ديننا الإسلامى مخاطب به الناس فى كل العصور..

وإذن.. فنحن مطالبون بإبلاغه.. ونشره فى كل ركن من أركان الدنيا.. بالإضافة إلى أن طبيعة الإسلام أنه دين البيان **﴿خلق الإنسان. علمه البيان﴾**[1] وأعلى صور البيان.. إعلان حقائق الإسلام فى وجه أباطيل خصومه..

لقد صار الإعلام فنا وعلما قائما بذاته.. وصارت للكلمة المسموعة.. والصورة المرئية دورها فى التمكين للباطل فى قلوب النشء.

ويبقى أن تستيقظ أمتنا لتطور وسائل اتصالها بالآخرين.. مستخدمة أرقى ما وصل إليه العلم فى هذا المجال..

وإنها لصورة من صور القوة التى أمرنا بأن نعد أقصى ما نستطيعه منها فى قول الحق سبحانه: **﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾**[2].

لقد مضى ذلك العهد الذى اشتجر فيه الخلاف حول الروايات المعروضة هل هى حرام أم حلال، لنبحث القضية بروح جادة.. وثابة تُسخِّر ما وصل إليه العلم الحديث فى خدمة الدعوة الإسلامية..

والضرب على الأيدى العابثة بأقدار شبابنا والمنحرفة بوسائل الإعلام إلى غير ما خلقت له..

---

(١) الرحمن: ٣، ٤.　　(٢) الأنفال: ٦٠.

منطلقات الإعلام الإسلامي

الإعلام: وظيفة اجتماعية تعبر عن آمال الأمة..

وهو فى أمة الإسلام منهج آخر: يستمد جذوره من كلمة التوحيد:

مفسرا.. وناقدا.. وجامعا للقلوب على كلمة سواء.

والدولة فيه:

توائم بين مصلحة الفرد.. ومصلحة المجموع.

والمعرفة فى ظلها لا تتم قسرا ومن قبل الصفوة كما هو الحال فى أنظمة أخرى:

بيد أنَّ الفرد حر.. يتأمل الكون بما فيه.. محكوماً بالإيمان، حتى حقيقه الإيمان نفسه.. لا تستقر فى القلب إلا نتيجة للتفكير الفردى الحر:

﴿لا إكراه فى الدين﴾[1].

فما دامت معالم الرشد.. ومعالم الغى كلاهما.. تلوح للعيان ظاهرة بينة فلا مجال للكبت أو الإكراه..

لأن ذلك لا ينشئ إيمانا يعمر الحياة.

وفى هذا الإطار يتم إعداد المسلم الذى يأخذ دوره مبلغا.. آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر..

إنه لا يبحث عن حقيقة جزئية.. ملونة بالجنس أو اللون.. ولكنها الحقيقة المطلقة الشاملة..

ووظيفة الاتصال لدى المسلم مشمولة بهذه الحقيقة.. فلا تنحصر مهمته فى ملاحظة جانب العبادات تبشيرا وتحذيرا..

ولكن مهمته تتسع ليراقب كل ألوان النشاط على الساحة الاجتماعية..

وليواجه كل انحراف بما يردعه.. وكل إصلاح بما يستثمره وينميه.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

إن للإعلام الإسلامى قواعد ثابتة ينطلق منها.. متأثرا بها.. مصبوغا بصبغتها.. ملتزما بتحقيق ثمراتها فى دنيا الناس:

١ ـ فأصل البشر واحد:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(١).

٢ ـ ومصيرهم واحد:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾(٢).

٣ ـ والمسلم منفتح على كل الناس:

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾(٣).

وحتى على المشركين:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

٤ ـ كما أن الحقوق المنوطة بنا توسع دائرة اتصالاتنا:

فهناك جار له ثلاثة حقوق.

وجار له حقان..

وجار له حق واحد..

فليس فى الحى.. ولا فى المجتمع.. ولا فى الدنيا.. كائن إلا وله فى عنق المسلم حق يجب أن يراعى ويحترم!

الفرق الشاسع:

فى مقابل هذه النظرة العالمية الإسلامية.. نرى نظرة الإعلام المادى.. والذى يفرق بين جمهوره المقتنع بفكرته.. وبين الجمهور الأجنبى.

وبينما الإعلام الإسلامى.. يمثل دين التوحيد.. والوحدة.. فإن الإعلام

(١) الحجرات: ١٣. (٢) ق: ٤٣. (٣) المائدة: ٥. (٤) التوبة: ٦.

المادى يرسّخ قاعدته فى التفريق بين الأمم وهى:

فرق تسد.

فهو إعلام يعمق الشقاق بين الأمم.. خفية.. بينما يشجب هذا الشقاق علانية. ونذكر هنا موقف إنجلترا:

فلم تخرج من فلسطين إلا بعد تقسيمها بين العرب وإسرائيل. حتى يظل الخصام بينهما قائما.. فتظل الحاجة إلى سلاحها قائمة كذلك!

ولقد كان إعلامها يسعر هذه الرغبة فى قلوب الغافلين، عن طريق تملق هذه القلوب.. حتى استطاع هذا الإعلام المزيف أن يصرف همه دول العالم الثالث إلى إيثار الاستماع إلى إذاعة أعدائه ثقة بها.. فى الوقت الذى بات فيه لا يثق بإذاعته الوطنية!

وفى نيجيريا:

كانت نيجيريا مستعمرة بريطانية.

فجمعت بريطانيا المسيحيين فى الإقليم الشرقى، ثم منحوهم فرصة التعليم ليمكنهم من السيطرة على الغالبية المسلمة.

والهند أيضا وباكستان:

قسمتا بتكتيك بريطانى يتسم بتناقضات جغرافية، ليظل النزاع مستمرا.

فقد عزل المسلمون فى: شمال شرق، وشمال غرب، وبينهم إسفين من الأرض تسيطر عليه الهند، وأخيرا.. انفصلت باكستان.. وتكونت دولة «بنجلاديش» ويواكب ذلك كله إعلام ماكر:

أ - يستهدف الكسب المادى.

ب - وضمان ارتباط الدول الصغرى بعجلة الدول الكبرى.

جـ - توقف خطط التنمية لدى الدول النامية.

د - ومع الأيام تضمحل معنويات الأمة.. وتذوب القوى الكامنة فيها.. ومن ثم لا تقدر على الاستمرار.. ثم تكون النهاية: الذوبان فى محيط هائل من الخداع.

ويعنى ذلك كله اختلاف أهداف الإعلام الإسلامى عن غيره فى الدول التى لا تدين بالإسلام . .

فبينما الإعلام المادى يرسخ عوامل التفريق بين الأمم ليخلو له الجو . .

وبينما يسمم روافد المعرفة ليظل قابضا على زمام الأمور . . وإذا كان يحبط خطط التنمية لدى الأمم الضعيفة حتى تظل ضعيفة . .

فإن للإعلام الإسلامى أهدافا نبيلة هى نفس أهداف الدولة الإسلامية المذكورة فى قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[1].

إن إعلامنا مؤسس على الإيمان بالله عز وجل:

ومن ثم فهو يؤذن فى الناس بالخير، وينشر بركات الإيمان فى كل مكان:

فالمجتمع فى ظل الإسلام:

١ ـ مجتمع آمن مستقر:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[2].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِم﴾[3].

﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[4].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾[5].

٢ ـ مجتمع صالح البال . . سالم من الاضطراب:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) الحج: ٤١ . (٢) الأنعام: ٨٢. (٣) الفتح: ٤ .
(٤) النور: ٥٥ . (٥) طه: ١١٢.

الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾[1].

من ضوابط الإعلام الإسلامى:

ولكى ينتصر الإعلام الإسلامى.. فى ميدان الحرب النفسية لابد له من ضوابط.. تجعل منه سيد الموقف:

١ ـ فليس كل خبر وإن كان صحيحا قابلا للنشر.

٢ ـ ضرورة دراسة الظروف.. واهتمامات الناس ودرجة الوعى لديهم.. حتى يمكن اختيار المادة المناسبة لهم.

٣ ـ تركيز المادة الإعلامية.

٤ ـ على أن يصدر ذلك كله من قلب إعلامى مسلم.. ملتزم بآداب الإسلام قولا وعملا:

إعلامى:

(له عقل يحسن الفهم. وأذن لا تشتبه عليها الأصوات. وعين لا يعشوها البريق الخداع).

ومن أهم صفاته كما يقول د. محمد الهوارى: (الذكاء والخيال الواسع. وموضوعية التفكير، وتحمل المسئولية، والتفانى فى العمل، وامتلاك القدرة على التعبير، ومعرفة الطريقة التى يفكر ويشعر بها الآخرون).

المادة الإعلامية[2]:

(يقول الإمام الشاطبى: ليس كل ما يعلم مما هو حق، يطلب نشره، وإن كان من علم الشريعة، وما يفيد علما بالأحكام.

بل ذلك ينقسم:

منه ما هو مطلوب النشر، وهو غالب علم الشريعة، ومنه ما لا يطلب نشره بالإطلاق.

---

(١) محمد: ١، ٢. (٢) مقالات فى الإعلام. مقدمة عمر عبيد ص ١٨ وما بعدها.

أولا يطلب نشره بالنسبة إلى حال، أو وقت، أو شخص].

ثم يقول: (ليس كل علم يبث وينشر.. وإن كان حقا.

وقد أخبر مالك عن نفسه: أن عنده أحاديث وعلما، ما تكلم فيها، ولا حدث بها. وكان يكره الكلام فيما ليس تحته عمل، فتنبه لهذا المعنى.

وضابطه:

أنك تعرض مسألتك على الشريعة:

فإن صحت فى ميزانها.. فانظر فى مآلها بالنسبة إلى حال الزمان وأهله:

فإن لم يؤد ذكرها إلى مفسدة.. فاعرضها فى ذهنك على العقول:

فإن قبلتها.. فلك أن تتكلم فيها.. إما على العموم إن كانت مما تقبلها العقول، وإما على الخصوص إن كانت غير لائقة بالعموم.

وإن لم يكن لمسألتك هذا المساغ.. فالسكوت عنها هو الجارى وفق المصلحة الشرعية والعقلية) الموافقات: ٤/ ١٨٩/ ١٩٠.

يقول العلماء..

(ليس الفقيه هو من يعرف بأن هذا مصلحة، وهذا مفسدة، بل الفقيه هو الذى يعرف خير الخيرين.. وشر الشرين).

قال الجاحظ:

(أحسن الكلام: ما كان يغنيك قليله عن كثيره، ومعناه فى ظاهر لفظه، وكأن الله تعالى ألبسه من الجلالة، وغشاه من نور الحكمة، على حسب نية صاحبه، وتقوى قائله، فإذا كان المعنى شريفا، واللفظ بليغا، وكان صحيح الطبع، بعيدا عن الاستكراه، ومنزها عن الإخلال، مصونا من التكلف.. صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة، ومتى فصلت الكلمة على هذه الشريطة، ونفذت من قائلها على هذه الصفة.. أصحبها الله تعالى من التوفيق، ومنحها من التأييد، ما لا يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهلة).

ويقول ابن تيمية:

(العالم: تارة يأمر، وتارة ينهى، وتارة يبيح، وتارة يسكت عن الأمر أو النهى، *أو الإحاطة، كما قيل*:

إن من المسائل مسائل جوابها السكوت، كما سكت الشارح فى أول الأمر عن الأمر بأشياء.. حتى علا الإسلام وظهر، فالعالم فى البلاغ والبيان كذلك:

قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء، إلى وقت التمكن.

كما أخر الله تعالى إنزال آيات، وبيان أحكام، إلى وقت تمكن رسول الله ﷺ إلى بيانها.

فالمحيى للدين، والمجدد للسنة، لا يبلغ إلا ما أمكن علمه، والعمل به.

كما أن الداخل فى الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه، ويؤمر بها كلها.

وكذلك التائب عن الذنوب، والمتعلم، والمسترشد:

لا يمكن فى أول الأمر أن يؤمر، بجميع الدين، ويذكر له جميع العلم، فإنه لا يطيق ذلك.

وإذا لم يطقه، لم يكن واجبا عليه فى هذه الحال.

وإن لم يكن واجبا.. لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه عليه ابتداء، بل يعفو عن الأمر والنهى بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان.

كما عفا رسول الله ﷺ عما عفا عنه إلى وقت بيانه.

ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات.. وترك الأمر بالواجبات.

لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل.

ومن هنا يتبين سقوط كثير من هذه الأشياء، وإن كانت واجبة، أو محرمة فى الأصل، لعدم إمكان البلاغ الذى تقوم به حجة الله فى الوجوب أو التحريم.

فإن العجز مسقط للأمر والنهى. وإن كان فى الأصل)[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٠: ٥٨/ ٦٠.

من خصائص رجل الإعلام الإسلامى:

إن عصب العملية الإعلامية هو رجل الإعلام نفسه ومن ثم لابد أن يتصف بخصائص ترفعه إلى مستوى مسئوليته . .

فإذا وجد المتلقى الذى يرتفع أيضا إلى مستوى مسئوليته تمت عملية الاتصال كمالا . وآتت أكلها المبارك . . ونقرأ فى ذلك ما قاله إسحاق بن إبراهيم فى كتابه «البرهان» :

(إن أصحاب الخبر ينبغى أن يكونوا من أصح العمال ديانة . وأكملهم أمانة، وأظهرهم صيانة . .

. . . . كما أنه لا ينبغى أن يتقدمهم أحد فى الصدق، والثقة، والأمانة، غير القضاه ومن جرى مجراهم .

وهم من لا يكون فيهم شىء من الحدة والحسد والغفلة) .

وإذا ارتفعت نفس المتلقى إلى مستوى المسئولية فقد تمت النعمة، وذلك قول ابن خلدون :

(إذا كانت النفس البشرية على حال من الاعتدال فى قبول الخبر . . أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه) .

إن مصدر الخبر مسلم يعيش فى هذا الجو الطاهر يتنفس الصدق فلا يكذب . . والعدل فلا يظلم ولا يخون ولا يتجسس، وذلك ما نتناوله بشىء من التفصيل .

١ ـ الصدق :

ومن معانى الصدق : الصلابة، والقوة، وإذن فهو صادق مع نفسه . . صادق مع جمهوره لا ينحرف عن الحق قيد أنملة . .

إنه لا ينافق . . ولا يكذب . ؛ لأن ذلك ضعف ينافى الصدق كمظهر لقوة الشخصية، ثم يتحمل مسئولية الخبر الصادق، ولو كلفه ذلك حياته، إنه يقول الحق، مهما كانت النتائج . . تعذيبا . . أو خسارة مادية . . أو ضياع منصب مرموق .

(لكن رجل الإعلام بشر):

بشر تعرض له عوامل الضعف الإنسانى.. ولابد من الأخذ بيده ليكون عند حسن الظن به صادقا.. فى كل الظروف.

(وقد وضع علماؤنا - وبخاصة علماء الجرح والتعديل - الضوابط الكفيلة بإحقاق الحق، وإبطال الباطل.. بدءا بالبواعث التى ينشأ عنها الخطأ والكذب..

وانتهاء بالضمانات المانعة من التورط فى الكذب أو التزوير..

وقد استفاد الباحثون الغربيون من هذا التدقيق.. وهذا الاحتياط البالغ فى صيانة المصدر أو المرسل حتى لا يضل ويضل.. مما نعتبره بضاعتنا ترد إلينا.

وهذا (ما حدده «سينيوبوس» من القواعد العامة التى يجب اتباعها فى صورة أسئلة تكشف المعالم وتحدد المسار.

وقد تساءل الباحث.. تساؤلات تلفت النظر إلى مواطن الضعف.. والتى ينفلت منها العيار فقال:

١- هل كان الكاتب - أو المصدر - فى حالة عقلية تسمح له بملاحظة الحادثة.

وهل سلم من بعض العوامل التى تدعو إلى الخطأ كالوهم؟

٢- هل تحققت الشروط العملية فى الملاحظة؟

وهل كان خلوا من الهوى؟ وهل فهم ما سمع أو رأى؟

٣- هل أصدر حكمه على حوادث صرفه الكسل أو الإهمال عن ملاحظتها.

وهل ذكر أمورا لم يرها. ولم يسمع عنها شيئا بل واستنبطها بخياله؟

٤- هل كانت طبيعة الحادثة تسمح بملاحظتها؟

لأن بعض الحوادث تحاط بالكتمان.

وعن القواعد العامة الواجب اعتبارها، يضع أيضا مجموعة من الأسئلة تسلط مزيدا من الضوء على أمور وثيقة الصلة بموقف المُخبر ومدى صدقه فيما ينقله، وهذه الأسئلة هى:

١- هل أراد صاحب الوثيقة - أو ناشر الخبر - تحقيق مصلحة شخصية؟

وهل أراد أن يخدع القارئ؟

٢- هل كان الراوى ينتمى إلى جماعة يميل إلى نصرتها، ويبرر سلوكها ويظهرها فى موقف مشرف؟

٣- هل وُجد الراوى فى مركز أو ظروف أكرهته على الكذب؟

وهذا ما يحدث عندما لا يتفق الصدق مع السياسة العامة للدولة.

٤- هل جره الضرر بشخصه أو بجماعته إلى الاختلاق والتحريف؟

٥- هل أراد الراوى التقرب إلى الجمهور وتملقه وإثارة عواطفه؟

٦- هل حاول صاحب الوثيقة - أو الرسالة - التأثير فى الجمهور بالأسلوب الأدبى.

وهل شوه الحقائق عندما ألبسها ثوبا أدبيا؟)

٢ - ومن مسئولية الإعلامى المسلم:

تحرى المصدر الموثوق به.

وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾(١).

وحتى تظل الثقة رابطة بين المرسل والمتلقى لابد من الاختيار الدقيق لمصدر الحقيقة احتراما لهذه الحقيقة.. ولعقلية المتلقى أيضا..

وإذا سألت فلا تلحف فى السؤال فرارا من كشف أمور لا تحمد عقباها.. ولم يحن بعد أوان الكشف عنها.

﴿لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾(٢).

٣ - عدم التسرع فى الحكم قبل التثبت منه:

وعندما تسرع الصحابى الجليل فقتل المشرك قبل أن يتأكد من نواياه الحقيقية

(١) النحل: ٤٣.
(٢) المائدة: ١٠١.

لأمه ﷺ بعنف قائلا: هلا شققت عن قلبه.

إن الرغبة فى الربح.. والتطلع إلى الشهرة عن طريق السبق الصحفى.. قد يورط الإعلامى فى خطأ يقطع حبال الثقة بينه وبين جمهوره.. وقد يصدق الإعلامى بعد ذلك معه.. لكنه لا يفلح فى اكتساب الثقة المفقودة..

وقد نعى القرآن الكريم على أناس يتلقون الأخبار ثم يذيعونها بلا تمحيص وذلك فى قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾(1).

وكان عليهم أن يردوه إلى العارفين العالمين ببواطن الأمور احتراما لعقولهم وللحقيقة ذاتها.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

ويفرض الإيمان مزيدا من الاحتياط حين يكون مصدر الخبر فاسقا.. ولابد من التحفظ والدقة فى تلقى أخباره.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾(2).

٤ ـ طلب الحقيقة:

ومن أبوابها المشروعة:

يقول الحق سبحانه:

﴿.. ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا..﴾.

إن للحق طرائقه المشروعة الموصلة إليه. وليس منها التجسس أو التحايل على حساب كرامة الإنسان..

وحين علم عمر رضى الله عنه بنبأ شباب يحتسون الخمر تسور الجدار عليهم.. قال له شاب منهم:

أخطأنا خطأ واحدا.. وأخطأت أنت فى ثلاث:

تجسست علينا.. والله يقول: ولا تجسسوا..

---

(1) النساء: ٨٣.   (2) الحجرات: ٦.

وتسورت الجدار . . والله تعالى يقول: **﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾**.

ولم تستأذن . . والله تعالى يقول:

﴿لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾.

وسكت رضى الله عنه مع أن الحق فى جانبه.

٥ ـ اجتناب الظن:

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾[١].

فالاحتياط يفرض على المؤمن أن يستبعد كثيرا من الظنون فلا يأخذ بها من أجل ظن واحد قد يكون خاطئا . .

أى أن ظنونا كثيرة تتعلق بأناس كثيرين تتوفر لديك بحكم موقعك الإعلامى الكاشف . . ولكن . . لأنك لا تملك وسائل التأكد منها . . فاستبعد أكثرها ـ وإن كنت مقتنعا به ـ من أجل ظن واحد قد تخطئ فيه.

الجوارح.. أمانة يجب حفظها:

وعلى رجل الإعلام الإسلامى أن يتحمل مسئوليته عن جوارحه فلا يوظفها إلا فيما خلقت له . . وإلاَّ . . فإنه مسئول أمام ربه سبحانه وتعالى عن كل ما رأى . . وما سمع . .

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾[١].

ويلاحظ هنا إفراد السمع وإفراد البصر أيضا . . ليشعر المسلم أنه مسئول مسئولية مباشرة عن سمعه هو . . وبصره هو . .

وأولى تبعات هذه المسئولية ألا يجرى وراء خبر . . ولا يخوض فى أمر لا يملك وسائل التحقق منه.

وإن الإحساس بهذه المسئولية ينبغى أن يظل متوهجا فى كيانه وبخاصة إذا

---

(١) الحجرات: ١٢.   (٢) الإسراء: ٣٦.

تذكر أنه جندى فى معركة يواجه فيها إعلاما مضادا يمكر بأمته ويعرقل حركتها . .

[وأمام هذا السيل العارم من وسائل الإعلام المقروءة، والمسموعة والمرئية . . لابد أن تدرك أن التنافس شديد الخطورة، وأن القارئ يتطلع باستمرار إلى نوع من المادة الإعلامية التى تخاطب فيه رغباته ودوافعه وطموحاته، وهناك إعلام لا يهمه سوى دغدغة الغرائز والشهوات ودور الإعلام الإسلامى دور جاد؛ لأنه دور مسؤول إنه دور الرسالة التى تنمى جوانب الخير، والعدل والقوة فى الإنسان، وتنظم الغرائز وتضبطها وتوجهها وجهة معينة، وكل هذه المسئوليات تحتاج إلى خبرات جيدة وتتطلب معرفة واسعة بطبائع النفس، وأشواقها كما تتطلب معرفة دقيقة بأساليب التأثير على هذه النفس بالكلمة والصورة والإيحاء. إن لغة المنابر، وليست لغة الوعظ الحرفى ولكنها لغة الأرقام ولغة علوم النفس والاجتماع والاقتصاد لغة الحدث اليومى وانعكاسه على حياة الناس.

إذن فالإعلام الإسلامى يجب أن يكون رائدا للجماهير يغذيها بالخبر الصحيح].

٦ ـ القدرة على الإقناع :

ولأن الإعلامى صاحب فكرة يجليها الناس . . فى محاولة لإقناعهم بجدواها . . فلابد من توفر القدرة على الإقناع فى مقام الجدل . .

الإقناع بالحكمة والجدال بالتى هى أحسن بعيدا عن التجريح أو التشويش . .

إن الإعلامى المسلم يؤمن بإله عالم بما تخفى الصدور . . قادر على الأخذ بناصيته . . ومن ثم فلا يغدر . ولا يتزيد على الناس . وإذا لم تسعفه الدنيا جزاء على قول الحق فهو شاعر فى نفسه أولا براحة إذ وفق إلى ذلك .

وثانيا : هو يؤمن بيوم الدين والجزاء وإذن . . فإن أجره مدخر له عند ربه . .

فلا داعى للمتاجرة بأسرار الناس .

هذه التجارة التى احترفها كثير من الملحدين اليوم . . وظهرت أسرار البيوت على صفحات الجرائد نظير أثمان باهظة يسيل لها لعاب الطامعين .

إن خالقه وخالق الناس واحد سبحانه . .

وكذا مصيره ومصير الخلق جميعا واحد..

وهذه الأحاسيس تجعل منه عضوا فى الأسرة العالمية.. فلا ينخدع بجنس ولا لون ولا مذهب.. وإنما يتوخى الحق الموضوعى.. مهما كانت النتيجة وفاء لهذا النسب المشترك.

وإذا طاشت أحلام الناس.. ورمت بهم حيث الربح الوفير ولو على حساب الأعراض البريئة.. وإذا خفت عقول فسعت وراء الأخبار المثيرة بغض النظر عن توثيقها..

على ما يقول سبحانه:

﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾.

فإن رجل الإعلام الإسلامى نوع آخر:

إنه لا ينقل الأخبار كيفما اتفق.. ولا يُرضى نفسه أن يكون بوقا متنقلا هكذا بلا إرادة أو تفكير..

ولكنه - بحكم إيمانه - ملتزم بالضابط المانع حين يرد الأمر إلى أهل التمحيص والتوثيق:

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾.

الإيمان عاصم من الكذب:

المفروض فى رجل الإعلام أنه مؤمن.. والإيمان معناه: التصديق. وإذن فأولى خصائصه - بحكم إيمانه - أن يكون صادقا.

وحين يكون كذلك فإنه يبذل فطرته. ولا يتكلف شيئا، ولا يستعيره من خارج نفسه. وحين سئل رسول الله ﷺ:

أيكون المؤمن بخيلا؟

قال: نعم.

أيكون جبانا؟

قال: نعم.

ولما سئل: أيكون كذابا؟!

قال: لا!!

فمن المحتمل أن يكون المؤمن.. بخيلا.. أو جبانا خضوعا منه لغريزة التملك.. أو حب الحياة.. لكن احتمال الكذب مرفوض ابتداء.. فليس فى داخله ما يحمله عليه.

ومعنى ذلك احتمال أن يكون المؤمن جبانا أو بخيلا.. إلى غير ذلك من الصفات التى لا تشكل عدوانا أساسيا على ذات الغير.. أو حقه..

أما أن يكون كاذبا فلا:

أ ـ لأن جوهر حقيقة الإيمان: الصدق.. فالاتصاف بالكذب مع ذلك تناقض.

ب ـ الكذب ظلم:

لأنه نقل الحقيقة عن موضعها بأسلوب التغرير والتزوير.

والكذب صفة النفس كما هو صفة اللسان:

وكذب النفس يعنى:

عجزها عن قبول الحقائق.. واستبدال الزيف بها.

وكذب العمل:

أداء ظاهره.. لا لبّه.

إن الصدق مجموعة من الفضائل: فهو:

أ ـ شجاعة أدبية ترفض الخوف من النقد.

ب ـ كبرياء ذاتى يرفض الرياء والتزلف.

جـ ـ إحساس بالكرامة يأبى المصانعة واقتناص المنافع الشخصية على حساب الحق.

الكذب الأبيض:

بلغ احتياط علماء الحديث حدا حمل بعضهم على رفض رواية عالم كذب على بعيره حين استدعاه إليه موهما إياه أن فى كمه علفا!

وبذلك وضع علماؤنا مبدأ رفض ما يسمى بالكذب الأبيض!

لقد رخص الشارع الحكيم الكذب فى حالات الضرورة القصوى:

١ - فى الحرب.

٢ - فى مجال إصلاح ذات البين.

٣ - بين الرجل وزوجه.

ثم جعل فى المعاريض مندوحة عن الكذب.. وابتعادا عنه.

وعلى حد تعبير بعض العلماء[١]:

ليس فى الإسلام كذب أبيض.. أو أسود.. بل الكذب كله أسود كله.. بل أشد سوادا من ظلمة الليل!

إن وجه الكذب قبيح: مهما تعددت المرايا التى يظهر فيها..

والذين يبيحون الكذب الأبيض.. لن يستطيعوا أن يبيضوا سواد الليل أبدا!

إن القرآن الكريم قبح الكذب.. وتوعد الكاذبين.. بإطلاق.. ولم يفرق بين كذب أبيض.. وأسود..

وهذا الكذب حيلة: أملاها النفاق العصرى.

يشيع الكذب سواء كان أبيض كالبرص.. أو أسود كالحقد فى المجتمعات التى كبا جوادها:

فتقهقرت بعد تقدم.

وسقطت بعد صعود..

وجهلت بعد علم..

ذلك بأن فساد العقيدة.. والعمل.. واللسان.. وانطماس البصيرة.. كل

(١) د. محمد سعاد جلال.

ذلك له مضاعفات تنحل بها عرى الأخوة. ويشيع سوء الظن.. مما يحمل على الكذب.

وقد تشتد العلة لدرجة أن أمة تعاقب الصادق لأنها أمة كاذبة فكأنما تعتبر صدقه استفزازا لغيها وكبريائها.

وهنا تكون المواجهة بين:

من تجيش قلوبهم بمعانى الخير الباحثة عن التعبير عن ذاتها فى الواقع.. وبين الذين يأتمرون بها.

التحذير من الكذب:

فى لحظة من لحظات الضعف الإنسانى قد تسول النفس لصاحبها:

الافتيات على الحقيقة بواحدة من هذه الصور:

١ ـ بإضافة إليها.. وليست منها.

٢ ـ حذف كلمة منها تخدم غرضا معينا.

٣ ـ تزييف لهجة الرواية خداعا وتمويها.

ولكن التحذير النبوى يأخذ بخناق الإعلامى المسلم ليظل على ولائه للحق صادقا.. فرارا من عقاب رادع على كلمة باطلة يذيعها.

رأى ﷺ فى رؤياه رجلين أتياه فانطلقا به ـ فمرا به:

(على رجل مستلق لقفاه.

وإذا آخر قائم عليه بكلُّوب ـ خشبة فى رأسها عقَّافة منها أو من حديد ـ من حديد. وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه. فيشرشر شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه.

ثم يتحول إلى الجانب الآخر.. فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول. فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصبح ذلك الجانب كما كان. ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى.

قال: قلت: سبحان الله! ما هذا؟

إنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق)[1].

وحين تاب كعب بن مالك رضى الله عنه لما افتتن فتخلف فى الثلاثة الذين خلفوا قال: يا رسول الله:

إن الله إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت)[2]

ما هو الحل؟

ليس الحل كما يقولون: أن نتكيف مع المجتمع على حساب الشرف والفضيلة، وهو الحل الواهى فى يد الناكصين على أعقابهم.

إن الحل هو:

الثبات.. والعناد.. والرجولة.. التى تتصدى للمجتمع الكاذب ولو امتلأت الأرض حرسا شديدا وشهبا!

ولتكن الحاطمة للنفس.. والأهل.. والمال هى الثمن..

وليكن!!

فلن يذهب ذلك هباء!

بيد أنه لبنات توضع فى بناء الإنسانية العالى.. ليظل شامخا.

إنها صوت الضمير.. الأكثر قيمة من هذا الذى ذهب منِّى:

فماذا يبقى للإنسان.. لو قتل بالكذب ضميره..

(إن كنوز الأرض لا تساوى كلها لحظة أنظر فيها إلى أعماقى فلا أجد فيها ضميرى المشرق.. المضىء.. وأجد مكانه جيفة منتنة).

(١، ٢) صحيح البخارى ٩/ ٥٦، ٦/ ٨.

من التطبيقات العملية للإعلام الإسلامى

تحويل القبلة
وأزمة الضمير

راقب اليهود المعارك الدائرة بين المسلمين والمشركين رقابة المتحيز للوثنية، وكان الظن أن يكونوا مع المسلمين فى خندق واحد ضد الوثنية ذلك العدو المشترك!

فماذا وجد اليهود؟

بدت من خلال المعركة الطحون شخصية المسلم أنصع جوهرا:

إن المسلمين:

كرماء، ثابتون على المبدأ، يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة، يحبون محمدا.. كما لم يحبَّ أحَدُ أحدا.

وإذن.. فقد بدا الفارق الهائل بين شخصية المسلم بخصائصها تلك، وبين شخصية اليهودى التى طبعت على:

البخل، والنفاق، والحرص على الحياة.. بل إنهم لأحرص الناس عليها حتى من المشركين ويعنى ذلك: أن وجود اليهود مستحيل ما بقى المسلمون. وبقاء أحدهما نفى للآخر.

وأين الكيان اليهودى الجبان، من ذلك المسلم الذى كان يحتضر على أرض المعركة، وفى آخر رمق من حياته يقول لصاحبه: أوتر لى قوسى؟!!

إنه يثرى الحياة التى يودعها.. لكنه يغرس بذورها وشمسه تغيب!

عقدة الشعب المختار

وتحركت عقدة الشعب المختار لتثبت وجودها، فى محاولة لتصفية الوجود الإسلامى ولكن ما هى الوسيلة؟

بالمواجهة العسكرية؟

لقد وافتهم الأنباء بالفدائية المثالية على الجبهة الإسلامية وكيف أن المسلم

يحرص على الموت فتوهبُ له الحياة ثم هو يخوض معركته وهو على يقين من النصر إما بالعودة سالما، بالأجر والغنيمة وإما بالشهادة التى تمنحه حياة أخصب وأرحب، ومن دمه الذى سال على أرض المعركة تنبت براعم جديدة. . أشبال جدد. . يواصلون المسير.

من أجل ذلك قرروا إعلان الحرب النفسية:

١ ـ عن طريق أسئلة محرجة يُوَسْوِسون بها للمشركين إعناتاً.

٢ ـ ثم بمثل قولهم: «راعنا» محرفين الكلم عن مواضعه. .

٣ ـ ثم كان موقفهم من تحويل القبلة:

لقد كان تحويل القبلة واحداً من المواقف التى حاول فيها المغرضون تعكير النهر الجارى حتى لا يروى غلة الظمأ، وحَجْبَ الضوء الساطع حتى لا يهدىَ الحيارى.

ولكن الحق سبحانه وتعالى يرد السهام المسمومة إلى نحور الأعداء، على نحو يبدو فيه الدرس مفيدا، تتملاه العيون، وتعيه قلوب ينبغى أن تكون على بصيرة بما يراد لها.

وكيف تُعَدُّ للحملة المستمرة عدتها على مدار الزمان حفاظا على شخصيتها التى يجب أن تبقى شاهدة على الناس.

ثم.. ماذا عن تحويل القبلة فى القرآن؟

يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن**

رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ . وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٢ ـ ١٤٥].

قبل التحويل:

لما كان تحويل القبلة حدثا مهما. اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن يهيئ الأمة الإسلامية لتكون على مستواه:

يقول ابن القيم:

وتأمل حكمة العزيز الحكيم ولطفَه وإرشادَه فى هذه القصة لمّا علم أن هذا التحويل أمر كبير كيف وطّأه ومهده وذلله بقواعد قبله: فذكر النَسْخَ. وأنه إذا نسخ شيئا أتى بمثله أو خير منه.

وأنه قادر على ذلك فلا يعجزه.

ثم قرر التسليم للرسول وأنه لا ينبغى أن يُعتَرض عليه. ويُسألَ تعنتاً. كما جرى لموسى مع قومه.

ثم ذكر البيت الحرام وتعظيمه وحرمته. وذكر بانيه. وأثنى عليه. وأوجب اتباع ملته.

فقرر فى النفوس بذلك تَوَجَهَهَا إلى البيت بالتعظيم والإجلال والمحبة. وإلى بانيه بالاتباع والموالاة والموافقة.

وأخبر تعالى أنه جعل البيت مثابة للناس.. يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرا. فالقلوب عاكفة على محبة دائمة الاشتياق إليه. متوجهة إليه حيث كانت.

ثم أخبر أنه أمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله: **﴿أن طهرا بيتى﴾**.

وهذه الإضافة هى التى أسكنت فى القلوب من محبته والشوق إليه ما أسكنت.

وهى التى أقبلت بأفئدة العالم إليه. فلما استقرت هذه الأمور فى قلوب أهل الإيمان وذُكِّروا بها. فكأنها نادتهم أن استقبلوه فى الصلاة.

ولكن توقفت على ورود الأمر من رب البيت. فلما نزل قول الحق: ﴿**فول وجهك شطر المسجد الحرام**﴾ تلقاه رسول الله ﷺ والراسخون فى الإيمان بالبشرى والقبول. وكان عيداً عندهم.

تحصين المتلقى

ولقد استفاد الأجانب من هذا التوجيه القرآنى الراشد، فصاغوا ما يسمى بنظرية تحصين المتلقى.. بمعنى تزويد المستمع بما يحميه من كيد أعدائه. الذين قد يفاجئونه بما يُربكه، لكنه يكون محصنا بما لديه من علم سابق. وفى ضوء هذا المعنى، فقد كان المتبادر طبق التسلسل الزمنى أن يكون ترتيب الآيات النازلة بشأن القبلة هكذا:

﴿**قد نرى تقلب وجهك**﴾ ثم.. ﴿**سيقول السفهاء**﴾.

ولكن الحق سبحانه وتعالى قدم الأُولى على الثانية. تزويدا للأمة بما سوف يحدث لتستعد للمواجهة.. توطينا للثقة، وإعدادا للجواب. وإظهارا للمعجزة.

يقول الرازى:

[إن الله تعالى أخبر عنهم قبل أن يذكروا هذا الكلام أنهم سيذكرونه.

وفيه فوائد:

إحداها: أنه عليه الصلاة والسلام إذا أَخْبَر عن ذلك قبل وقوعه، كان هذا إخبارا عن الغيب، فيكون معجزا.

وثانيها: أنه تعالى إذا أخبر عن ذلك أولا ثم سمعه منهم. فإنه يكون تأذِّيه من هذا الكلام أقلَّ مما إذا سمعه منهم أولا.

وثالثها: أن الله تعالى إذا أسمعه ذلك أولا. ثم ذكر جوابه معه. فحين يسمعه النبى عليه الصلاة والسلام منهم. يكون الجواب حاضرا.

ومن الناحية النفسية:

فإن مفاجأة المكروه أشد. والعلمَ به قبل وقوعه أبعد عن الاضطراب وبذلك تهون الصدمة وتخفف الروعة وتنكسر شوكة المكروه].

يقول صاحب المنار: يقال إن هذا خبر عظيم بِمِنْحة جليلة ومِنَّة بنعمه كبيرة،

فلمَ جيء به معترضا فى أطواء الكلام عن القبلة ولم يجيء ابتداء أو فى سياق تعداد الآلاء والنعم؟ والجواب: أن الله تعالى علم أن الفتنة بمسألة القبلة ستكون عظيمة وأن سيقول أهل الكتاب: إن محمدا ليس على بينة من أمر ربه؛ لأنه غير قبلته ولو كان الله هو الذى أمره بالصلاة إلى بيت المقدس لما نهاه عنه ثانيا وصرفه عن قبلة الأنبياء. ويقول المنافقون: إنه صلى أولاً إلى بيت المقدس استمالة لأهل الكتاب ودهاناً لهم ثم غلب عليه حب وطنه وتعظيمُه فعاد إلى استقبال الكعبة فهو مضطرب فى دينه. وأمثال هذه الشبهات - على كونها تدل على عدم الاعتدال فى أفكار قائليها - تؤثر فى نفوس المسلمين فالمطمئن الراسخ فى الإيمان يحزن لشكوك الناس وتشكيكهم فى الدين والضعيف غير المتمكن ربما يضطرب ويتزلزل؛ لذلك بدأ الله بإخبار المسلمين بما سيكون بعد تحويل القبلة من إثارة رياح الشبه والتشكيك ولقّنهم الحجة وبين لهم ما فيها من الحكمة وبين لهم منزلتهم من سائر الأمم وهى أنهم أمة وسط لا تغلو فى شىء ولا تقف عند الظواهر وأنهم شهداء على الناس وحجةٌ عليهم باعتدالهم فى الأمور كلها وفهمهم لحقائق الدين وأسراره، ومن أهمها أن القبلة التى يتوجه إليها لا شأن لها فى ذاتها وإنما العبرة فيها باجتماع أهل الملة على جهة واحدة وصفة واحدة عند التوجه إلى الله تعالى).

أهمية القبلة الواحدة:

إذا اقتضت مشيئته تعالى أن يخلق الناس لعبادته. فقد كان من حكمته سبحانه أن يتجه بهم فى عبادتهم إلى قبلة واحدة.

فمن شأن القبلة الواحدة أن توحد مشاعرهم. فإذا صفوا أقدامهم عبرها، انعكس هذا المشهد الآسر على قلوبهم، فعاشوا بقلب واحد!

ومن حكمته تعالى أيضا أن تكون القبلة هى الكعبة البيت الحرام:

لأنها الوسط، تتجه إليها الأمة الوسط، يقول الرازى فى تعليل ذلك:

إذا حضر العبد الضعيف مجلس الملك العظيم لابد أن يكون مستقبله. غير معرض عنه.

والمقصود من الصلاة: الخضوع. والسكون. وتركُ الالتفات والحركة. وهذا

لا يتم إلا إذا بقى فى صلاته ملتزما جهة واحدة على التعيين، فإذا خص الله تعالى جهة على التعيين فاستقبالها أولى.

ثم إن الله تعالى يحب الألفة والموافقة بين المؤمنين، فوحَّد قبلتهم. والكعبةُ سرة الأرض ووسطها فأمرالله تعالى جميع خلقه بالتوجه إلى وسط الأرض. إشارة إلى أنه يحب العدل فى كل شىء.

الشخصية المتميزة:

لم يكن توجه المسلمين إلى بيت المقدس ثم التحولُ عنه إلى الكعبة المشرفة ضربة لازب وإنما كان بداية لصقل الشخصية الإسلامية. التى يجب أن تظل فى عليائها فريدة متميزة. فلا تنحاز إلى شرق أو إلى غرب: يقول الرازى:

(أمَرَهم الله تعالى حين كانوا بمكة أن يتوجهوا إلى بيت المقدس. ليتميزوا عن المشركين.

فلما هاجروا إلى المدينة. وفيها اليهود. أُمروا بالتوجه إلى الكعبة ليتميزوا عن اليهود).

وإذا كان من المفسرين من يقول: إن ذلك كان تأليفا للقلوب. فربما كان ذلك تبعا، ولم يكن قصدا أوليا.

ذلك بأن المراحل الأولى فى تكوين العقائد لا تقبل المساومة.

حتى إذا استقرت. فصارت عصية على الزوال، أمكن لأصحابها أن يتسموا بشىء من المرونة ولكن إلى حين.

ماذا قال سفهاء الناس؟

كان هناك تنسيق كامل بين التحالف الباغى من اليهود والمنافقين والمشركين.

وقد وصفهم الحق تعالى بالسفه.. ليلفت نظر المسلمين من أول الأمر: مَن هُم.. ومن أنتم..

ما وزن هؤلاء الذين يشغبون عليكم.. وأين هم من موقعكم الممتاز والذى يفرض عليكم إدارة المعركة لحسابكم، دون تأثر بالإعلام المعادى..

وتعبِّر الآيات الكريمة بالسين [سيقول] لا «بسوف»، فالسين أقصر مدى من

سوف، ومعنى ذلك: أن المعركة وشيكة الوقوع ـ قبل بدر بأيام ـ حتى يستعدوا من الآن.. دون إبطاء.

ومهما قال أعداؤكم فلن تتحقق أمانيُهم ذلك بأنهم سفهاء:

سفهاء العقول: جاهلون.. طائشون.. سفهاء الخلُق: خبثاء سيئوا الظن، استمهنوا أنفسهم بالتقليد. والإعراض عن النظر، فقالوا: **﴿ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها﴾**.

ولقد جاء النص بالسؤال ولم يذكر الشبهة، ولعل فى هذا درسا من دروس الدعوة الذى يفرض أحيانا كتمان بعض الشبهات وبخاصة فى مجال العامة حتى لا تؤثر فيهم.

حملة التشكيك

وعندما اتجه المسلمون إلى بيت المقدس فرح اليهود، ثم انتهزوا فرصة استثمروها لصالحهم فى حرب دعائية يراد بها التمويه فقالوا: [محمد ليس على بينة من أمره].

ثم أرادوا فرض الوصاية على المسلمين فقالوا: [لولا أنا أرشدناكم إلى القبلة. لما كنتم تعرفون القبلة].

وكان ذلك تشجيعا للمنافقين الجبناء الذين قالوا:

[ما بالهم كانوا على ملة ثم تركوها].

وأعلن المشركون أن محمدا تحير فى دينه وأقسموا: والله ليرجعن إلى دين آبائه]، وزعم آخرون أنه اشتاق إلى بلد أبيه ومولده ثم عرّضوا بالرسول. فقالوا ثنويها بثباتهم [أبَى إلا الرجوع إلى موافقتنا. ولو ثبت عليه لكان أولى به].

وهكذا قاد اليهود حملة التشكيك المدفوعة بحقدهم: لماذا عاد المسلمون إلى قبلتهم الأولى. واحتطب فى حبلهم المنافقون والمشركون.

نجاح مؤقت

حققت حملة التشكيك نجاحا مؤقتا حين جزع بعض المسلمين وتساءلوا عن صلاة إخوانهم الذين ماتوا قبل أن يتحولوا إلى الكعبة وذلك قولهم: [لسنا نعلم حال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون نحو بيت المقدس].

الأمة عند حسن الظن بها

ومع ذلك فقد تجاوزت الأمة المحنة، وسعى نور الإيمان بين يديها وسط هذا الضباب الإعلامى الكثيف. . وكانت استجابتها سريعة. .

ففى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنه قال:

(بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن.

وقد أُمر أن يستقبل الكعبة. فاستقْبَلوها.

وكانت وجوههم إلى الشام. فاستداروا إلى الكعبة).

وهكذا تلقت الأمة أمر رسولها بهذه الطاعة. إنهم لا يعبدون الجهة. ولكنهم يطيعون الآمر سبحانه وتعالى.

ثم هم فى صلتهم بالقائد ﷺ: يكفى أن يقول ليستجيبوا طائعين/ إن كان قال، فقد صدق).

وأمة هذا شأنها، تتلقى توجيهاتها من مصدر واحد، وتلتزم فى ممارساتها للحياة بنظام واحد، وخلف قائد واحد، أمة هذا شأنها، لا تموت أبدا.

فى نور القرآن الكريم

[سيقول السفهاء]:

إنهم السفهاء خفاف الأحلام المتسرعون الذين لا يثبتون على حال من القلق. لفقدان الإيمان الذى يحفظ التوازن.

وإذا كان سفيها من عدل عن أمر دنيوى صالح، إلى آخر ضار. فأولى بالسفه من عدل فى باب الإيمان عن الحق. فلا كافر إلا وهو سفيه.

ودليل سفههم: منطقهم المتهافت بشأن تحويل القبلة فيما حكاه القرآن الكريم:

﴿ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها﴾.

* ومنشأ الشبهة عندهم: أنه لما كانت الجهات كلها متساوية، فى جميع الصفات فلا فضل لجهة على جهة. ومن ثم فتحويل القبلة عبث؟! لأنه ترجيح

بلا مرجح.

* ونسى هؤلاء أن الجهات كلها وإن كانت متساوية، ولا تستحق جهةٌ لذاتها أن تكون قبلة، إلا أنها صارت قبلة لأن الله تعالى جعلها قبلة، وإذن فلا مجال للاعتراض.

٢ ـ ثم إن أعداءكم أيها المؤمنون ناس «من الناس».

إنهم «خامة» الإنسان مفرَّغة من الإيمان؛ ومن ثمّ فلا وزن لهم. وليس لديهم ما يخيفكم.

والحملة الإعلامية الصادرة عن هذا الفراغ زبد. يطفو على السطح، ثم يذهب جفاء.

٣ ـ ويترك القرآن الكريم قوى العدوان تتخبط فى ليلها البهيم، ثم يستقبل المسلمين كاشفا لهم عن وسطيتهم التى امتلكوا بها أزِمّة الأخلاق العالية.

وعن موقعهم الجغرافى الفريد. وما يترتب على ذلك من الأخذ بزمام المبادرة، وتبوأ مكان الريادة والسيادة فى العالم وعلى أمم الأطراف من الشاكّين أن يتلقوا التوجيه فى قضايا الإيمان من المنصة.. من الأمة المهيمنة والكتاب المهيمن.

فلا حكم إلا لله. ولا قائد إلا رسول الله والذين آمنوا معه.

وعلى القافلة المؤمنة أن تنطلق ولن يضيرها نباح الكلاب!

وهذا هو قدر الأمة المسلمة. التى جعلها الله تعالى واسطة العقد. غير قابلة للتآكل والانهيار مادامت ممسكة بالحبل. ماضية على سواء الصراط.

وإذا غلت النصارى، فجعلوا الابن المزعوم إلها، وإذا قصرت اليهود فقتلوا الأنبياء وبدلوا الكتب، وإذا عرّضوا لهذا مجتمعاتهم للانهيار فإن الأمة الوسط بخصائصها عصية على الانهيار غير قابلة للتآكل.

ذلك هو مركز الأمة الإسلامية فى العالم.. والذى يفرض عليها أن تكون على مستوى المسؤولية شاهدة على الناس، تحمل كتابا يهيمن على الكتب، حتى إذا استشعرت هذه المسؤولية مضت فى خطها المرسوم فوق ما يريد لها الكافرون.

ومن أقوال المفسرين فى الوسط

والوسط من كل شىء هو مركز الاعتدال منه ونقطة التوازن فيه.

وطبيعى أن فوق الوسط منزلةً أعلى منه وأنه ليس غاية الكمال ومع هذا فإن فى مجموعه خير مما فوقه؛ لأنه أثبت وأدوم؛ ولأنه أقرب إلى متناول الناس. إن الاعتدال فى أى شىء وفى كل شىء هو ما يحتمله الناس ويقدرون على الوفاء به ويصبرون على ما يكرهون منه، أما فوق الوسط فهو أمر لا تحتمله أكثر النفوس ولا تصبر عليه وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل فيختل توازنه ويسقط ولا تكون السلامة والعافية إلاحيث الاعتدال الذى يجد الإنسان فى مجاله القدرة على التحرك إلى فوق وإلى تحت وهو فى تلك الحركة - بحكم الوسط - لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به حيث يظل - بالوضع الذى هو فيه - مشرفاً على الأرض مستشرفا بالسماء!

وقد يقول بعض القائلين: إن الوسط لا طعم له ولا ذاتية لوجوده، إنه أشبه بالخط الوهمى بين شيئين، إنه ليس شيئا ولا ضد شىء.

إن القسمة فى الأمور هى الشىء وما يقابله: الخير والشر، الأبيض والأسود، الحلو والمر، الجميل والقبيح، اليمين والشمال، أما الوسط الذى يفصل بين المتقابلات فليس إلا خطأً وهميا. ونقول: إننا لا ننكر أن الوسط ليس هو الكمال كله وأن فوق الوسط منازل كثيرة للفضل وأنه غير محجور على الناس أن يرتفعوا إليها وأن يتنافسوا فيها، بل إن ذلك مندوب محمود، ولكن هذا شىء والتشريع العام شىء آخر. التشريع إلزام لا انفكاك منه، والتشريع عقد بين صاحب هذه الشريعة وأتباع هذه الشريعة. فهم مطالبون بالوفاء بما شرع لهم وهم ملومون مأخوذون بالعقاب إذا قصروا، وليس الأمر كذلك فيما كان تطوعاً واختياراً، إذ للإنسان أن يمضيه أو يعفى نفسه منه، ولا لوم عليه!

والتشريع حين يكون عاما لأمة أو للإنسانية كلها تقتضى الحكمة فيه أن يكون قائما على معيار يسع الناس جميعا، الأقوياء والضعفاء، فى جميع الأزمان والأوطان.

لذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده فى دعوتهم إلى الإسلام الذى أريد له أن يكون دين الإنسانية ومختتم رسالات الأنبياء اقتضت هذه الرحمة الراحمة أن

تكون شريعة هذا الدين مقدرة على قدر ما يحتمل الضعفاء لا الأقوياء وأن يكون ما فى الأقوياء من قدرة على احتمال ما فوق هذا التشريع هو فضل من فضل الله عليهم يزدادون به كمالا فوق الكمال الذى بلغوه بأداء ما كلفوا، فإنه ما على المحسنين من سبيل.

الحق تعالى يتلطف بعباده

أجاب تعالى عما سأل عنه المؤمنون من صلاتهم إلى القبلة الأولى، وصلاة من مات من إخوانهم قبل التحويل فقال: **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾**.

وباءت دعايات المغرضين بالفشل. ولقد سقطوا فى الامتحان.

بينما كان النجاح حليف المؤمنين، تلطفا بعباده سبحانه وتعالى، وإذا كان تعالى بالناس جميعا رءوفا رحيما، فإن للمؤمنين من رأفته ورحمته نصيبهم الأوفى.

أزمة الضمير

حقق الله تعالى رجاء نبيه الذى قلّب وجهه فى السماء، قلب وجهه فقط، ولم يسأل التحويل أدبا.

ثم نبه المؤمنين إلى خطورة موقف أهل الكتاب، ومدى تأثير دعاياتهم دون المشركين.

إنهم أهل كتاب، وربما لذلك خَدَع مظهرهم الجماهير ففتنوا بهم - أما المشركون فلا يُلتفت إليهم غالبا - فلتكونوا من أهل الكتاب على حذر..

ولما كان ﷺ حريصا على هدايتهم بالذات، تمنى لو أنه بدد كل شبهة فى أدمغتهم، من أجل ذلك بين له الحق سبحانه أن أزمة هؤلاء ليست أزمة ذكاء، فهم يعلمون يقينا أن الذى أنت عليه هو الحق، ولكنهم يجحدون: **﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾** إنها إذن أزمة ضمير، لا أزمة ذكاء!!

ونذكر هنا ما قاله العقاد:

(إن ضخامة الخطأ مع سهولة الإلمام بالصواب خليقة أن تفتح باب الاتهام فى سلامة القصد. قبل الاتهام فى سلامة التفكير).

ثم . . لماذا الكعبة بالذات.

ذكر المفسرون خصوصية التوجه إلى الكعبة لأنها:

أ - قبلة أبيهم إبراهيم.

ب - أقدم القبلتين.

جـ - أدعى لإيمان العرب.

د - وفيها مخالفة لليهود.

الثبات على المبدأ

وتجيء الآية التالية قاطعة أطماع أهل الكتاب فى احتواء المؤمنين، موضحة فى نفس الوقت ما يجب على المسلمين من ثبات على ما هم عليه، معلنين يأسهم من إيمان قوم لو جئتهم بكل آية ما تبعوا قبلتك، فضلا عن اتباعهم ملتك محذرة من الانخداع بهم تحت أى ظرف من الظروف:

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾.

وفى مجال الحديث عن التنازل والدخول فى مساومة على العقيدة نلاحظ تشدد القرآن الكريم فى التحذير من الانزلاق وراء آمال كذاب، من أجل ذلك تجيء الآية على غاية ما يكون التحذير:

يقول البيضاوى:

(وأكد تهديده. وبالغ فيه من سبعة أوجه:

أحدها: الإتيان باللام الموطىء للقسم.

ثانيها: القَسَم المضمر.

ثالثها: حرف التحقيق. وهو (إنّ).

ورابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية.

خامسها: الإتيان باللام فى الخبر.

سادسها: جعله من الظالمين ولم يقل إنك ظالم.

لأن فى الاندراج معهم إيهاما بحصول أنواع الظلم.

سابعها: التقييد بمجيء العلم تعظيما للحق المعلوم وتحريضا على اقتفائه. وتحذيرا عن متابعة الهوى، واستفظاعا لصدور الذنب عن الأنبياء).

مع ابن القيم:

وفى تحريض الأمة على الاتفاق وتحذيرها من الاختلاف يقول ابن القيم: وقوله **[فاستبقوا الخيرات]**.

مشعر بصحة هذا القول إذا كان أهل الملل قد تَولَّوا الجهات فاستبقوا أنتم الخيرات وبادروا إلى ما اختاره الله لكم ورضيه وولاكم إياه ولا تتوقفوا فيه أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا يجمعكم من الجهات المختلفة والأقطار المتباينة إلى موقف القيامة كما تجمعون من سائر الجهات إلى جهة القبلة التى تَؤُمُّونها فهكذا تجتمعون من سائر أقطار الأرض إلى جهة الموقف الذى يؤمه الخلائق وهذا نظير قوله تعالى: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا منكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾** [المائدة: ٤٨] وأخبر أن مرجعهم إليه عند إخباره بتعدد شرائعهم ومناهجهم كما ذكر ذلك بعينه عند إخباره بتعدد وجهتهم وقبلتهم فقال: **﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا﴾** وتحت هذا سر بديع يفهمه من يفهمه وهو أنه عند الاختلاف فى الطرائق والمذاهب والشرائع والقِبَلِ يكون أقربها إلى الحق ما كان أدل على الله وأوصل إليه لأنه كما أن مرجع الجميع إليه يوم القيامة وحده وإن اختلفت أحوالهم وأزمنتهم وأمكنتهم فمرجعهم إلى رب واحد وإله واحد فهكذا ينبغى أن يكون مرد الجميع ورجوعهم كلِّهم إليه وحده فى الدنيا فلا يعبدون غيره ولا يدينون بغير دينه إذ هو إلههم الحق فى الدنيا والآخرة فإذا كان أكثر الناس قد أبى ذلك إلا كفُورا وذهابا فى الطرق الباطلة.. فاستبقوا أنتم أيها المؤمنون للخيرات. وبادروا إليها ولا تذهبوا مع الذين يسارعون فى الباطل والكفر).

وبعد:

فما تزال حملة التضليل مستمرة، كما يشير سياق الآية الكريمة: **﴿سيقول السفهاء..﴾**.

وقد سمعنا أخيرا عن مسلمين وقعوا فى الشَرَك المنصوب عن طريق «البهائية» التى تنكر أن تكون الكعبة قبلة المسلمين، ولا بأس أن تكون القبلة إسرائيل؟!!

وإذن، فليبق الدرس متوهجا فى ضمير الأمة الإسلامية، لتقيم حياتها على قيم الكعبة المشرفة: مثابة للناس وأمنا، واستمساكا بالحق المبين.

لا سيما وأجهزة الإعلام المعادية ما تزال تمارس هوايتها فى التضليل، وما هى ذى تضاهئ ما قاله الذين كفروا من قبل، ولكن فى صورة أخرى إنهم يقولون:

ما ولاهم عن قوانينهم التى كانوا عليها، ما الذى يحملهم على ترك شرعتنا، إلى شريعة الإسلام التى ينادون بتطبيقها؟!!

وإذا انطلى ذلك النداء الخبيث على الأجانب، فما عذر المسلمين الذين وضعهم الله فى مكان الصدارة فى الطليعة ليقودوا القطيع الشارد، ويعودوا بالعبد الآبق إلى ربه؟

إن الاحتفاظ بالقمة لأصعب من الوصول إليها.

فاعتبروا يا أولى الأبصار.

من ملامح الإعلام الإسلامى
فى سرية عبد الله بن جحش

قال عثمان بن عفان لعمر بن الخطاب رضى الله عنهما.. وهو يحذره من حماس عمرو بن العاص رضى الله عنه:

(إن عمرو الجرىء الجنان، وفيه إقدام، وحب للإمارة، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة، فيعرض المسلمين للهلكة).

ويشير رضى الله عنه بهذه النصيحة إلى أن عمرو بن العاص وهو من هودهاء وحكمة.. إلا أن فيه حماسا واندفاعا قد يورطانه عند الممارسة إلى هجمة غير محسوبة.. فيعرض من معه للهلاك.

وهذا هو المعنى الذى نعجل ببيانه قبل أن نتناول بالتحليل ما جرى فى سرية عبد الله بن جحش رضى الله عنه:

فعلى رغم أن السرية خرجت مدفوعة بالإخلاص لخدمة الدعوة.. تحمل الأرواح على الأكف انتصارا لها.. فى ظروف صعبة لا يلقاها إلا الذين صبروا..

إلا أن خطأ واحدا يرتكب عند الممارسة.. قد يعرض الأمة كلها للخطر.. ولا تكفى النوايا الطيبة حينئذ فى الدفاع عن شباب كان ينبغى ألا يستغرق تفكيرهم فى اللحظة الحاضرة.. ذاكرين أن لهم أعداء يتصيدون الأخطاء بغية استثمارها والمتاجرة بها، وقد يحققون انتصارا عاجلا.. قبل أن يحسم الحق تعالى المعركة لصالح المسلمين.

ولكن ما هى قصة هذه السرية؟

بعث ﷺ عبد الله بن جحش، وبعث معه اثنى عشر رجلا من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره، فإذا نظر فيه فليمض لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحدا.

فلما سار عبد الله يومين، فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه:

(إذا نظرت فى كتابى هذا، فامْضِ حتى تنزل نخلة، فترصد بها قريشا،

وتعلم لنا من أخبارهم)[1].

فقال عبد الله بعد قراءة الكتاب: سمعا وطاعة.

ثم قال لأصحابه: أمرنى رسول الله ﷺ بكذا.. وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم.

فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع.. فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ.

فمضى، ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد).

وهكذا يلقنهم ﷺ دروسا فى: الكتمان.. والتدريب على الإحاطة بأحوال العدو قبل مواجهته. حتى تكون المواجهة من بعد على بينة من الأمر.

ثم.. كيف لا يفرض القائد الدور على الجندى فرضا.. حتى يختاره الجندى بمحض إرادته..اللهم إلا إذا تعين هذا الجندى لأمر..فلابد حينئذ من التكليف..

وكانت الأسوة الحسنة خاتمة الدروس المستفادة..والتى حققت ثمرتها باستجابة الجند لأمر رسول الله ﷺ.. والذى اختار لهم أميرا لا يدير المعركة من غرفة العمليات.. وإنما هو معهم.. بل أمامهم على خط النار.. ثم هو قد احترم آراءهم.. ففوض أمر الاشتراك فى الخطر إليهم.. فكانوا هم أصحاب القرار الذى جاء موفقا رشيدا.

ومن وراء ذلك كله حكمة الرسول الخبير باتجاهات النفوس.. والمعين لها على اتخاذ أصعب القرارات.. فى أحرج اللحظات.. ذلك بأنه ﷺ لم يأمر عبدالله بمشاورتهم عند أول خطوة وقريبا من ديارهم وأهليهم وأولادهم فى المدينة.. ولو قد فعل لغلبتهم نعومة المضاجع.. وأحاديث الأهل.. فلم تساعدهم أنفسهم على الانطلاق وجاذبية السلامة تشدهم شدا!

لكنه ﷺ مع إرادة السرية.. قصد إلى دمجهم فى الدور.. بهذا السفر الطويل مقدار يومين.. والذى يعانون فيه شظف العيش.. ووحشة الطريق.. ليكون ذلك كله تدريبا وتهيئة للنفس التى دخلت منطقة الخطر فعلا.. وناهيك بالخطر باعثا على الفدائية والتضحية.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام.

ويلاحظ أن السرية كانت من المهاجرين، ولم يكن فيها أنصارى واحد.. لماذا؟

إنهم الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق.. فهم أول من يصفى الحساب مع الذين أخرجوهم ظلما وعدوانا..

ثم هم يخرجون أقوياء.. بلا حماية من الأنصار.. أهل المدينة.. ومعنى ذلك أن المهاجرين لم يعودوا مستضعفين كما كانوا.. بل هم أقوياء.. وهاهم أولاء يتحركون فى الميدان.. بلا منازع! وكانوا بذلك تفسيرا عمليا لقوله تعالى:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

فإذا تصورنا قوة الأنصار الرابضين فى المدينة مضافة إلى هذه القوة أدركنا حكمة الرسول الرامية إلى إرهاب الأعداء بهذه السرايا الخاطفة.. حتى لا تكون دماء ولا ضحايا..

وأدركنا كذلك حنكة القائد الملهم، والذى لا يلقى بكل قواته على أرض المعركة دفعة واحدة.. وإنما يرسلها تترى.. على ما يقول سبحانه وتعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[٢].

الامتحان الصعب:

كان من أهداف السرايا قبل غزوة بدر الكبرى ترويض النفوس على معايشة أصعب المواقف..

وقد حدث شيء من ذلك فى سرية عبد الله حين (أضل سعد بن أبى وقاص. وعتبة بن غزوان بعير لهما. كانا يعتقبانه[٣]، فتخلفا عليه فى طلبه)[٤].

وكان المتوقع أن تحدث هذه المفاجأة ربكة فى خطة السرية.. ولكن الأمير مضى كما أمره رسول الله ﷺ.. فليبحث سعد وعتبة عن بعيرهما الغائب.. ولتمض السرية فى خطها المرسوم.

(ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة)[٥].

---

(١) القصص: ٥، ٦.
(٢) يس: ١٤.
(٣) أى يتناوبان ركوبه.
(٤، ٥) سيرة ابن هشام.

ولا تغيب عنا صورة المعاناة التى فرضت على كل اثنين أن يتناوبا ركوب بعير واحد.. ومعنى ذلك أن يمشى كل واحد يوما كاملا فى هجير الصحراء.. وأنت خبير برحلة العودة وما تفرضه من إرهاق.. إلى جانب الجهد المبذول فى إنجاز المهمة الأساسية، والتى من أجلها كانت السرية.

وجاءت ساعة الصفر:

مرت بالسرية عير لقريش تحمل زبيبا وأدما. وتجارة من تجارة قريش. فيها عمرو بن الحضرمى. إذن فقد حانت الفرصة لتصفية الحسابات القديمة مع قريش!.

قريش التى صادرت ممتلكات المهاجرين.. بل حاصرت فى مكة أولادهم وحالت بينهم وبين رؤياهم..

وبكل المقاييس.. فمن حق هؤلاء المهاجرين أن يستردوا أموالهم.. وقبل ذلك أن يؤدبوهم فى لحظة ما كانت تخطر لقريش على بال!

وثارت غرائز التملك.. والثأر.. راغبة فى التعبير عن نفسها فى فرصة قد تذهب ولا تعود!

عنق الزجاجة:

لم يملك أمير الجماعة أن يفرض على زملائه رأيه.. وإنما كان أمرهم شورى بينهم..

لم يرد أن يكون زملاؤه أصفارا على الشمال..

ولقد كان له مبرر لو فعل:

فهو المفوض من قبل الرسول أن يكون أميرا على الجماعة.. لكن الإمارة لا تمنحه سيطرة تكبت الآراء.. وتنسف فى قلوب الشباب إرادة الاستقلال.. وعنصر الرجولة الفعال..

بدأت الشورى:

قال القوم فيما بينهم: (والله لئن تركتم القوم ـ أى تجار قريش ـ هذه الليلة،

ليدخلن الحرم. فليمتنعن منكم به.

ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام وكان ذلك آخر يوم فى رجب.

وكان الاختيار صعبا..

ومع ذلك لم يطل تردد عبد الله بن جحش ومن معه فقرزوا قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم.

فرمى «واقد بن عبد الله» «عمرو بن الحضرمى» بسهم فقتله.. وأقبل عبد الله ومن معه بالعير.. وأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة).

مضاعفات التسرع:

غضب الرسول ﷺ وقال:

ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام.

إن وظيفة السرية محددة: رصد تحركات قريش، والوقوف على أخبارهم.. فلحساب من تصعيد الموقف.. حتى كنتم كما يقولون: ملكيين أكثر من الملك؟!

وغضب إخوانهم من الصحابة أيضا فعنفوهم فيما صنعوا.

لحظة الندم:

وأسقط فى يد السرية وظنوا أنهم قد هلكوا..وأفاقوا على الحقيقة الواضحة:

وهى أنهم تجاوزوا الحد.. ولم يشفع لهم أنهم مخلصون فدائيون..

فلكى يبقى الإخلاص لابد من تتويجه بالالتزام بطاعته ﷺ. والأخذ فى الاعتبار مصلحة الدعوة التى قد تضرها الرصاصة الطائشة.. تطلقها يد راعشة منفعلة..

الإعلام المعادى يشن حملته:

انتهزت قريش فرصة تورط المسلمين فى القتال خلال الشهر الحرام.. وشنوا حملة إعلامية يراد بها إبراز المسلمين فى صورة المعتدى الذى لا يحترم المواثيق وقالوا: (قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام. وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال).

ووقفت قريش تبكى على الأطلال.. على حرمة الشهور التى انتهكت.. وجعلوا من عمرو بن الحضرمى حائط المبكى!

وكان لليهود إعلامهم الموجه والمصبوغ بالشماتة، والخبث فقالوا فرحين معرّضين بمحمد ﷺ وأصحابه:

«عمرو بن الحضرمى»

قتله «واقد بن عبد الله» ويعنى ذلك:

عمرو.. عمرت الحرب.

والحضرمى.. حضرت الحرب.

وواقد بن عبد الله.. وقدت الحرب!

موقف المسلمين:

كان للمسلمين فى مكة دورهم فى إحباط مفعول هذا الإعلام المعادى.. فصححوا تاريخ الواقعة التى كان فيها القتل، وقالوا للمغرضين من المشركين: إنما أصاب المسلمون ما أصابوا فى شعبان.. وليس فى رجب..

القرآن يحسم المعركة:

شاءت حكمة الله تعالى ألا يضع هذا الشباب المؤمن تحت رحمة المعتدين الذين يقتلون القتيل.. ثم يتباكون فى جنازته!

وصحيح أن الشباب أخطأ.. ولكنه خطأ الممارسة لا خطأ القصد..

فإذا جاء المغرضون اليوم ليجعلوا من الحبة قبة.. فقد آن أوان نصر الله والفتح.. بما أنزل من قرآن شفى به صدور المؤمنين بقدر ما كشف به نوايا المغرضين..

نزل قوله تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ

كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(1).

(وقد صرح هذا الوحى بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريب فى سيرة المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام، واضطهاد أهله.

ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟

فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لاجرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة)(2).

من خصائص الإعلام الإسلامى

من مميزات الإعلام الإسلامى:

١ ـ الاعتراف بالواقع.. والتسليم به.

٢ ـ الانطلاق بالحقيقة الواضحة يُدْمَغُ بها الباطل.

٣ ـ الأخلاق أساس الإعلام الإسلامى.

٤ ـ الحذر وأخذ الاحتياط.

وهذا ما أشارت إليه الآيات الكريمة:

اعترفت الآيات أولا بأن الشباب أخطأوا حين قتلوا فى الشهر الحرام.. لكنها تحاكم المشركين بخاصة وبنفس المقياس.. وكأنما تقول لهم:

سلمنا بأن المسلمين ارتكبوا كبيرة..

فأنتم إذن أكبر إثما وأعظم خطيئة:

صددتم عن سبيل الله تعالى..

وكفرتم به سبحانه.. وبالمسجد الحرام..

---

(1) البقرة: ٢١٧، ٢١٨.

(2) الرحيق المختوم: ٢٢٢/٢٢٣.

وأخرجتم أهله من ديارهم وأموالهم..

وطالما حاولتم فتنة المسلمين عن دينهم، حتى تردوهم إلى الكفر بعد الإيمان.. بل ما زلتم مصرين على فتنتهم حتى يصير كفرهم حقيقة واقعة:

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾.

وعندئذ أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين المشركين:

عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأدى دية المقتول إلى أوليائه، واضعا الأخلاق الطيبة أساسا للتعامل حتى مع أعدائه الذين لم ير المسلمون منهم يوما يبكون عليه.

ومع هذا الأساس الأخلاقى فقد كانت للكياسة كلمتها وقتئذ:

فلم يشأ رسول الله ﷺ أن يطلق سراح الأسيرين المشركين إلا بعد عودة «سعد بن أبى وقاص» و «عتبة بن غزوان» وكان بعيرهما قد ضل وذهبا فى طلبه ولم يعودا حتى لحظة المفاوضات على فداء الأسيرين المشركين.. وفى ذلك يقول ﷺ كما روى ابن إسحاق:

(قال رسول الله ﷺ:

لا نفد يكموهما حتى يقدم صاحبانا، فإنا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم.

فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم).

وهذه الحكمة فى تناول الأمور توفر على الأمة كثيرا من الحملات الإعلامية التى تستنفد الجهد والوقت، لتصرفها فيما يجدى.

السرية تحقق أهدافها:

حققت سرية عبد الله بن جحش أهدافها.. وانحسر الإعلام المعادى كالرغوة العائمة التى ذهبت جفاء.. (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض).

١ـ عاد أفراد السرية كما كانوا أبرياء صلحاء.. استعدادا للجولة الحاسمة فى بدر الكبرى.

يقول ابن إسحاق:

(فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا فى الأجر فقالوا: يا رسول الله: أتطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين؟

فأنزل الله عز وجل فيهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

فوضعهم الله عز وجل عن ذلك على أعظم الرجاء).

ومعنى ذلك: فشل الإعلام المعادى فى إضعاف روح القتال فى ضمير الجيش الذى لم يستسلم، ولم يمكن الأعداء من هزيمته نفسيا.

وهذا قائد السرية نفسه «عبد الله بن جحش» يسجل شعرا معبرا عن إرادة القتال التى لم تفتر فى كيانه أبدا:

قال عبد الله:

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة ... وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدوك عما يقول محمد ... وكفروا به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله ... لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ... وأرجف بالإسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا ... بنخلة لما أوقد الحرب واقد

يقول الشيخ محمد الغزالى[1]

(بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء، عندما تكون فى مصلحته.

فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينقصها هدم القوانين والدساتير جميعا.

فالقانون المرعى عنده فى الحقيقة، هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب).

(١) فقه السيرة: ٢٣١.

٢ ـ كان الحكم بن كيسان أحد الأسيرين المشركين . . .

وفى مدة الأسر أتيح له أن يرى المسلمين عن كثب . . وأن يلمس بنفسه شمائل النبى ﷺ، فأدركته من جلال النبوة بركة . . فأسلم وفضل الإقامة بالمدينة مع رسول الله ﷺ حتى قتل شهيدا يوم «بئر معونة».

وهكذا كسب الإسلام رجلا . . ولأن يهدى الله بك رجلا خير من حمر النعم . . وإذا كان ﷺ قد بعث بالعير إلى المشركين فقد كان إسلام ابن كيسان فى حد ذاته مكسبا هائلا . .

ولا شك أن صداه بين مشركى مكة كان بعيدا ومؤثرا.

٣ ـ (تحقق خوف المشركين، وتجسد أمامهم الخطر الحقيقى، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه.

وعلموا أن المدينة فى غاية من التيقظ والتربص:

تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبا، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين.

وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر داهم.

لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيبهم ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة ـ كما فعلت جهينة وبنى ضمرة ـ ازدادوا حقدا وغيظا.

وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل، من إبادة المسلمين فى عقر دارهم.

وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى «بدر»)[1].

وهكذا تتضح فى قلوبنا معالم الحكمة النبوية فى إطلاق سراح الأسيرين . . فقد تحقق الهدف البعيد حين أيقنت قريش أن المسلمين تغيروا إلى الأقوى . . وصار فى إمكانهم أن يقتلوهم وأن يحصروهم . . ولا يهم المسلمين بعد ذلك ما يحدث . . ولا عليهم إذا هم تنازلوا عن الأموال والرجال بعد ما فهمت قريش هذا الدرس الخطير.

---

(١) الرحيق المختوم ٢٢٣.

٤ ـ ونختم هذه الفوائد بما ذكره ابن قيم الجوزية تعليقا على هذه السرية ودفاعا عن المسلمين:

(والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال فى الشهر الحرام، بل أخبر أنه كبير.

وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال فى الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة.

لا سيما وأولياؤه كانوا متأولين فى قتالهم ذلك، أو مقصرين نوع تقصير، يغفر الله لهم فى جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات، والهجرة مع رسوله وإيثار ما عند الله)[١].

(١) السيرة النبوية للندوى.

تصدى القرآن للحملة النفسية

صورة من الحرب النفسية:

كان لليهود أسلوبهم الماكر فى الضغط على أعصاب المسلمين من أجل تدمير قواهم المعنوية بعد أن تأكد لهم استحال هزيمتهم عسكريا. . وقد مارسوا لعبتهم الخطرة على المستوى الشعبى والقيادى معا.

فعلى مستوى الأمة:

كان إذا مر بهم صحابى جلسوا يتناجون بينهم، حتى يظن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه وربما حققوا بعض النجاح حينما كان الصحابى يعدل عن طريقهم إلى طريق آخر، مما حدا به ﷺ إلى نهيهم، لكنهم عادوا لما نهُوا عنه، فحسم الحق سبحانه القضية بهذه الآيات الكريمة التى كشفت نواياهم كشفا يرفع من روح المؤمنين المعنوية بقدر ما يهدد اليهود بالعقاب.

يقول سبحانه:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾(1)

التركيز على القيادة

ولقد كان التركيز على القيادة قويا فى شخص الرسول ﷺ:

«عن عائشة رضى الله عنها: دخل على رسول الله ﷺ يهود فقالوا:

السام عليك يا أبا القاسم - والسام الموت -

فقالت عائشة: وعليكم السام.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة: إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش»**.

---

(1) المجادلة: 8.

قلت: ألم تسمعهم يقولون السام عليك؟

فقال رسول الله ﷺ: «**أو ما سمعت أقول وعليكم**..» فأنزل الله وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله..»

وتأملنا للحديث إلى جانب ما رواه البخارى فى هذا الباب يجلى لنا أسلوبا يحتذى من أساليبه ﷺ فى مواجهة الحرب النفسية:

إن الحرب هنا ليست سافرة.. وإنما هى خليط من المكر والجبن والخداع: فلم يذكر اليهودى الموت صراحة.. وإنما اختار لفظا بمعناه.. وفى نفس الوقت يشتبه مع لفظ السلام!

فإذا تأملنا مخاطبته ﷺ بأحب الأسماء إليه: يا أبا القاسم أدركنا جوهر الإعلام اليهودى الذى لا يحارب الحق على أرض مكشوفة وإنما باللف والدوران ومزج السم بالعسل!!

وإذا كان اليهود - على المستوى العسكرى - كما يقول سبحانه:

﴿**لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جُدُرٍ**﴾ فإنهم على المستوى الإعلامى أصغر من مواجهتكم هكذا صراحة ولكن على النحو الذى رأيت:

أولا: لأن طبيعتهم تأبى الصراحة، وثانيا: لضمان نجاح الخطة الإعلامية..

المجتمع يتصدى للحملة:

وقد اكتشفت عائشة رضى الله عنها بحسها البصير خيوط المؤامرة فردت على اللطمة بلطمات كما جاء فى رواية أخرى أنها قالت:

«وعليكم السام والذام - الذم - واللعنة».

ويعنى هذا الرد:

أ - الأمة صاحية لكل حركة معادية..

ب - ضرورة الانتصار من الظالم.. حتى لا يتفرد بالساحة..

جـ - الوقوف إلى جانب أهل الفضل عند تعرضهم للأذى إبقاء عليهم قمماً لا تهان ولا تضام.

ولنا أن نقول: إن الدولة التى تريد دعاة صالحين.. عليها أن تحميهم من الأذى، ليكونوا فعلا صالحين مصلحين.

وإذْ يرحب ﷺ بهذا الانتصار كمبدأ إلا أنه يصحح الوسيلة التى حددها هو فى كلمة واحدة:

[وعليكم]!

وكان لهذا الموقف النبوى الحكيم مسوغاته التى أشارت إليها مختلف الروايات:

١ ـ من الناحية الأخلاقية:

فالرفق خلق أصيل فى المنهج الإسلامى.. ويجب الالتزام به وذلك قوله:

«**مهلا يا عائشة: عليك بالرفق وإياك والعنف والفحش**»، كما ورد فى كتاب الأدب من البخارى.

٢ ـ ومن الناحية العملية:

فإنَّ حملتهم لن تحقق أغراضها: فإذا دعوا علينا، رددتُ عليهم، فيستجاب لى فيهم ـ لأنه بالحق ـ ولا يستجاب لهم فينا لأنه بالباطل.

وإذا كان الأمر كذلك.. فإن العنف لا يكون له دور هنا..

٣ ـ ومن الناحية النفسية:

ففطرة المسلم صافية نقية، لا تقول إلا الصافى النقى، وأُسْوته فى ذلك رسول الله ﷺ:

«لم يكن رسول الله ﷺ سبَّابا ولا فحَّاشا ولا لعانا، كان يقول لأحدنا عند المعتبة ـ العتاب ـ: ماله ترب جبينه..

إنه لم يكن فاحشا فحشا ذاتيا ولا تدخل البذاءة فى نسيج شخصيته، ولم يكن متفحشا متكلفا له.. ولو حاول ما طاوعته نفسه..

أما الكافر.. فيبذل فطرته الدنسة، وكل إناء بالذى فيه ينضح.. والشاعر الحكيم يحذر من ذلك فيقول:

ولو جاريت فى أمر سفيها فأنت ومن تجاريه سواء

ونظرة متأملة إلى منطقه الحكيم ﷺ تكشف كيف اكتفى بقوله:

«وعليكم» ولم يذكر لفظ السام الوارد..

بل إن سفيان بن عُيَيْنة كان يروى الحديث بلا واو فيقول: «عليكم»؛ لأن الواو تعنى أننا نشاركهم فى الإسفاف واستخدام نفس الأسلوب.. فإذا سقطت الواو كان المعنى: أننا نرد إلى اليهود ما ألقوهْ علينا بلا تدخل منا، فنحن أرفع من ذلك.

٤ ـ ويبقى العامل الأساسى فى الالتزام بالعفة، حين نتذكر أن الفحش لا يحبه الله: «**يا عائشة: إن الله لا يحب الفحش والتفحش**» والمسلم ـ بحكم إيمانه ـ مكلف أن يتجنب ما لا يُرضى الله.

قبل انتقال الرذائل بالعدوى:

إن الرد على اليهود بمثل إسفافهم يريح أعصابهم.. فكيف تريح أعصاب أناس يستهدفون إحراق أعصابنا؟

وفوق ذلك: فقد نسكت بهذا الأسلوب نيران العدو، لكن يخشى أن تنتقل رذيلتهم إلينا بالعدوى، فإذا قلدناهم فى هذه النجوى تخلخل الصف الإسلامى وأمكن للعدو أن يعود على بدء.

ومن هنا يحذرنا الحق سبحانه من مثل فعلهم موضحا أن الشيطان هو مصدر هذا العدوان:

وذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلا تَتَنَاجَوْا بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾(١).

مشروعية الدفاع:

إن التصدى للمنكر حق مشروع لا يقبل الجدل وما يجادل فيه إلا الذين

---

(١) المجادلة: ٩، ١٠.

يريدون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا. . ولكن أسلوب التغيير جدير بالتأمل. . لنعود به إلى سنة رسولنا الكريم تصحيحا للمسار. .

وإذ يكف الله تعالى بأس الذين كفروا بما كشف من نواياهم، فإن كتيبة الدعوة ينبغى أن تكون عند حسن الظن بها:

فترد، ولكن بالحكمة. . وتجادل، ولكن بالحسنى. .

الباطل يستسلم .. ثم يسلم

«قصة وفد بنى تميم»

يهدف الإسلام إلى أن يكون المسلمون أمة: تحوطها القلوب.. وتهابها العيون..

ولن تأخذ سبيلها فى هذا المرتقى الصعب إلا إذا أسِّست بنيانها على تقوى من الله ورضوان ثم أخذت بأسباب القوة الغالبة.

وكما أن الله تعالى جعل الدعاة إليه سبب الهداية.. فإنه سبحانه جعل القوة بيد أمرائها..

وعلى هذا النحو كان المسلمون.. وبخاصة والرسول ﷺ قائم فيهم:

فقد استجمعت الأمة حينئذ أسباب الرقى.. حين استكملت عدة الكفاح.. ثم تصدت لأعدائها بما تملك من قوة الشخصية.. وما اختصها الله تعالى به من نَصاعة البيان.. الذى غزت به القلوب.. فهوت إليهم تعلن ولاءها للإسلام..

ولقد كان مجىء الوفود إلى رسول الله ﷺ.. مجلى من هذه المجالى التى نَصرَ الله تعالى فيها جنده.. وهزم الأحزاب وحده.. وفى طليعة هذه الوفود.. وفد بنى تميم وهو ما نحاول التعليق عليه اليوم:

فما قصة هذا الوفد.. وما هى ملامح المنهج الإسلامى فى دعوتهم إلى الله.. وكيف انتهى أمرهم.. فأعلنوا الإسلام.. بعدما ناصبوه العداء؟

ذلك ما نوضحه فيما يلى:

بعث ﷺ «بشر بن سفيان» إلى بنى كعب لأخذ صَدَقاتهم، وتحركت حمية الجاهلية فى صدور بنى تميم. وهم جيرانهم ـ فحالوا بين «بشر».. وبين ما أخذ من صدقات.. حقدا وحسدا معلنين: أنهم لن يتركوا بعيراً واحدا يخرج به «بشر بن سفيان».

حكمة السفير:

وتجلت حكمة سفير رسول الله ﷺ حين توقف.. ولم يغالب القوم.. وعاد إلى الرسول ﷺ ليقول كلمة الحق يَحْسِم بها الموقف المتأزم.

ولكن ما هو موقف الداعية الأول؟

رأى رسول الله ﷺ أن يخاطب بنى تميم باللغة التى يفهمونها.. وهى: القوة.

بيد أنها القوة المنضبطة بالحكمة: حين اختار من العرب خمسين ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى.. وعلى رأسهم.. «عُيَيْنة بن حصن الفزارى» وتبدو حكمة القائد فى اختياره الرجال العظام للمهام العظام:

فكما تجلت حكمة «بشر» من قبل حين لم يخُضْ معركة غير متكافئة مع بنى تميم وفى عُقْر دارهم. تجلت حكمة. الأقرع.. عندما أحْسَنَ تقدير قوة العدو.. فلم يستخِفَّه الغرور.. ليمضى برجاله علانية.. ولكنه كان يسير بالليل.. ويكمنُ بالنهار..

ثم بغتهم فى الصباح.. وحقق عنصرُ المفاجأة ثمرته حين جاء من بنى تميم إلى الرسول ﷺ: بأحد عشر رجلا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيا وأمر ﷺ بحْجزهم.. فَحُجِزوا.

موقف بنى تميم:

ولقد كان الخبر فاجعا لدى قوم يحسَبون أنهم على شىء.. وفى محاولة لِستْر حمرة الخجل جاءوا بوفد يضم الملأ منهم.. فدَلَّ تشكيل الوفد على أهمية الأمر.. وكان مما زاد الغيظ فى قلوبهم اشتعالا.. أنهم عندما دخلوا المدينة مروا بالدار التى بها أسراهم فبكوا لما رأوهم وصاحوا.. وربكهم المشهد.. فأسرعوا منفعلين.. ثم نادَوْه ﷺ من وراء الحجرات: أُخرج إلينا يا محمد: نفاخِرْك.. ونشاعِرْك.. فإن مدحنا زين. وشتمنا شين!!

ولما خرج إليهم ﷺ كانت أصوات أسراهم تطن فى آذانهم فكان أن تعلقوا به ﷺ يكلمونه قبل أن يصل إلى الناس..

الحق.. أعلى صوتا:

ومع أن تصرُّفَ القوم كان أرعن عابثا.. إلا أنه وقف.. وبكل هدوء يستمع إلى مقالتهم على ما يعلم سلفا من ضلالها.. قالوا:

نحن ناس من بنى تميم: جئنا بخطيبنا وشاعرنا لنفاخرك. ونشاعرك.. نحن أكرم العرب فقال لهم النبى ﷺ:

ما بالشِّعر أُمِرْنا.. ولا بالفخار أمرنا..ثم كذَّبهم فى دعواهم.. راجعا بالأمر كله لله تعالى الذى كان مدحه هو الزين وشتمه هو الشين.. دون سواه..

وتحول الموقف لصالح الداعية الذى أراهم من نفسه قوة أحاطت بهم.. وبدا الحق فى مواجهة الباطل أو فى ما يكون اعتزازا بالله تعالى..

تَمَلَّك الحمد حتى ما لمفتخر   فى الحمد حاء ولا ميم ولا دال

وتلك كانت بداية النهاية.. نهاية الباطل..

وذلك.. عندما يستمسك المُحقون بحقهم أشد مما يتعلق المبطلون بباطلهم.. وبخاصة فى اللحظة التى يتشدق فيها الباطل بما يملك من عدة وعتاد.. وعندئذ يتنزل الآى من الله تعالى تأييدا لجنده الذين استحقوا هذا التأييد.. عندما استصغروا كيد الباطل.. وفعلا نزل قوله تعالى تأديبا وتعليما:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

ومن فقه الآيات:

أولا ـ من تربية الله تعالى للأمة بالأحداث.. أن أنزل سبحانه قبل ذلك آياته التى تحذِّرها من الوقوع فى نفس الخطأ:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾.

وثانيا: مع أن القوم حينئذ كانوا مشركين لكن الآيات لا تعنِّفهم إرادة هزيمتهم..ولكنها كانت موضوعية فى الحكم عليهم وذلك قوله تعالى.. **﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾**.أكثرهم، لا كلهم.

ثالثا: ثم إنها إذ تشجب لَغَط القوم.. فإنها تقدم البديل.. فتحًا للطريق بين

---

(١) الحجرات: ٤، ٥.

أيديهم.. لينقلوا خطاهم فى ظلٍّ من مغفرته تعالى ورحمته ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

رابعاً: ويعنى ذلك أن رده ﷺ لم يكن انتقاما بقدر ما كان لونا من القسوة الحازمة الواصلة بالمدعو إلى حيث يعيد النظر فى موقفه.. فلعله أن يتوب.. وهو استجابة للمنهج القرآنى الحريص على هداية الناس.. بما بث فى الكون من آيات كونية.. وما أيَّد به رسله من معجزات.. ثم بما أنزل من آيات بينات شاهدات بوحدانيته تعالى.. لتتعاون كل هذه الآيات على هداية المعاندين.. ولا يتم ذلك إلا بنسيان حظوظ النفس.. ليكون الجهد كله مبذولا.. من أجل مصلحة الدعوة أولا.. وأخيرا.

وفد بنى تميم.. يتراجع:

وأمام المنطق النَّبوى القوى قرر الوفد تعديل خطته. فآثر الملاينة.. وانحسرت آماله العراض.. فى مجرد الإذن له بالكلام.

وأحيانا يحس الباطل أنه على شىء.. وأنه جدير بمرتبة غير مؤهل لها.. ومن ثم يحاول الحصول عليها غصباً أو تحايلا..

فإذا اصطدمت آماله بالواقع الصارم.. لجأ إلى الكذب والتمويه.. فى محاولة للاعتراف بشرْعية أمانيه..

ولكن.. يا للأحلام تحطمها الحقائق.. وهذا ما حدث لوفد بنى تميم:

لقد أخطأوا فى تقدير حجم القوة الإسلامية.. فحاكموها إلى مقياس مادى محسوس.. وما دَرَوْا أنهم يتعاملون مع أناس: ربطوا سرائرهم بالله تعالى.. وعلانيتهم بطاعته عز وجل..

فهم مع الله تعالى فى رباط دائم: ينتظرون كل لحظة رسولا من ربهم هو:

الموت: الذى يدعوهم إلى جنة أو إلى نار.. وما ظنك بمعركه يلتقى المؤمن فيها بكفار: هربوا من الرق الذى خلقوا له.. إلى رق النفس والشيطان؟.. إن العاقبة للتقوى..

وهذا ما حملهم على التراجع فيما بدا من رجائهم إذ قالوا:

يا محمد: ائذن لخطيبنا يتكلم، فقال النبى ﷺ: أذنت له فليقل.

ونتساءل: لماذا تراجع القوم:

إن السبب هناك.. فى موقفه ﷺ:

لقد واجههم بتهمة الكذب.. راجعا بالزَّين والشين على من زَانَه الله تعالى أو شانه..

والكذاب ضعيف حتى فى نظر نفسه التى تصرخ فيه.. ومن أعماقه بأنه كذاب.. فإذا طَلَعَتْ عليه الحقيقة.. كان أضعف من أن يواجهها.. فبدأ يغير وجهته.. ولكن ما كان للحق أن يترك الفرصة لتفوت دون أن يترك للباطل أن يعلن عن غبائه وجفائه.. ثم يكُرّ عليه.. وإذا برياح الإيمان تطوح بالنبتة الضعيفة فى البرية.. لتذبل.. ثم تموت.. وتلك عقبى التحدى.

وإلى الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى

(ب)

يقول العقلاء اليوم:

بدل المواجهة الساخنة بالمدفع والصاروخ.. يمكن أن تكون المنافسة بالفكر. والمقارعةُ بالحجة أجدى..

وربما سمعناهم يتنادون: [حوّلوا حرابكم إلى فئوس؛ لكى تفلحوا الأرض بدلا من أن تريقوا الدماء].

يقولون.. ولكنهم يتعمدون إغفال الأصل فى تقرير ذلك وهو الإسلام الذى وسعَ صَدْر نبيّه ﷺ وجهة نظر المخالف الوثنى.. ثم يطلع الفجر الصادق.. فإذا الباطل زاهق.. وإذا الحق غلاب.. وإذا معركة الإسلام لا تنجلى كمعارك الآخرين عن أشلاء.. ودماء وضحايا.. وإنما تنجلى عن تألق معنى الهداية من خلال الكلمة الطيبة.. فإذا أعداؤك الألداء.. أصدقاؤك الأوفياء..

وتلك قصته ﷺ مع وفد بنى تميم:

لقد أذن لخطيبهم الذى وقف فقال:

[الحمد لله الذى له علينا الفضل وهو أهله الذى جعلنا ملوكا. ووهب لنا أموالا عظاما. نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق. وأكثره عددا وأيْسره عدة. فَمَنْ مِثْلُنا فى الناس؟!

ألسنا برءوس الناس وأُولى فضلهم؟ فمن يفاخرنا فَلْيُعدِّدْ مثل ما عدَّدنا. وإنا لو شئنا لأكثرنا الكلام. ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، أقول هذا الآن لتأتونا بمثل قولنا، وأَمْرٍ أفضل من أمرنا].

من معانى الخطبة:

ويمثل الموقف هنا مواجهة إعلامية مادية تنطلق من وَهْم الغرور والاستعلاء يتولى كبره أخطب القوم.. فى محاولة للتمويه. وتزييف الحقائق.. والتغنِّى بالمال.. والبنين.. والسلاح.. والعظام النخرة فى ظلام القبور.. وفى نبرة عالية يتحدى الباطلُ فيها الحق أن يأتيه بمثل ما أتَى..

الموقف على الجبهة الإسلامية

لم يكن للحق أن يسكت بينما الباطل يتحدى.

ولكن كيف نُسكت عواء الباطل البغيض؟

بالانفعال؟

إن علاج المشكلات لا يكون بالانفعال.. ؛ لأن المنفعل لا يستشعر المسئولية فى غضبته الفائرة.. ومن ثم يقفز فوق المشكلة.. فلا يَحُلها.. ولكن يعقِّدها.. وإنما تُحلَ المشكلات بالقدوة:

لأن القدوة عمل دائم..وحركة ذاتية.. وعاطفة سائدة.. مستقرة.. وليست انفعالاً طارئا.. طائرا!

ولقد كان ﷺ هو القدوة الحسنة.. بعد ما سمع:

فقد كان رده حكيما:

أولا: حين قرر أن يستخدم سلاح الإعلام الإسلامى سبيلا إلى إسكات الباطل..

ثانيا: وقع اختياره على من كان يُعَرف بخطيب رسول الله ﷺ وهو ثابتُ بنُ قيس...

ثالثا: ما يدل عليه الاختيار من احترام التخصص.. وتقدير دوره فى المواقف الصعبة.

رابعا: إذا كان أعداء الإسلام يتخيرون أذكى العناصر للتحرش بنا، فجدير بنا أن نواجههم بالكفاءات القادرة على الوفاء بحاجة الموقف المثير.

ولقد كان من الممكن أن ينفعل المسلمون.. فيردوا بما لا يشفى الغليل.. وبما يمكن أن يستغله المعاندون من خطأ للإضرار بمصالحنا..

إن النجاح هنا ليس كامنا فى إسقاط وجهة نظر القوم.. ولكن فى: كيف نأخذهم إلى جانبنا مهتدين ليكونوا غدا مثلنا.. هداةً أساة؟

وكان جميلا.. أن يُرخِيَ لهم الرسول ﷺ حبال التمنى.. حتى إذا انتهى

خطيبهم.. ثم سولت لهم أنفسهم.. أنهم بلغوا الغاية.. وعندئذ تجيئهم الضربة من حيث لا يحتسبون. فيسقطون من شاهق.. ليكون سقوطهم عبرة.. يجيء من بعدها الاعتبار. إن التسرع هنا ربما كان لصالح القوى المعادية للإسلام..

والمقام: للخبرة.. للتجربة.. لنحسم الموقف بما يرُضِي الحق وهنا نذكر ما قيل للمبرد.

لماذا كان الثعالبى أحفظ منك؟ قال:

لأنى تَرَأَّسْت وأنا حَدَث.. وترأس الثعالبى وهو شيخ.. لقد أفنى شبابه قارئا.. باحثا.. فلما استوفى عدة الكفاح تصدر المجلس.. وهكذا كان ثابتُ بن قيس والذى وقع اختيار الرسول ﷺ.. عليه.. آية شاهدة بضرورة إفساح المجال أمام الشيوخ.. ليحسنوا التعامل مع القوم.. وبين أيديهم.. ومن خلفهم.. شباب الأمة.. ينظرون.. ويتأملون ثم يتعلمون. وإنهم لواصلون غدا إلى ما نرجولهم ويرجون..

الحق الأبلج:

وعندما انتهى خطيب القوم قال ﷺ لثابت بن قيس:

أجب الخطيب.. فقال:

[الحمد لله الذى السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره ولم يك شىء قط إلا من فضله. ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا. واصطفى من خير خلقه رسولا: أَكْرَمُهم نسبا. وأصدقهم حديثا. وأفضلهم حسبا.

فأنزل عليه كتابه. وائتمنه على خلقه فكان خيرةَ الله من العالمين. ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن برسول الله المهاجرون وذوُو رحمه: أكرمُ الناس أحسابا وأحسن الناس وجوها. وخير الناس فعالا. ثم كان أول الخلق إجابة واستجاب لله حين دعاه رسولُ الله نَحْنُ: فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله ورسوله فمن آمن بالله ورسوله مُنع ماله ودمه. ومن كفر جاهدناه فى الله أبدا وكان قتله علينا يسيرا أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم].

السحر الحلال:

وإذا عبَّر خطيب وفد بنى تميم عن الطبيعة العربية معزولة عن الإيمان. . فإن ثابت بن قيس يعبر عنها بالكلمة المؤمنة المصبوغة بروحه. . فى نثر كالنثر ولكنه شىء آخر هو بتعبير الأدباء.

جميل: كالزهر. حلو: كالأمل. نقىّ. . كالثلج.

تبدو فيه عزة الإسلام كما يبدو خيال السماء الصافية فى البُحيرة الساجية الساكنة.

وأهم ما فى الكلمة هو: اعتزاز المحق بحقه أشدَّ مما بدا المبطل مستمسكا بباطله. وتأكيدُ معنى الشهادة على الناس. . شهادةً تجعلهم فى المقدمة دائما. . باذلين أرواحهم. . ويبقى الحق أبداً: على حد قول القائل:

ما سرتُ قط إلى القتال ... وكان من أملى الرجـوعْ
شِيَمُ الأُولى أنا منهـمو ... والأصـل تتبعــه الفروعْ

الباطل يترنح:

ولقد عَمِل هذا الاعتزاز عمله فى النفوس:

فعندما سمع الوفد خطبة ثابت بن قيس قال قائلهم: يا محمد ائذن لشاعرنا أن يقول. . فأذن له. . مُدْركاً ﷺ أن الاستنجاد بالشاعر الوثنى لِيعزِّز زميله الخطيب شهادةُ بهزيمة الكلمة الملحدة. . التى جاءت مغرورة وإذا بها اليوم تجأر بالشكوى. .

فقد جاء شاعرهم ليقول:

نحن الكرام فلاحى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تُنصب البِيَع(١)

وقال ﷺ: **أجبه يا حسان.**

فأنشد قصيدة منها:

أَكرِمْ بقوم رسول الله شيعتُهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

---

(١) المراد: مواضع الصلاة.

ويحاول الباطل أن يرمىَ بآخر سهم فى جعبته حين طلب الأقرعُ بن حابس أن يرمى بثقله فاستأذن الرسول ﷺ والذى أذن له فقال:

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا ... إذا احتفلوا عند احتضار المواسم

وفى هذه المرة كان «حسان» غائبا.. فبحث عنه ﷺ فحضر ليُنْشِدِ قصيدة منها:

بنى دارم لا تفخروا إنّ فخركم ... يعود وَبَالا عِنْد ذكر المكارم

هَبَلْتُم علينا تفخرون وأنتمو ... لنا خَوَل: ما بين ظئر وخادم

فإن كنتمو جئتكم لحقن دمائكم ... وأموالكم أنِ تُقسموا فى المقاسم

فلا تجعلوا لله ندا وأسلموا ... ولا تَلْبَسوا زِيا كزىِّ الأعاجم

وعندئذ اتجه ﷺ للأقرع قائلا له:

لقد كنت غنيا يا أخا دارم أن تَذْكر ما كنت ترى أن الناس قد نسُوه!

وَوَجد الأقرع - ومن ورائه وفد بنى تميم - نفسه أمام بيان معطر بأنفاس الإيمان..

لقد قال شعرا.. وقال حسان شعرا.. ولكن المسافة بينهما بعيدة بعيدة: ترمح فيها الخيل!

لقد كان شعر الأقرع.. شرسا.. مرعدا.. فاتنا..

ولكن الشراسة ضاعت أمام الجمال الوادع.. كما يعبر الأدباء:

والعنف.. ذاب.. فى دوامة الأمل المؤنس..

والخشوعَ الوقور.. على لسان الشاعر المسلم.. يطرد الفتنة الهاجمة.. وهكذا الحق إذا جاء.. يدفع الباطل فإذا هو لا شىء وإذا الحق يختال اعتزازا بالله تعالى الذى منحه عناصر التفوق ودائما:

إنه الشعر الحلال.. أو السحر الحلال كما قيل: يملأ نفسك عاطفة.. لا شهوة وإكبارا.. لا ميلا.. وتقديسا لا رغبة..

وللحديث بقية.....

(جـ)

إذا استطاع الداعية أن يستوعب عقل المدعوِ.. بعلمه.. وأن يأسر قلبه.. بخُلقه. فذلكم هو الجمال.. جمالُ الفجر الصادقِ.. تتسلل خيوطه لتطرد أشباح الظلام..

أما الكمال.. فهو أن يتقدم المدعو.. باختياره.. وبنفسه ليحطم صنمه وبيديه!!

وهكذا كان الداعية المسلم جميلا فى عَرْضه.. كاملا فى هدفه.. حين كشف الغطاء.. فظهر الحق الأبلج.. وإذا بالمدعو.. وهو الأقرع بن حابس يبذل فطرته العربية: فطرة الصراحة والإنصاف قائلا لقومه:

والله لَخَطيبَه - أى خطيب النبى ﷺ - أخطب من خطيبنا. ولَشاعره أشعر من شاعرنا.. ولأَصواتهم أعلى من أصواتنا!

قالها هكذا: فى نبرة مؤكَّدة.. جازمة.. حاسمة..

ولم يكن ذلك فورة انفعال.. ولكنها كانت عَزم الرجال الذين عرفوا الحق فاستجابوا له طائعين..

لقد وجد الأقرع نفسه يعلن إسلامه.. وتقدم الوفد من ورائه فأسلم أيضا!

وتغيرت عندئذ الصورة تماما:

فالذين جاءوا بالأمس واهمين.. تَصِفُ ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى.. يصيرون اليوم للحق جندا..

وموهبتهم الشعرية والخطابية.. ومن اليوم مرصودة لخدمة الحق.. وما الشعرُ إلا خطبةٌ من مؤلف. لَمِنْطق حق أو لمنطق باطل.

وإننا لنحس اليوم بعمق السعادة التى أحس بها الرسول ﷺ والصحابة معه.. أن ساق الله إليهم رزقا.. حين هدى به وبهم قوما لُدًّا.. وسوف يعودون إلى قومهم.. لينذروهم إذا رجعوا إليهم ناقلين ما شاهدوه من قدوة هى أبلغ فى الدعوة من كل لسان.

من الأقوال إلى الأفعال:

ثم . . ماذا كان ردّ الفعل على الجبهة الإسلامية؟

انتهى دور الأقوال . . وجاء دور الأفعال والتى هى أعلى من الأقوال صوتا:

أمر ﷺ بتكريم الوفد المؤمن:

رَدَّ الأسرى إليهم. ثم كساهم . . وزوَّدهم . .

وأجزل لهم العطاء: فمنح كل واحد منهم اثنتى عشرة أوقية من الفضة.

وبلغ من عنايته ﷺ أن تابع بنفسه تنفيذ ما أمَر به فقال لهم: هل بقى منكم أحد؟ فقال قيس بن عاصم أحَدُ رجال بنى تميم: لم يبق منا إلا غلام حدث [يريد عمرو بن الأهتم] فقال ﷺ:

ائتونى بهذا الغلام. فلما حضر وعرف أنه عمرو. أعطاه مثلهم.

ومن دروس الموقف:

أنه إلى جانب ما أحسسنا به من بهجة تصاحب الركب الميمون . . العائد إلى بنى تميم لا بالمِنح والهدايا . . ولكن بالهدى والتقى . . إلى جانب ذلك نستشعر عِظَم المسئولية . . مسئولية تدبر الموقف . . الحافل بالدروس . . لعلنا ونحن نواجه نفس الموقف. على مستوى العالم الإسلامى. أن يكون لنا بَعْدَ العبرة . . الاعتبار:

ومن هذه الدروس:

١ ـ أهمية الكلمة فى تجلية الحق والتمكين له فى قلوب المعاندين . .

ولكنها الكلمة الصادرة ممن هو أحق بها وأهلها . . من أهل البيان:

لقد كان حسان غائبا حين فرغ شاعر بنى تميم من إلقاء قصيدته . .

وكان من الممكن أن يكون الرد عليه فوريا . . إرادة إسكاته . . ولكنه ﷺ ترَيث . . وأرسل فى طلب حسان . . ليأخذ القوسَ باريها!

لقد جاء القوم يريدون كيدا . . والذين كفروا هم المكيدون . .

وتلك سنة الله تعالى فى الدعوة . . ولكنه تعالى يُجريها على لسان أهل الذكر . . كلٌّ فى تخصصه . .

وإذ يقول تعالى: ﴿**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم**﴾.

فإن من طاعته تعالى أن نواجههم بالخبرة.. والتجربة.. توفيرا للوقت.. والجهد.. وضمانا للوصول إلى المأمول..

ولقد جاء حسان رضى الله عنه.. فأنطقه الله تعالى بالحكمة وفصل الخطاب فأطفأت شمسه بُدُور بنى تميم.

٢ ـ وقد تأكد ذلك بنجاح «حسان» رضى الله عنه فى رده عليهم.. بماذا؟

بسلاح.. من جنس السلاح.. وهو الكلمة.. والكلمة.. من نفس النوع.. وهو الشعر.. ثم كان أن بلغ التحدى مداه عندما رد عليهم بشعر من نفس القافية!!

فإذا قال شاعرهم:

نحن الكرام فلاحى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيَع

رد حسان بقوله:

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع

لقد كان شاعر الإسلام قرآنيا فى رده.. حين التزم بما أمَرَ به القرآن فى قوله تعالى: ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوه**﴾ وها هو ذا يلاحق الباطل بما يكافئه من قوة.. من جنس سلاحه.. بل من نوعه.. بل نافسه حتى فى القافية.. فى تخصصه الدقيق!

٣ ـ وهو رد يضاعف الآمال فى قلوب الدعاة اليوم.. فى نصرٍ قريب على أعداء الإسلام.. وإن ملكوا الأقمار السابحة.. الغادية.. الرائحة وإذن.. فلا يأس مع الإيمان.. ولْتمض القافلة إلى حيث أراد بها سبحانه فإذا سمعت من يقول: دعوت فلم يُستجب لى.. فقل له: جرّب.. ومن قال: لا أقدر.. فقل له: حاول..

ومن قال لا أعرف.. فقل له: تعلم.. تعلم من سيرة رسولك وسنته كيف يربو الأمل فى صدرك.. شريطة أن تظل ماضيا على سيرته ﷺ.. وسنته.. وحكمته.

٤ ـ حين أعطى ﷺ الوفد.. فأجزل العطاء.. فقد كان منطلقا من قاعدة إنسانية تقول:

الإنسان.. أسير الإحسان..

فإذا كان المحسن داعيةً يخطط لدعوته فقد وجب عليه أن يُدخل عنصر الكرم فى حركته من أجل الدعوة.. لا سيما إذا كان المدعو حديث عهد بالإسلام يراد تثبيته على الإيمان.. أو عُدْوانياً يراد كف أذاه..

وقد يكون زعيما فى قومه.. الذين يُطمَعُ فى إسلامهم.. مع إسلامه.. ألا وإن فى الإنسان رغبةً فى أن يكون ذا عيشة راضية.. فلماذا لا تُستَغَلُّ هذه الرغبة لصالح الإسلام؟

ولقد كان ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر..

وإذا حَسُن الترهيب أحيانا.. حماية النفس من هبوطها.. فإن للترغيب أوانه تثبيتا للإيمان.. بل زيادة له.

٥ ـ ولاحظ أن العطاء هنا هدية.. جاءت فى أوانها:

فلم يقدِّمه الرسول ﷺ للقوم.. قبل إسلامهم.. وإلا فهو الرشوة المقنَّعة.. والاستسلام الهزيل.

ولكنها هَدِيَّة الغالب:

الغالب الذى يقدمها للمغلوب بِيَدٍ عليا.. بيضاءَ بما تملك من عزة الإيمان..

فنعم ابنُ عم القوم فى ذات ماله إذا كان بعضُ القوم فى ماله كلبا

٦ ـ وأمر آخر: لقد كان النصر ساحقا.. وكان من الممكن أن يُتخذ فرصةً للتشهير بالمغلوب..

ولكن لا مصلحةَ للدعوة فى هذا التشهير.. ومرحبا بالضيف الجديد.. الذى يأخذ مكانه اليوم فى الصف المؤمن.. قوةً تضاف إلى قوتنا.. وكبار النفوس لا يستسلمون لمشاعر الانبهار.. لحظة الانتصار.. وإنما هو الانكسار.. شكرا لله تعالى أن وهبهم النصر.. بلا دماء.. وإنما يتحوَّل قلوب الأعداء.. لتصحو من جديد على حداء الإيمان.

٧ ـ إن ساعة الانبهار بالانتصار نزوة.. سوف تنتهى.. ويبقى أن تظل الأمة بوحدتها أهلا لهذا الانتصار.. وإلى الأبد:

ألم تر إلى سورة الأنفال.. التى لم تُسَمَّ سورة الانتصار مثلا.. ولكنها استُفتحت بالذى هو خير حين قالت للأمة:

﴿فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾..

إن البقاء على القمة.. أشق من الوصول إليها ابتداء..

فاستمروا على القمة.. منتصرين.. بمثل هذه الوحدة التى أصلح الله بها قلوب وفد بنى تميم.. فأسْلَموا..

لقد كانت هناك جبهة إسلامية واحدة:

القائد.. ﷺ.. ومن ورائه الأمة كلها.. بكتَّابها.. وشعرائها وخطبائها.. وأهل الرأى فيها.. كلهم.. كلهم صف واحد فى مواجهة عدو مشترك واحد هو: شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.. أمة: أشداء على الكفار رحماء بينهم:

إن قوسين معا.. لن يصيبا الهدف.. كما قيل..

وإن سهمين معا.. بلا قوس.. أيضا.. لن يصيبا الهدف وإنما يتحقق الهدف: بقوس.. وسهم.. بقوس.. بشيخ.. أحْنَته السنون.. وعرَكته التجارب.. وشابّ.. سهم.. ينطلق عن هذا القوس فى حركة واحدة متكاملة يدفع بها الباطل.. تُصَوِّبُها إلى دماغه.. فإذا هو ساكت.. مستسلم..

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

عاتب الله تعالى نبيه الكريم فى سورة الكهف قائلا:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1].

وفى سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[2].

ومن دروس هذا العتاب:

أن يبذل الداعية كل ما يملكه من طاقة وحكمة.. تاركا مصير المدعو إلى الله تعالى وحده والذى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.. بمعنى:

أن يركِّز الداعية على ما يراد منه.. وهو البلاغ.. الذى يتحرك فى نطاقه.. وعلى قدر طاقته.. وإلا.. فَشَغْل النفس بالنتائج.. داخل بالداعية فى دائرة الأسى على قوم معاندين.. واصلٌ به إلى حافة الهلاك أسفا على قوم إن يشأ أن يُنَزِّل عليهم آية فظلت أعناقهم لها خاضعين.. لكنه سبحانه لم يشأ ذلك.. حكمة وعدلا..

وأحيانا.. يعتمد الداعية على قواه المحدودة.. فإذا لم يجد ما يَهْوَى.. أوشك البأس أن يهوىَ به فى القاع..

وعليه حينئذ أن يتجاوز ذلك.. بمضاعفة الجهد.. وتصحيح الوجهة.. ومراجعة النفس.. فى محاولات تكون أكثر فعالية.. آخذا فى اعتباره أن للدعوة ربا يحميها.. وهو القادر سبحانه على أن يعطف إليها القلوب إذا استقام الأسلوب..

ووظيفتنا: استقامة الإسلوب.. وعطف القلوب بيد خالقها سبحانه وتعالى..

وسوف تجىء تلك اللحظة المباركة والتى يسمع فيها العدو آية واحدة تخرج من قلب مسلم معطرةً بإخلاصه ويقينه.. فإذا هو آت إليك طواعية فى مشهد مثير.. وكان الظن بهذا العدو ألا يجىء.. إلا إذا شاب الغراب!

وذلك بعض ما نفهمه من هذا الموقف الذى نحن بصدد التعليق عليه اليوم:

(١) الكهف: ٦. (٢) الشعراء: ٣.

جاء فى تفسير القرطبى لسورة النور:

[بينما عمر رضى الله عنه قائم فى مسجد رسول الله ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه. وهو يقول: أنا أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فقال له عمر: ما شأنك؟

قال: أسلمت لله.. فقال:

هل لهذا من سبب؟ قال: نعم:

إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرا من كتب الأنبياء. فسمعت أسيرا يقرأ آية من القرآن.. جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة. فعلمت أنه من عند الله. فأسلمت.

فقال له عمر: وما هذه الآية؟ قال:

[«ومن يطع الله» فى الفرائض« ورسوله» فى السنن «ويخشى الله» فيما مضى من عمره و«يتّقه» فيما بقى من عمره «فأولئك هم الفائزون»، والفائز: من نجا من النار وأُدخل الجنة.

فقال عمر:

قال النبى ﷺ:

[أوتيت جوامع الكلم][1]

فماذا فى هذا الموقف من دروس يستصحبها الدعاة إلى الله تعالى فى سفر طويل إلى أعماق الإنسان؟

هذا الدّهقان: [والدهقان: الرئيس فى القوم].

أولا: من الروم.. وللروم مع الإسلام مآسٍ ومتاعب..وماضيهم مع المسلمين مأسوف عليه.

وثانيا: كان دهقانا.. أى مرموق المكانة الاجتماعية هناك.. ثم هو من الناحية الاقتصادية ـ كما يشير معنى اللفظ ـ من ذوى اليسار فى قومه..

(١) تفسير القرطبى ج١٢ سورة النور.

وإذن. فالموقف ـ من الناحية الإعلامية ـ يتم لصالح الدعوة الإسلامية التى تستقبل اليوم شخصية لها وزنها. . فلها أثرها:

لها وزنها من حيث إنها تضيف بما تملك من مال وجاه إلى أمة الإسلام جديدا مفيدا. . ولها كذلك أثرها بما تحدثه من صدع فى الجبهة الرومية المعادية لحسابنا. . إضافة إلى الدرس المفيد من دروس الدعوة. . والذى يقول للدعاة: هوِّنوا على أنفسكم. . وجففوا من دموعكم الغالية. . ولا تذهبْ أنفسكم على الدعوة حسرات. . فللدعوة ـ كما قلنا ـ رب يحميها. .

إن الانفعال. . تصرف طارئ. . والمنفعل لا يستشعر المسئولية. .

والمطلوب هو: القدوة. . القدوة التى هى: عمل دائم. . وحركة ذاتية. . وعاطفه سائدة. . كما أشرنا من قبل.

ومن شواهدها. . ذلك الموقف العظيم. . الذى دبَّره الحق تعالى. . فكان مُعَلَما بارزا على الطريق. حين جاء ذلك الدِّهقان وأعلنها. . وباختياره مدوية: **أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.**

وفوجىء عمر رضى الله عنه بالموقف. ومرت لحظة صمت اختلطت فيها مشاعر الفرح. . بمشاعر التعجب والإعجاب. . والاستغراب. . فعبَّر عنها بسؤاله الرجل: ما شأنك. . ولم يهدأ حتى وافاه الجواب: أسلمت. .

لكنْ مشاعره لم تستقر على حال من القلق حتى سأل عن سبب إسلامه. . فلما عرف السبب. . بطل العجب!

فما هو سبب هذا التحول الخطير. . فى حياة مسئول كبير فى دولة أجنبية معادية. . يهبط اليوم على أرضنا. . يغيظ الله تعالى به أعداءنا؟!

إن الله تعالى يدبر لدعوته. . وهو أغير عليها من كل الدعاة:

وقد ساق إلى ساحتنا رجلا: واسع الثقافة. . رحب المعرفة. . على صلة بكتب الله تعالى المنزلة. .

وإذن. . فلرأيه اعتباره. . وهو أقدر من غيره على إصابة الحق فى موضوع النزاع. . وقد أعلن بين يدى عمر رضى الله عنه أن سبب إسلامه آية. . آية واحدة. . من القرآن الكريم. . سمعها. . من أسير. . مسلم. . هى:

﴿ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾ ومعنى ذلك أنه ظل محجوبا عن هداية القرآن.. محصورا فى جدران من ثقافته حتى اكتحلت عيناه بضوء الفجر.. فكانت لحظةُ المخاضِ وكان الميلادُ الجديد..

ولا يملك عمر رضى الله عنه إلا التنويه.. بالكلمه وتأثيرها.. وبخاصة بما أوتيه ﷺ من جوامع الكلم..

ثم يُطوَى الموقف.. وتبقى فى ذاكرتنا أشعة من سناه..

إنها الكلمة إذن.. سلاح الداعية.. لو خرجت من قلبه..

ثم هى بخاصة الكلمةُ القرآنية التى يجب أن تستثمرها لحساب ديننا.. شريطة أن تخرج من القلبِ.. لتصل إلى القلب..

لقد شاء الله تعالى أن يقع ذلك المسلم فى أسر الروم.. ليتلو هذه الآية.. التى هزَّتْ قلبَ الدهقان ما أشاعته من شجن المظلوم.. وحنين الغريب.. وأنّةَ المشوق..

فهل نحن مستعدون.. هل نحن فاعلون؟

لامكان لليأس.. ولكن المكان لإصلاح ما قد يُفسد الانفعال من مواقفنا.. لقد أسْلَّمت - فى العام الماضى - ثلاث قبائل فى «الكاميرون» دَفعة واحدة.. بالموقف.. الحكيم.. والكلم الطيب..

وما زالت الكلمة قادرة على ذلك.. لكنها فى حاجة إلى أسير.. مسلم.. أقصد: إلى عبد.. مسلم.. خاشع.. منفعل بما يقول.. لا ينقل كلامه من القاموس.. ليؤثر فى النفوس: وكما قالوا:

[إن اللغة فى القاموس ألفاظ ميتة، قابعة فى وجودها الفردى المنعزل. ولن تكتسب حياتها حتى تكون لبنة فى بناء معمارىٍّ هو الجملة التعبيرية التى يشكلها الخطيب فتحمل بصمات نفسه وطبيعة مزاجه] ا.هـ.

وهذا سرٌّ من أسرار التأثر بالكلمة الهادفة.. على ما قيل أيضا:

[إن من يمتلكه المعنى الذى يكتب فيه. هو الذى يملك به الذين يقرأونه، أما الذى ينحت الألفاظ من أعماق القاموس بالمِعْوَل.. ليكوِّمها على الورق بالمِجْرفة.. فهو «عامل» فى إصلاح الطرق.. وليس صائغا لجواهر الكلام] ا.هـ.

هذا عن تأثير الكلمة بعامة.. فإذا كانت الكلمة قرآنية.. ينطق بها مسلم صادق الإيمان.. فإنها تفعل الأعاجيب.. وهذه واحدة منها متمثلة فى هذا الرُومِىّ الذى طارت به الآية على جناحين منها ثم حطت به فى ديار الإسلام.. كحمامة السلام..

وما تزال آى القرآن الكريم صالحة للعمل.. وإخراج الناس من الظلمات إلى النور.. ولكن أين العَراء؟

يقول أحد الباحثين: [إن تأثير القرآن فى نفوس المؤمنين بمعانيه.. لا بأنغامه وبمن يتلوه من العاملين به.. لا بمن يجوِّده من المحترفين به.. ولقد زَلزَل المؤمنون بالقرآن الأرض.. يوم زَلْزَلت معانيه قلوبَهم وفتحوا به الدنيا، يوم فتحت حقائقه عقولهم، وسيطروا به على العالم يوم سيطرت مبادئه على أخلاقهم ورغباتهم وبهذا يُعيد التاريخ سيرته الأولى] ا.هـ.

أما بعد: فقد قال الحسن البصرى رحمه الله: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان. واقرءوا إن شئتم قوله تعالى: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا﴾**.. ولقد جالس هذا الرومى القرآن لحظة كان فيها إيمانه.. ويبقى أن نفهم سر الكلمة.. وآثارها.. فنحسن استثمارها.. ونتحاشى أوضارها.. فإنه إذا لم تَعْرض الكلمة على عقلك.. خرجت هَذَرا.. وإذا لم تغمسها فى قلبك.. كانت حجرا!

(هـ)

كان إسلام المسئول الرومى مفاجأة قلبت حسابات الأعداء رأسا على عقب.. بقدر ما كان حدثا سعيدا رفع الله به معنوية المسلمين الذين استيقنوا أن الله تعالى ناصرٌ دعوته.. بما لا يدور فى خيال..

كان إسلامه مُهمًّا.. ولكن أهمُّ منه.. كيف تم.. وبأيّة وسيلة؟

آية واحدة.. خرجت من قلب أسير مسلم.. فأصابت فى الدهقان مكان الإقناع.. وما خرج من القلب.. وصل إلى القلب.. كما قلنا، وبقى الموقف حيا فى ضمائرنا.. يتقاضانا مدارسته.. وصولا إلى ما يشير إليه من دروس منها:

ضرورة أن يستيقن الدعاة أن للكلمة ـ بصفة عامة ـ دورها الحاسم فى الدعوة.. وكفايتها كسلاح يغنى عن كل سلاح..

بمعنى استبعاد العنف من قاموس الدعوة بالمرة.. ما دام ذلك السلاح الهادئ الفعال الكلمة الطيبة: ما دام مضمون النتائج.. مبارك الثمرات. ثم ما دام متاحا لكل راغب فى الإصلاح.

فإذا كانت الكلمة.. قرآنية.. فقد وقعنا على الكنز.. الذى لا يملكه غيرنا.. ونحن به قادرون على التغيير..

والسؤال الذى يفرض نفسه الآن:

إلى أى حد تؤثر الكلمة فى حياتنا الكلمة بعامَّة.. والقرآنية بخاصة؟ وإلى أى حد استشعر أعداء الإسلام خطر القرآن على أوضاعهم فدبَّروا له.. الأمر الذى يحمِّلنا مسئولية إحباط مسعاهم بتدبُّر معانيه وفهم مراميه؟

وعن أثر الكلمة نقول:

ما أكثر ما تسمع من كلام.. ولكن.. بلا عائد:

فما كل قول قيل علم وحكمة   وما كل أفراد الحديد حسام

ومع هذا.. فقد احتفظت ذاكرة أمتنا بمواقف.. كان للكلمة فيها أثرها فى كسب القضية.. وفى لحظة خاطفة:

ومن ثمرات الكلمة الطيبة:

ذهب الشاعر ليمدح أحد الأغنياء:

ودلف الممدوح إلى داخل داره ثم عاد وقد تقلّد سيفه!

فلما أبدى الشاعر قلقه من المشهد متسائلا عن سره قال له الغنيّ:

إن أحسنت.. أحسنا إليك

وإن أسأت... قتلناك..

وجمع الشاعر أطراف قريحته.. فيما يشبه ضربة الخوف فأحسن المديح..
وسُرَّ الغنيُّ وقال له:

نُعطيك على قدرك.. أم على قدرنا، فقال الشاعر:

بل على قدرى.. فأعطاه خمسين ألفا..

فلما قيل له: لماذا لم تطلب على قدر الممدوح قال:

ليس فى داره ما يفى بمقداره!

فما كان من الممدوح إلا أن قال له:

أنت فى هذه أشعر من قصيدتك! وأمر له بخمسين ألفا أخرى!!

وتأمل كيف اكفهر الجو: بالرعد يصك الأسماع.. والبرق يخطف الأبصار.. وكيف أطلّ الموت على الشاعر من قريب.. وفجأة.. يُلهمه الله تعالى من طيّب الكلام ما وضعت به الحرب أوزارها.. وتراجعت السيوف.. أمام حكمة الحروف.. الحروف التى سددها الشاعر إلى قلب الرجل.. فرفع الراية البيضاء مستسلما.. لم تكن الكلمات.. سهاما.. لكنها كانت أمضى من السهام.. لأنها خرجت من قلب شاعر حسّاس.. حيّ..

إن السهم ليخرج من القوس الرخو.. رخوا.. ومن ثم.. يقع قبل أن يصيب الهدف.. أما إذا انطلق من قوس مشدود.. فسوف يقع موقعه كما أراد راميه.

فإذا كانت الكلمة قرآنية.. فقد صارت بالقرآن قذيفة لا تخطئ مرماها..

وهكذا كان شأنُ الآية التى خرجت من قلب الأسير المسلم:ـ

لقد كان أسيرا. . نعم. . لكنه بالقرآن. . أوقع المسئول الرومى فى الأسر. . فَهُرع إلينا مسلما. . قانتًا لله حنيفا. .

وكَسَبنا بآية واحدة: عَدُوًّا كان بالأمس حربا علينا. . ليقف معنا فى خندق واحد. . يدلنا على عورات قومه. . لنُحكِم خطة ملاقاته. .

وإذ كانوا فى الطب يحصِّنون المريض ضد مرض ما بجَراثيم من نفس النوع. . فإننا نتخذ من الضيف الجديد سلاحاً. . فرعا من نفس الشجرة نهزها به!

وإذ يقول حكماؤنا: أنا لا أحمل هم الإجابة. . ولكن أحمل هم الدعاء. .

فإننا نقول ـ وبنفس القوة ـ إننا لا نحمل هم دخول الناس فى دين الله أفواجا. . ولكن الهم الذى نحمله هو: كيف ندعوهم. . وبالقرآن. . دون سواه؟

إن الراغبين فى الإسلام اليوم جمٌّ غفير. . وفى أعماقهم فطرة نزاعة إلى الخلاص بعد أن ذاقوا من مذاهبهم وبال أمرهم. .

ألم تر إلى تلك المرأة الألمانية التى سمعت من آى القرآن ما أذهلها. . فصاحت باكية قائلة للمحاضر المسلم. . خذونا نعشْ فى رحابكم. . سوف نشكوكم إلى الله. . إن لم تفعلوا. .

وإذا كنا نسمع اليوم أصواتا مشكورة مأجورة تدعو إلى الإسلام على مستوى الكرة الأرضية. فما زالت الآمال تحدونا إلى مزيد من الجهد. . ومزيد من الجدّ فى صحبة القرآن. . لنتمكن بكلمه الطيب. . أن نسوق إلى هذه القلوب. . إلى هذه الأرض الجدبة. . ماءً زلالا. . يروى غُلة الظماء. .

إن العودة. . عودة الداعية إلى قلبة أوّلا. . ليَصْبَغه بقيم القرآن هم عظيم يجب أن يحسمه أولا. . ليخرج من بعد على الناس. . داعيا إلى الله بإذنه. . ولنا فى سلفنا الصالح رضوان الله عليهم: أسوة حسنة، ألم تر إلى سيد القبيلة المشرك عندما لدغته عقرب ففزع إلى مجموعة من الصحابة نزلوا بساحته فلم يطعمهم. . فلما طلب رجالُه الرقيا. . رقاه صحابى بسورة الفاتحة. . فشُفى بإذن الله تعالى.

لقد خرجت الفاتحة من قلب خاشع. . انصهر فى بوتقة القرآن. . فخرجت

أعمال صاحبه وأقواله محفوفة بسحره الحلال.

وكما قال أحد الأدباء:

نحن نقرأ سورة طه.. فلا تتجاوز حلوقنا.. وقد قرأها عُمر فتحول من رجل: أراد قتل محمد.. إلى عمر العبقريّ والفُضيل.. الذى طالما قطع الطريق.. يسمع قوله تعالى:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق..﴾ يسمعها.. فيتحول من قاطع طريق.. إلى ما صار إليه.. ثم.. بسورة التكاثر صار «ليوبولد» صار «محمد أسد»، وما أحرانا أن نحسن صحبة القرآن.. ليعطينا القرآن بعض أسراره.. وإلا.. فلن نحقق ما نرجوه بمجرد عقيرة نجأر بها ومن حولنا العشاق يصخبون وهذه واحدة من سلبيات الدعوة على مستوى بلاد الإسلام.. والتى فطن إليها الغيارى من سلفنا الصالح فى محاولات مكرورة لِتَمَثُّلِ معانى القرآن. واستشعار جلاله..

قال رجل لابن المبارك رحمه الله:

قرأت البارحة القرآن كله! فقال له ابن المبارك:

ولكن أعرف رجلا ـ ويعنى نفسه ـ لم يزل البارحة يكرر قوله تعالى:

﴿ألهاكم التكاثر...﴾ حتى أذّن المؤذن لصلاة الفجر.. وما استطاع أن يتجاوزها!

وابن المبارك هنا ـ كغيره من سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ـ يتجهون إلى الآية.. بكل منافذ الإدراك فيهم.. وبكل ما يملكون من همة وعزم.. فكانوا من الآيات فى بستان بهيج.. **فأطْلَعتْهم** الآيات على أسرارِ كمالِ وجوده تعالى.. ثم تلطف بهم فمنحهم من فيض جوده.. فانضافت البصائر.. إلى الأبصار.. فرأوا من الآيات عجبا.. وكانوا منها على ما قال الشيخ دراز:

أمام فص من الماس.. يشع ضياء فى كل اتجاه.. فلا يدرون ما يأخذون وما يَدَعُون.. ولقد قبسوا من هذا النور.. فكان النشور.. نشورُ الغافلين الذين هُرِعوا إلى مصدر النور.. فصحا النائم.. واستيقظ الغافل.

لقد كان القرآن ـ كما يقول أحد الأدباء:

كان يساقط على قلوبهم رطبا جنيا..

وعلى أنفسهم.. نُبْلا..

وعلى عقولهم ذكاء.. وعلى إراداتهم مضاء.. وعلى أعْيُنِهم بكاء.. كان وجودَهم الجسمى والعقلى معا:

نشزهم.. عظما.. وكساهم لحما.. وتمشّى فى عروقهم دما.. ثم شع فيها من بركته ما جعلهم حداة القافلة.. وهداة البشر.. وإنهم لِفتية آمنوا بربهم فزادهم ربهم هدى:

فتية: لم تلد سواها المعالى   والمعالى قليلة الأولاد

فإلى القرآن يا أمة القرآن.. تَنبتْ لكم أجنحة تحلق بكم.. إلى المعالى:

لأسرار آيات الكتاب معانـــى   تدِق.. فلا تبدو لكل مُعانى

إذا بارقٌ قد لاح منها لخاطرى   هممت قرير العين بالطيـــران

ما بقَيِتْ هناك حياة.. فإن المعركة بيننا وبين أعداء الإسلام مستمرة.. هؤلاء الأعداء.. الذين يقعدون لنا كل مرصد.. منتهزين كل فرصة مواتية ليضربوا ضربتهم..

ولقد كان تحويل القبلة واحدةً من فرصهم التى انتهزوها إرادة خلخلة الصف المؤمن.. وكانت درسا يكشف عن مؤامراتهم التى يدبِّرونها بلَيْل..

هذه المؤامرات التى هيأ الله تعالى بها الأمة لتخوض هذه المعركة بما منحها من شخصية قوية تُجهِضُ المؤامرة قبل أن تحقق أغراضها.. على نحو يجلِّى للدعاة معالم الطريق.. وطبيعة العدو. حتى لا يُلدغَ المؤمن من جحر مرتين:

إن المناسبة إذن درس من دروس الدعوة.. ينبغى أن نتملاه؟

لقد لفت الحق أنظار المسلمين أولا إلى هذه المؤامرة.. وقبل أن تكون... ليأخذوا من الآن.. وضع الاستعداد:

وذلك قوله تعالى: **﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها﴾**.

فإذا هبت العاصفة غدًا كان المسلمون لها.. على حد قول الشاعر:

عرفنا الليالى قبلما نزلت بنا ... فلما دهتنا لم تزدنا بها علما

ولقد حقق الله تعالى أمل نبيه ﷺ فى التوجه إلى القبلة التى يرضاها إلى المسجد الحرام..

وكان لهذا التحول صداه لدى المسلمين وأهل الكتاب على سواء:

أما فيما يتعلق بأهل الكتاب: فقد تَزَعَّم اليَهودُ حركةَ تمرد واسعةَ النطاق استمسكوا فيها ببيت المقدس قبلة لا يبغون عنها حولا.. إلى جانب ما أثاروه من معركة إعلامية جدلية تتساءل بدافع من التشكيك ـ: عن سر تحوُّل المسلمين عن قبلتهم التى كانوا عليها.. وكان الظن أن يثبتوا.. ومع دافع التشكيك كان هناك هدف للحملة الظالمة هو: شغل المسلمين بمعركة جدلية عقيمة.. لعلها تصرف

المسلمين عن مواصلة المسير إلى الأمام، أما بالنسبة للمسلمين فقد اغتبطوا مع نبيهم ﷺ بهذا التحول إلى الحد الذى ظنوا معه أنهم بلغوا غاية كمالهم.. وحققوا بالتحول إلى المسجد الحرام أكبر أهداف وجودهم..

وكان لابد من درس يعطى القضايا حجمها الطبيعى.. فرارا من اختلال النِّسب.. واعتلال سلم الأولويات..

فإذا كانوا يبحثون عن البر - وإنهم لكذلك - فليس البرُّ فى التوجه.. قِبَل المشرق أو المغرب.. ولكن البر شىء وراء ذلك..

وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة:

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

وإذا كان أعداء الإسلام ينتهزون الفرص لينْفُذُوا إلى العُمْق فينا من خلال نقاط الضعف فى حياتنا.. فإن الحق تعالى يربِّى الأمة بمثل هذه الآية الكريمة لتكون على أوفى معانى القوة.. ليرتد العدو خاسئا وهو حسير..

فماذا فى الآية الكريمة من دروس تستصحبها أمتنا اليوم.. حتى تفوِّت على الأعداء أغراضهم بما تمنحهم من عناصر التفوق؟

إن الآية الكريمة تشتمل على عناصر القوة فى الشخصية المسلمة وهى:

صحة الاعتقاد.

وحسن المعاشرة.

وتهذيب النفس.

وتلك أسلحة الدعوة القادرةُ على الإحاطة بالعدو.. قبل أن يحيط بنا:

أما صحة الاعتقاد فمفهومة من قوله تعالى فى الآية الكريمة:

﴿.. من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين..﴾ وأما حسن المعاشرة فمفهوم من قوله تعالى:

﴿.. وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب..﴾.

وأما تربية النفس وتهذيبُها فمأخوذ من ختام الآية الكريمة:

﴿.. وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس..﴾.

والمؤمن الذى يستجمع هذه الخصائص هو غاية الدعوة التى يراد لها أن تنتصر.. فهو اللبنة القوية فى البناء الكبير..

وقُوَّتُه المرتكزةُ على هذه القواعد الثابتة هى المستهدفة بهذه المعارك الجدلية التى يريد المغرضون فرضها حتى لا يَبْقَى لديه وقت للصلاح.. أو الإصلاح.. إن المسلم فى ضوء عقيدته عالمىّ النزعة.. إنسانى الاتجاه:

وهو حلقة فى سلسلة الإنسانية الضاربة فى أعماق الماضى: فهو لا ينطوى على نفسه.. بل هو دائما: مفتوح القلب والعقل على العالم:

ماضيه.. وحاضره.. عُلْوِيِّه.. و سفليِّه:

يؤمن بالله تعالى إيمانا يُجَرِّدُه من الخوف.. إلاَّ منْه سبحانه.. وهنا تكمن عزته. ويؤمن باليوم الآخر إيمانا تكُف يده فلا تنحرف به يمينا أو شمالا ويجرده للخير.. وهذه وظيفته.

ثم هو فى إيمانه بالملائكة.. والكتاب كله.. والرسل جميعا.. يحس بوجوده ممتدا فى الكون.. وليس هو بالذرة التائهة فى أجواء الفضاء..

ومن هذا الوجود الطليق: يفيض عطاء: وفى كل اتجاه.. وعلى كل مستوى:

فمع أنه يحب المال.. بل يعشَقه لكنه يجود به راضيا.. بادئا بوصل رحمه احتراما لواشجة الدم.. وليس هو بالمتجاوز قريبه إلى الغريب ثم هو يَنْشر من ظله على اليتيم بخاصةٍ ليصبح بالإحسان عضوا فى مجتمعٍ يحس بصحة الانتماء إليه..

إن إحساس المسلم بأنه شخصية عالمية «يمنح قلبه اتساعا.. ويده انبساطا.. فإذا له.. حضور فى كل قلب.. وفى كل بيت:

مع المساكين.. والغرباء.. والسائلين.. والعبيد.. مع المحاويج ليأخذوا مكانهم فى الصف إلى جانبه.. وليس هو بالأنانىِّ الذى يريد أن يظل فوق القمَّة وحده!

ولا يصدر هذا العطاء من فراغ نفسٍ يستهدف الدعاية الرخيصة.. ولكنه نابع من نفس أصلَحت نفسها أولا.. فأصلح الله بها ما أبلت الأيام من شباب الأمة:

فهو يُطَّهر نفسه بالصلاة.. ويُطَّهر غيره.. بالزكاة.. ثم يفى بالوعد وفاء يُبقى على الثقة الرابطة بين أفراد الأمة ولئن صدمته الأيام أحيانا:

فغدر القريب.. أو خان الصديق.. أو تمرد الضعيف.. فإن له من صبره قلعة تحميه من هجمة اليأس.. ليظل بالصبر ضوءا كاشفا.. فلا تزلَّ قدم بعد ثبوتها..

وإذا أردنا أن نضع للصدق تعريفا فهذا المسلم هو تعريفه.. وإذا أردنا أن نُحدِّد معالم التقوى.. فذلك المسلم هو جوهرها..

وما أحوج الأمة اليوم إلى مسلم من هذا الطراز:

الذى يواجه دعايات الباطل بكيانه الموحِّد.. الموَحَّد فى أمة واحدة.. تقف صفا واحدا.. غير قابل للاختراق.

وتلك عبرة من عبر ذكرى تحويل القبلة التى أرادها الأعداء فرصة لإحداث البلبلة فى صفوف الأمة وأرادها الله تعالى بهذه التربية مناسبَةً لبناء الذات المؤمنة على نحو يُلقى الرعب فى قلوب أعدائها فلا يكررون المحاولة، وإلى هذا أشار المفسرون:

[وهكذا تجمع آية واحدة بين أصول الاعتقاد. وتكاليف النفس والمال. وتجعلُها كلا لا يتجزأ، ووحدةً لا تنفصم وتضع على هذا كله عنوانا واحدا هو «البر».

والحق أنها خلاصة كاملة للتصوّر الإسلامى: ولمبادئ المنهج الإسلامى المتكامل: لا يستقيم بدونها إسلام ومن ثم تعقب الآية الكريمة على مَنْ هذه صفاتهم بأنهم:

﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ ا.هـ .

ومن صميم البر أن نَبَرَّ هذه الأمة باستشعار هذا المعنى لنصبح على قلب رجل واحد.. حتى نفوِّت على أعدائها أغراضها..

إنها الوحدة الجامعة.. المانعة.. فى ذكرى تُعيد إلى الأذهان.. كيف رد الله تعالى بهذه الوحدة كيد الأعداء.. وبنفس القوة كيف كان التفرق داءها العضال وذلك ما تنطق به حقائق التاريخ:

لقد اختلفت الأمة الإسلامية يوما - وفيليب على الأبواب وفيليب هذا هو ملك أسبانيا.. والذى قضى نهائيا على دولة المسلمين فى الأندلس بعدما مكَّنَتْه من نفسها بالنزاع..

وما يزال لأعدائنا الأقدمين.. أحفاد.. يكررون اليوم نفس المحاولة.. وفى اتجاه الغاية نفسها وهى: تمزيق وحدة المسلمين.. ويفرض علينا ولاؤنا للإسلام أن نتناسى ما يمكن أن يكون من خلافات فرعية قد تُستَغَلُّ ضدنا.. لنواجه كأجداد لنا من قبل - لنواجه المؤامرة بما يكافئها:

من العقيدة.. ننطلق منها..

ومن الشريعة الغراء تضبط خطانا..

ومن الأخلاق الزكية ما يصير إلى جانبنا.. جندا.. فإذا الباطل زاهق وإذا الحق غلاب.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة